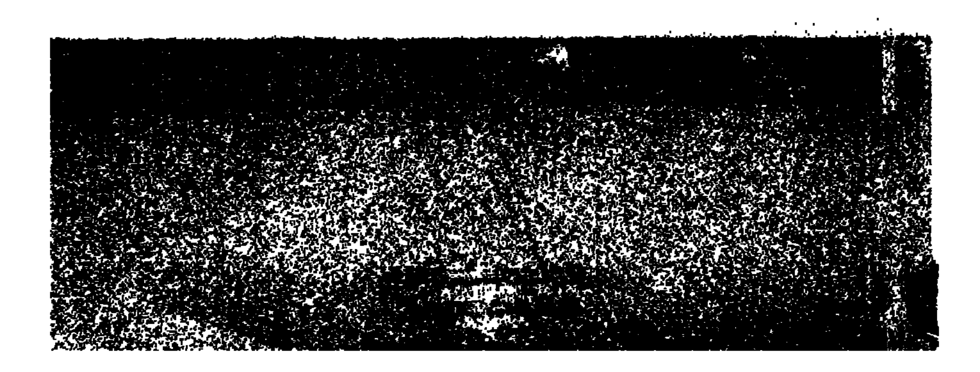










روائع الفكر الإنساني

الفلسفة الفرنسية

من ديكارت إلى سارتر ...

تأليف جان فال
ترجمة فؤاد كامل
مراجعة الدكتور فؤاد زكريا

دار الثقافة للنشر والتوزيع
القاهرة - ت . ٩٠٤٦٩٦
٢ ش سيف الدين المهراني الفجالة



تصدير المؤلف

ينبغى ان يقال فى مبدأ الأمر انه لا الفلسفة تنفصل عن ضروب النشاط الانسانية الأخرى ، ولا فرنسا تنفصل عن غيرها من الأمم • والواقع أن القرن الثامن عشر الفرنسى حين أطلق اسم الفلاسفة على رجال كانوا فى حقيقة الأمر أدباء أكثر منهم فلاسفة ، فانه جعلنا نشعر ـ عن حق تماما ـ بأن الفلسفة ليست مجالا مقصورا على أشخاص محترفين • وعلى هذا ينبغى أن يحسب أى تاريخ للفلسفة الفرنسية حسابا لأدباء عظام من أمثال مونتانى وروسو •

وتاريخ الفلسفة الفرنسية لا ينفصل ـ بخاصة ـ عن تاريخ العلم ، فديكارت ـ مثلا ـ لا يمكن ان يفهم دون الرجوع الى العلم فى عصره ، والى جاليلو ، كما لا يمكن ان يفهم فولتير دون نيوتن ، أو بوترو Boutroux دون هنرى بوانكاريه Henri Poincaré •

وكذلك لا تنعزل الفلسفة الفرنسية عن الفكر الأوروبى او عن الفكر العالمى • فكيف نفهم ديكارت دون منازعاته مع هوبز وكثير غيره ، وكيف نفهم فولتير دون بيكون ولوك ، ومين دى بيران Maine de Biran ولاشلييه Lachelier وبوترو دون ليبنتس وكانت ؟

ومع ذلك ، فمن الممكن كتـــابة تاريخ للفلسفة الفرنسية ، وسنحاول هاهنا أن نضع تخطيطا لهذا التاريخ •

فهدفنا هو تقديم عرض للفلسفة الفرنسية كما تكونت وتطورت من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين • وليس من شك في أننا نستطيع أن نرجع الى أبعد من ذلك ، وأن نذكر جميع الأسماء التي جعلت من العصر الوسيط الفرنسي عصرا مرموقا ، وأن نتحدث في مجال الفلسفة العلمية عن مدرسة باريس التي كشفت لنا عنها مؤلفات بيير دوهم Pierre Duhem البديعة • ولكننا سنتخذ نقطة البداية ــ في هذا الكتاب ــ من مونتـــاني • ولقد أوضـــح ليون برونشفج Léon Brunschvicg في كتابه الرائع عن : « ديكارت وبسكال بوصفهما قارئين لمونتاني » تأثير مونتاني توضيحا وافيا بحق • فعنده استعاد الوعي وعيه بنفسه ، كما فعل من قبل عند سقراط • وقد أراد مونتاني أن يبين لنا الشكل الشامل للوضـــع الانساني • ولقد كان في تأكيده لملكة الحكم le jugement التي هي ــ على حد قوله ــ أعدل هبة منحتنا اياها الطبيعة ، يعد رائدا للنزعة العقلية rationalisme: وبتساؤله المستمر يعد رائدا للنزعة الشكية scepticisme ، كما يمكن أن نبين أن فولتير ورينان انمـــا كانا يواصلان اتجاها من بين الاتجاهات العديدة التي أرسى هو دعائمها ، وهو ــ من عدة وجوه ــ ضروري لفهم بسكال • وقد وجد فيه القرن الثامن عشر رائدا من رواد عبادة الطبيعة culte de la nature، كما انه في تأكيده للحركة المستمرة التي تتخذها حالاته الشعورية يعد سلفا لفيلسوف من الفلاسفة الفرنسيين العظام هو برجسون • وعلى هذا النحو يسري تأثير مونتاني خلال تاريخ الفكر الفرنسي •

القرن السابع عشر

بينا يقول قارىء آخر لمونتانى هو شكسبير ــ على لسان هملت : « أن أوجد أولا أوجد ، هذا هو السؤال » ، يجيب ديكارت على هذا السؤال فى صورة حاسمة بالنسبة لتطور الفلسفة الحديثة كلها ·

ولقد كان مطمح ديكارت هو أولا أن ينفذ ببصره فى وضوح الى أفعاله ، وأن يمشى فى هذه الحياة مشية الواثق · بيد أن هذا أيضا كان مطمح رجال عصر النهضة : أن يجعلوا الانسان سيدا للطبيعة ومالكها لها ، وأن يجعلوه ينتصر على العقبات جميعا ، (وهو ماقال به برجسون فيما بعد) ، وربما على الموت نفسه · ومن أجل هذا كان لابد له من العلم · فالعلم هو القوة ، سواء فى نظر ديكارت وفى نظر بيكون · وديكارت ــ شأنه فى ذلك شأن كونت ــ يرى أنه لابد من المعرفة للتنبؤ ، وبالتالى للسيطرة · واذن فينبغى أن نجد شيئا صلبا ثابتا فى العلوم ·

وربما تجادلنا طويلا ــ جدلا لا طـائل وراءه ــ عمـن يكون مؤسس الفكر الحديث : أهو ديكارت أم بيكون ؟ فقد كان أحدهما

أكثر عناية بالتجربة (أو على الأقل هو الذى وضع قواعد التجريب)، والآخر أشد عناية بالعقل ، غير أن كليهما يخضع بلا شك فى نقاط معينة ـ لتأثير الفكر الاسكلائى • ولكن الأمر الذى لا جدال فيه هو أن فرنسا حين أخرجت ديكارت الى الوجود ، قد انجبت العقل الذى حدد مجرى المحاولات الميتافيزيقية العظيمة فى القرن السابع عشر ، ذلك العقل الذى أطلق عليه اسم « أبى المثالية الحديثة » • ولقد كان نفس الفيلسوف الذى خلص معرفة النفس من كل الكيانات entités الاسكلائية ، هو نفسه الذى خلص علم الأجسام والحركات من كل التصورات الشائهة التى أريد تطبيقها على النفوس والأجسام فى آن واحد •

ولكى نتحدث بطريقة شافية عن ديكارت ، ينبغى أن نعرض مذهب القديس توما ، ومن قبله مذهب أرسطو بعلله الأربعة التى لم يحتفظ ديكارت منها ـ بنفحـــة من نفحات العبقرية ـ الا بواحدة فحسب (وهى العلة الفاعلة la cause efficiente التى وحد بينها وبين العلة الصورية) وبنفوسه المتعددة التى لم يحتفظ ديكارت منها ـ بنفحة أخرى من نفحات العبقرية ـ الا بواحدة فحسب ، وبأنواع التغير الكثيرة التى قال بها والتى لم يحتفظ ديكارت الا بواحد منها هو الحركة الموضعية (الحركة فى المحل) • وعلى هذا كان ديكارت هو المطهر الأعظم ، le grand purificateur على حد تعبير خصمه بسكال الذى كان (مع كانت) أهم خصومه •

ومن المستحسن أن نعيد الى الأذهان طبيعة الجو الذى نما فيه فـكر ديكارت ، حيث امتزج تأثير مونتانى وشـــارون Charron والرواقيين بتأثير اليسوعيين (الجزويت) ورهبان « روزكروا » (١)

(١) طائفة من الرهبان المتقفين الالمان فى القرن الـسابع عشر • (المراجع)

وحيث قام الأب « مرسين » Mersenne بدور الوسيط بين العلماء والفلاسفة ، وحيث عمل « سوربيير » Sorbières على نشر فلسفة « هوبز » ٠

لكي نتحدث عن ديكارت ، يجب أولا أن نرى ديكارت في الرابعة والعشرين من عمره . ديكارت الذى تراءى له فى نوفمبر ١٦١٩ و ١٦٢٠ أساس اختراع رائع ، والذى رأى بين ومضات النار في أحد أحلامه معجم العلوم الانسانية ، وديوان الشعراء ٠ وكان معنى حلمه هذا ، في رأيه ، هو أن للشعراء أحكاما تحمل من المعاني أكثر مما تحمله الأحكام التى نجدها فى كتابات الفلاسفة ، وأن الحماسة وقوة الخيال يخرجان من الشعراء فى يسر وتألق بذور حكمة لا يتاح صدورها عن عقل الفلاسفة ٠ لقد كان ديكارت مهيأ لتلقى التجارب الصوفية ، وقد تلقاها بالفعل ٠ وفى هذا الوسط الذى يتكون ــ على وجه الدقة ــ من تلك التجارب أتاه كشفه وليله، وحلمه ٠٠ غير أن هذا الليل ، وذاك الحلم كان مقدرا لهما أن يجلبا له الوضوح ، فثمة وحدة فى العلم ، ولا تقتصر الوحدة على الهندسة والجبر فحسب (وهو ما أثبته اثباتا رائعا) ــ بل ان من الممكن أن تتحد العلوم جميعا ٠ وهكذا نجد أن الحماسة والالهام موجودان فى أساس الكشف الديكارتى ٠ وفى نفس الوقت الذى تصور فيه سلسلة العلوم الهائلة التى سوف تضم الكون بأسره ، كتب قائلا : ان فى الأشياء قوة فعالة فريدة هى الحب والاحسان والانسجام ٠ وكان من بين المعجزات الثلاث التى عددها ، معجزتان هما من عقائد الدين : الخلق والتجسد ، بيد أننا نستطيع أن نقول ان المعجزة الثالثة هى الخلق والتجسد فينا نحن ، أعنى حرية الاختيار الانسانية ٠

وينبغى أن نعرض لديكارت وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، حين أصبح صاحب منهج يسمح لنا بالوصول الى العلم العام

للنظام والقياس •• منهج لم تكن الرياضيات الا غلافه فحسب • وهذا المنهج مؤلف « من حدس بالطبائع البسيطة ومن الاستنباطات التى ليست الا حدوسا متتابعة ، على حين ان الاحصاء يمهد للحدس والاستنباط ويدعمهما ، وكلما هبطنا نحو الاحصاء اتســع الدور الذى تقوم به الذاكرة ؛ ولكن كلما صعدنا صوب الحدس ، تضاعفت استنارة الروح •

والحق أن قضية « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود» من جهة ، ورد معارفنا بالعالم المادى كلها الى المقارنة بين تلك الأشياء الشديدة الوضوح والتميز ، وهى المقادير les grandeurs من جهة أخرى ، هما نتيجتان لهـــذا المنهج • أما الحركة ، فبدلا من أن تحتاج الى التعريف والتقسيم الى أنواع مختلفة كما أراد أرسطو ، فانها عنده فكرة واضحة متميزة ، وذات طبيعة واحدة فى كل الأحوال •

ولابد أيضا ، عند الكلام عن ديكارت ، من أن نشير الى المحادثة التي دارت بعد ذلك بسنوات عشر بين ديكارت وبيريل Bérulle عندما عرض ديكارت عليه فلسفته بوصفها قادرة على تدعيم الدين ، كما ينبغى أن نشـــير الى تصرفه الحذر الذى منعه ــ غـــداة ادانة جاليليو ــ من نشر بحثه « فى العالم » •

غير أن هذه الواقعـــة الأخيرة لا ينبغي أن تجعلنـــا ننظر الى ديكارت على أنه الفيلسوف الذى يضـــع قناعا رسم تحته هو ذاته ملامحه مرة ، ورسمها الناس عديدا من المرات • فليس هناك من هو أصرح من ديكارت ، وليس هناك من يكشف لنا عن وجهه سافرا كما يكشفه ديكارت • فهل نعيد هاهنا كافة مراحل تفكيره التى يقارنها هو نفسه بعديد من الانتصارات ؟ وهل نلح على خصائص الشك عند ديكارت ، تلك الخصائص التي كانت معقدة تعقيدا أشد كثيرا مما يبدو للوهلة الأولى ، وعلى ما لم يتعرض للخطر بسبب هذا

الشك (الدين ، الأخلاق ، الأفكار) ، وعلى مسير الشك ، وعلى دور الارادة ، وعلى الاستعمال السليم للشك ، ذلك أننا نستطيع أن نبين كيف أن الشك يتضمن ويلزم عنه « الكوجيتو » . ومعيار الأفكار الواضحة المتميزة ، ويمهد للتمييز بين الأشياء الروحية والأشياء المادية ، ويمهد أيضا للبرهان على وجود الله ؛ ان الشك المنهجي الذى ينتصر عليه ديكارت نتيجة لتطرفه نفسه فيه ، والذى أخرج أبهر النور من أحلك الظلمات ... هذا الشك هو التمهيد الضرورى للمنهج .

هل نتحدث عن هذه العبارة « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود » التى ينبغى تحليل كل حد من حدودها ؟ ان الفكر عند ديكارت هو كل حالة من حالات الشعور والعاطفة والارادة ، كما أنه فعل العقل أيضا ، ولكن حين أقول : « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود » فانى أفكر بمعنى أضيق (أفكر عن طريق فكرة واضحة متميزة لدى) فى أننى أفكر (بالمعنى الواسع) ،وبهذا المعنى يمكن القول : أنا أفكر فى أننى أفكر ، اذن فأنا موجود . ولهذا فان تفكير الذات المفكرة عند ديكارت شبيه بتفكير الله عند أرسطو : فهو تفكير فى التفكير ، ولكن بمعنى أدق ، اذ أن لفظ « تفكير » الأول ليس هو بعينه لفظ «تفكير» الثانى .

ولكن ما هو الوجود الذى يعنيه بعبارة «أنا موجود» Je suis انه وجود كائن مفكر ، وحتى هذه اللحظة لا نعرف وجودا سواه ، ولهذا كان ديكارت أبا المثالية الحديثة ، فهو يبدأ من الفكر وينتهى الى الفكر ، كما يقول هاملان Hamelin .

لم يبق لنا الا أن نشرح لفظ « أنا » je. ولفظ « اذن » donc ولفظ « أنا » التى هى ضمير المتكلم فى « الـــكوجيتو » . تبين أن ديكارت ، على خلاف وليم جيمس حين قال : « انه يفكر فى » Il pense en moi كان يشعر شعورا مباشرا بحضور شخصه ،

لا سخص ديكارت الفاعل الحى كما كان يمكن أن يقول فيلسوف ككير كجورد (الذى قال : « أنا أفكر ، اذن فأنا غير موجود ») ، وانما نشخص ديكارت من حيث أنه يفكر ·

أما كلمة « اذن » فتطلب مزيدا من التفسيرات·ولعل ديكارت كان مخطئا حين قال « اذن » · ذلك أن هذه الكلمة توحى الينا بفكرة أن هناك ما يشبه الاستدلال (وهذا ما ذهب اليه هاملان ، وأعتقد انه كان فى ذلك على خطأ) وهذا الاستدلال هو : كل ما يفكر موجود ، وأنا أفكر اذن فانا موجود · ولكن لا ، فديكارت لا يدرك الوجود فى الفكر الا عن طريق الحدس ، اعنى بواسطة ادراك فورى saisie instantanée ، ولا وجود هنا لأى استدلال أو لأى تعاقب للزمان · وليس من شك أنه من الممكن أن يوضع «الكوجيتو» على هيئة استدلال ، وهذا ضرورى للعقول البطيئة ، أما بالنسبة لديكارت ــ فقد أدركه ــ ان صح هذا القول ــ فى لحظة أسرع وأشد فورية من اللحظة التى انتقل فيها أفلاطون من الافتراض الأول الى الافتراض الثانى فى محاورة « بارمنيدس » كما يثبت ذلك حين يكتب أحيانا « أنا أفكر ، أنا موجود » ·

وعبارة « أنا أفكر اذن أنا موجود » واحدة من تلك اللمع الروحية التى تحدث عنها ديكارت فى رسالته الى الماركيز نيوكاسل Newcastle وبواسطتها يكتشف من جديد نظرية الطبائع البسيطة التى أجملها فى كتابه الأول ــ الذى يعد بمعنى معا أعظم كتبه عبقرية ــ وأعنى به كتابه «قواعد لهداية العقل» Règles pour la direction de l'Esprit · وهذه الطبائع البسيطة ــ هى على سبيل المثال ــ الفكر ، والجوهر والامتداد والوجود · غير أن ديكارت ــ مدفوعا برؤية غاية فى العمق ــ يضع أيضا بين هذه الطبائع البسيطة علاقات مثل : اثنان مضافة الى اثنين تساوى أربعة ، ومثل « أنا أفكر ، اذن فانا موجود » · وهكذا توجد طبائع بسيطة مركبة

simples complexes على ما في هذا من مفارقة ــ مثلما سنرى فيما بعد آن ديكارت ، داك الفيلسوف الذى يعرض فى كثير من الأحيان على أنه فيلسوف بسيط كل البساطة ــ كان يقول بجواهر مركبة substances complexes •

وماقلناه يكفي لكى نفهم كيف استخلص ديكارت من عبارة « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود » نظرية الحقيقة ، ومؤداها : أن الحقيقة صفة لكل فكرة واضحة متميزة ، أعنى لكل فكرة لا يمكن أن تختلط بأية فكرة أخرى ، ولما كانت هذه الخاصية الأولى لا تكفى ما دامت اللذة والألم لا يمكن أن يختلطا بغيرهما ــ فانه ينبغى ألا تحوى هذه الفكرة فى ذاتها سوى عناصر متميزة •

وعلى ذلك ، فعلى الرغم من أن ديكارت لم يورد عبارة « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود » فى كتابه « قواعد لهداية العقل » الا كمثل على المنهج ، أعنى فى هذه الحالة ، كمثل على الحدس ، فان نظرية المنهج ليست فى حقيقة الأمر الا تكملة لنظرية الواقع théorie de la réalité ولاحقة لها •

ولهذا السبب عينه لم يفكر ديكارت فى أن الكوجيتو عبارة عن استدلال ، ولم يجعل منهجه يسبق ميتافيزيقاه (وان أوحى « مقال فى المنهج » بهذا المظهر) ، ذلك أنه يعتقد أن الجزئى ــ وهو جزئى ميتافيزيقى يختلف عن الجزئى عند التجريبيين ، ولكنه جزئى مع ذلك ، وأكثر واقعية بالنسبة لديكارت من الجزئى عندهم ــ هذا الجزئى أو الخاص يأتى متقدما على كل ما هو عام •

ومنذ اللحظة التى أقول فيها : « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود » أستطيع أن أستنتج أننى أوجد بعدد المرات التى أستطيع أن أقول فيها هذه العبارة • ولما لم يكن من المشروع أن أضع وجودى الا أن كان فى استطاعتى أن أقول ذلك فى كل لحظة ، فلابد أن نؤكد أن

الفكر لا يتوقف في مطلقا ، أو كما يقول ديكارت ، ان النفس تفكر دائما • فلا مكان فيها لما سيسمى فيما بعد باللاشعور ، بل ان كل شيء شفاف بالنسبة للنفس . وفي النفس •

فانحن أولاء قد وصلنا الى فكرة « النفس » • ولقد سبق أن قلنا ان ديكارت لا يحتفظ من نفوس أرسطو الا بنفس واحدة هي النفس المفكرة ، أو النفس العاقلة • ونستطيع أن نقول انه ماكان ينبغي عليه أن يحتفظ حتى بهذه ــ وهذا ماقاله « كانت » بالفعل • ولكن هذا هو ما حدث • فديكارت يحتفظ بالتصـــــور الأسكلائى للجوهر (مع توحيده بطريقة جديدة بين الجوهر وصفته الأساسية) والحق أننا نستطيع أن نتابعه في يسر حين يتصور وجود « الأنا » على أنه فكر (في نفس الوقت الذى يتصــــور فيه الفكر على أنه موجود) ، أما حين يستخدم لفظ « عقل » أو « نفس » فان متابعتنا له تغدو أصعب •

ومهما يكن من أمر ، فان ديكارت يمضى في طريقه : فنحن نرى أن النفس تعرف قبل الجسم ، مادامت تعرف في هذه اللحظة (لا وجودها فحسب ، بل ماهيتهـــا كذلك ، ذلك لأننا بواسطة ما هيتها قد أدركنا وجودها ، فحققنا بذلك ، على نحو معين ، ذلك الربط بين الماهية والوجود الذى سنرى كيف سيتحقق في الله على نحو آخر) ، على حين أننا لا نعرف في هذه اللحظة ان كان الجسم موجودا • وفضلا عن ذلك فالنفس تعرف معرفة أفضل من الجسم ، اذ أن المعرفة ليست عند ديكارت هي المعرفة كما يراها جاسندى : أعنى التحليل بالطريقة التى يقوم بها الكيميائى (وان يكن هنـــاك شيء يشبه عملية كيمياء منطقية في تتبع الطبائع البسيطة) ، وانما هي العثور على الصفات • على أننا اذا رأينا صفة شيء ما ، فلابد أن يكون عقلنا متصفا بصفة تسمح له برؤية تلك الصفة في ذلك

الشيء • وعلى هذا تظل النفس دائما أغنى في الصفات من الأشياء ، ومن ثم فانها تعرف معرفة أفضل •

وهكذا نتبين الى أى مدى كان بسكال على حق حين قال ان « أنا أفكر » شيء مختلف تمام الاختلاف عند ديكارت الذى يؤسس عليها مذهبه – عنها عند القديس أغسطين الذى يقولها عابرا •

ولكننا لم ننته بعد من كافة نتائج الكوجيتو أو بالأحرى من الدوبيتو (أنا أشك) – اذا شئنا أن نأخذه في صيغته الأولى . فقد رأينا سلسلة من النتائج تبدأ من الشك وتسير الى الفكر والى وجودى بوصفه شيئا مفكرا • وسنرى سلسلة أخرى اذا قلنا : أنا أشك ، اذن فأنا ناقص ، اذن فان لدى فكرة الكامل ، اذن فالكامل موجود• هذا هو البرهان الأول على وجود الله الذى يلخصه ديكارت أحيانا بطريقة خاطفة على هذا النحو : أنا أشك ، اذن فالله موجود •

ولاشك فى أن الله ضرورى بالنسبة لديكارت • والواقع أن الشك المنهجي قد قضى – في أثناء تقدمه – على ضروب اليقين الحسية ، ثم على الشعور بالواقع ، وأخيرا على يقين الرياضيات نفسه •

ألا يمكن أن يكون هناك جنى خبيث يعمد الى خداعنا ؟ ليس من شك فى أننا كان فى استطاعتنا أن نقول : فليخدعنى ماشاء له الخداع ، فان وجودى لن ينقص شيئا ، ذلك أنه لكى أخدع ، يجب أنأ فكر ، ولكى أفكر لابد من أن أوجد ، فالكائن المخدوع موجود • بيد أن هذا حتى الآن هو اليقين الوحيد ، مع يقين الأفكار الواضحة المتميزة التى هى أسس الرياضيات • أما كل مايستند على الذاكرة ، أو على الخيال أو على الادراك الحسى ، فمازال عرضة للشك • بيد أن كل استدلال يقتضى الذاكرة ، واذن فالجنى الخبيث يستطيع أن

يندس في ثنايا الاستدلال ، وأن يزيف الصور ، فلابد من طرد هذا الشبح الذى يحيل كل شيء الى أشـباح • وينبغى أن نجعل الواقع يظهر مكان هذا الطيف ، وأن نستبدل النهار الواضح بتلك الأشباح • ذلك أن اله ديكارت هو بالفعل « اللوغوس » Logos وهو العقل • والاعتراف بالله عنـــد ديكارت ـ كما أثبت ذلك عاملان ـ معناه الاعتراف بأن أساس الواقع معقول • أما الجنى الخبيث فهو رمز اللامعقولية l'irrationalité • ولن نستطيع أن نؤسس العلم أو نعتقد في وجود أشباهنا ، أو نؤمن بالعالم اليومى، عالم النهار ، الا بعد أن نتخلص من هذا الجنى •

وبضربة واحدة ، نكون بذلك قد أضفينا على معيار الأفكار الواضحة المتميزة الذى لابد أننا قد اعترفنا به من قبل (والا كنا دائرين فى حلقة مفرغة) ، لا أقول برهانا ، وانما مزيدا من الضمان أو مايشبه التفسير أو التبرير •

وهكذا نستطيع أن نرى في يسر لماذا لم يكن من الممكن أن تكون براهين ديكارت هي براهين القديس توما ؛ فديكارت لا يستطيع أن يبدأ من النظر الى العالم ، لأنه لا يعرف ان كان العالم موجودا ، كما أنه لا يملك الحق فى أن يقبل بسهولة ميلنا الطبيعى الى التوقف في سلسلة العلل • وانما يتجه ديكارت رأسا الى الله ابتداء من الفكر ، وفورا ، دون تدخل أى شيء صادر عن الادراك الحسى أو الذاكرة •

ويسمي ديكارت برهانيه الأولين على وجود الله : برهانين بواسطة المعلولات par les effets • ذلك أن ديكارت يصوغ برهانه الأول على وجود الله بواسطة تطبيق لمبدأ العلية ، وهو تطبيق يمكن أن يكون موضع جدل • فهنـــاك بين الأفكار الموجـودة فينا أفكار مكتسبة من الحس adventices وأفكار مؤلفة factices وأفكار فطرية innées ، ولا صعوبة هنـــاك فى تطبيق مبدأ العلية على الأفكار

المؤلفة · فأضغاث الأحلام والحيوانات الاسطورية اشكال خيالية ننتجها مستعينين بتجميع أفكار سابقة ، كما لا توجد أية صعوبة ـ اللهم الا صعوبة وقتية ـ بالنسبة للافكار المكتسبة من الحس : فالأفكار التى تتعلق بمنضدة أو مقعد أو حصان ، نستطيع أن نقول عنها فى يسر ، اذا أثبتنا وجود العالم الخارجي . انها آتية منه ، وفى انتظار اثبات ذلك ، نستطيع أن نقول انها صادرة عنا ، اذ اننا أكمل من هذه الأفكار ، وعلى هذا نستطيع أن نخلقها · وعلى هذا النحو يحاول ديكارت تطبيق مبدأ العلية على مضمون الأفكار ، وهو يستطيع أن يطبقه فى سهولة على معظم الأفكار الفطرية التى توجد على نحو لا تستطيع معه أن تكون فطرية بالنسبة لعقلى دون أن يكون شيء آخر سوى تركيبها هو الذى أحدثها · ولكن هاهى ذى فكرة اللامتناهى أو الكامل · هذه الفكرة موجودة فى ، مادمت فى لحظة الشك أشعر بنقصى · على أن هذا الحضور فى لكائن كامل أتمثله يقتضى ـ لا مجرد وجود عقلى الذى يفكر ، بل وجود الكائن الكامل الذى أفكر فيه ·

وهكذا ننتقل من الوجود الفعلى لفكرة الكامل الموجودة فى الى الوجود الفعلى لله ، مارين بفكرة الكامل من حيث أنها تمثل الله ·

وقد لا يخلو عرض ديكارت لهذه الأفكار من شيء من الارتباك أحيانا ـ وهو الذى يملك من بين الفلاسفة جميعا أوضح تصور عن الأفكار ـ اذ يجعلها وكأنها تمثل الأشياء على هيئة صور images · بيد أن كثيرا من الفقرات الأخرى تسمح لنا بتفسير ذلك وتقويمه ·

أما أنا الذى لدى هذه الفكرة عن الموجود الكامل ، فلا يمكن أن أكون قد خلقت الا بواسطة ، وهذا هو البرهان الثانى على الله عن طريق آثاره · فالله يخلقنى ، ويعيد خلقى بلا انقطاع ، ذلك أن فعله ليس ضروريا فى اللحظة الأولى لوجودى فحسب ، ولكنه ضرورى فى كل لحظة لكى يحافظ على ويعيننى ·

ففكرة الله موجودة فى كعلامة تركهـــا صانعها الذى هو فى الوقت نفسه صانع الموجودات جميعـــا ، بما فيها وجوده نفسه ، وصانع الماهيات جميعا ، اللهم الا ماهيته الخاصة •

هناك اذن على قمة الكون الديكارتى اله ، حقيقى بأعلى صورة ممكنة ، هو مصدر كل قيمة ، وكل حقيقة ، معادل « للخير » على قمة العـــالم الافلاطونى • وعلى عكس التجريبيين الذين يشتقون الكامل من النـــاقص ، يضـــع ديكارت الكامل أولا ، والواقع أن التخطيط العقلى للعالمschème rationaliste du mondeسواء عند ديكارت وعند أفلاطون • والاختلاف الوحيد هنا هو أن ديكارت يرى هذا التخطيط برؤى أفلوطين والقديس أغسطين فيجعل الكامل واللامتناهى شيئا واحدا •

وهناك شىء آخر يدعو الى الاعجاب ، هو الطريقة التى يتحكم بها مبدأ العلية عند ديكارت فى هذا التخطيط العقلى ، ولا أقصد مبدأ العلية الرباعى الذى نجده عند أرسطو ، حيث توجد لكل شىء ــ أو على الأقل كل شىء فى العالم المحسوس ــ علة مادية ، وعلة صورية ، وعلة فاعلة ، وعلة غائية • فقد استبعد ديكارت من تفكيره هنا العلة المادية التى لا تعد علة حقيقية لأنها لا تقوم بفعل ايجابى، والعلة الغائية التى لا يراها رؤية كاملة الا الله ، فلم يتبق له ــ كما قلنا ــ سوى العلة الصورية والعلة الفاعلة اللتين ربط بينهما ربطا محكما • فالعلة الفاعلة فى نظره ــ كما أصبحت فيما بعد فى نظر اسبنوزا الذى اتبع الطريق الذى فتحه ديكارت ــ هى سبب عقلى raison ، أو هى شبه علة صورية • ويظهر ذلك على وجه الخصوص فى البرهان الثالث على وجود الله الذى فرق ديكارت بينه وبين البرهانين السابقين بوساطة المعلولات ــ وهما البرهانان اللذان ربما كان ديكارت قد أعطاهما أهمية أكبر ــ والذى هو برهان عن طريق ماهيـــة الله • هذا هو البرهان الانطولوجى (الوجودى)

الذى استعاره ديكارت من القديس آنسلم ، والذى جعله برهانا خاصا به بفضل ما أضفاه عليه من قيمة • فكمال الله يسلك ازاء وجود الله كأنه علة فاعلة • وهكذا يتأسس داخل الله نفسه ذلك التوحد بين العلة الصورية والعلة الفـــاعلة ، وهو التوحد المميز للنزعة العقلية الكلاسيكية عند اسبنوزا وليبنتس • فعلى الرغم من اختلاف هذين الأخيرين فيما بينهما ، واختلافهما عن ديكارت ، فانه يظل أستاذهما •

والحق انها لفكرة عميقة من ديكارت — على الرغم مما سيقوله عنها فيما بعد هيوم وكانت وهاملان والكسندر — تلك التى تقول ان العلية لا تستلزم أسبقية العلة على المعلول ، فهل هناك أسبقية كهذه فى الله الذى هو علة نفسه ، أو الذى يقوم — على الاقل — بالنسبة لنفسه بدور شبيه بدور العلة ؟ وهل هناك أسبقية — من وجهة نظر ديكارت — بين خروج النور من الشمس وبين وصـــوله الينا ؟ ان النور ينتقل عنده فى نفس اللحظة ، كما يوضع وجودى فى نفس اللحظة ، وكما يخلق الله ذاته فى لحظة أبدية ، وعلى هذا النحو يستطيع أن يقرب بين العلة الفاعلة والعلة الصورية •

أما نحن ، فلا ينبغى علينا أن نتوقف أبدا فى البحـــث عن العلة الفاعلة ، وهذا المبدأ الذى يتخذه العالم ، يطبقه ديكارت فى صرامة حتى فى اللاهوت • فلله نفسه علة هى نفســـه ، ونحن نعرف أنه حين عرف الجوهر على هذا النحو ، قد أتاح ظهور مذهب اسبنوزا •

والله هو علة الموجودات ، ولكنه علة الماهيات ايضا فى رأى ديكارت • فنحن لا نجد هنا مملكة ثابتة من الماهيات يتأملها الله كما هى الحال عند أفلاطون أو القديس أغسطس او ملبرانش ، أو تكون هى ذاتها الذهن الالهى ، كما هى الحال عند ملبرانش ، كلا

ان الحقائق الابدية يخلقها الله . وهكذا نتخلص من كل هـــذا الجهاز للماهيات الازلية . كما نتخلص — لاســـباب أخرى — من فكرة العلة الغائية • وبفضل هذه النظرية في حرية الله المطلقة ، أصبح الطريق معبدا لتطور العلم الحديث • فالله لم يعد خاضـــعا لأية ماهية • وبالتالى لم يعد الانسان بدوره خاضعا لأية ماهية •

وهنا نصل الى سمة من أطرف وأغرب السمات فى النظرية الديكارتية ، فهذا الفيلسوف العقلى هو أيضا فيلسوف ذو نزعـة ارادية volontarisme • وليس من شك أنه لا انفصال فى الله بين الارادة والعقل . وليس من شك أيضا أن القـوانين التى يصفها الله تصل ثابتة لا يعتريها التغيير • ومع ذلك فما من فيلسوف أكد حرية الله المطلقة كما أكدها ديكارت ، وسنرى فى موضع آخر أن هذا التصور لارادة كاملة الحرية — سوف يتردد صداه فى نظرية النفس الانسانية ، وان يكن ذلك بطريقة مخففة بالنظر الى ضعف المخلوق •

وهذا الاهتمام نفسه الذى يوليه للشخص هو نفسه الذى يبرز لنا فى الرواية التى يسردها لنا ديكارت عن ظهور الميتافيزيقا والمنهج لديه فى كتابه « المقال فى المنهج » • فمن من الفلاسفة ، باستثناء سقراط كما يصوره لنا أفلاطون — قد سرد مثل هـــذه الرواية الصادقة ، والعلنية الصريحة فى آن واحد — عن مغامراته الروحية ؟ ••• « كنت حينئذ فى ألمانيا ، حيث أتاحت لى الحروب التى لم تنته بعد فرصة ••• » ؟

وكيف يمكن أن نعبر عن تلك النبرة من الجرأة والتواضع التى يصف بها ديكارت انتصاراته ، ويعلن بها أمله فى أن يعيد هو وحده بناء صرح المعرفة كاملا ، اذ لا شىء يمكن أن يصنع خيرا مما يصنعه انسان واحد لا تعوقه التحيزات ؟

ان هناك طريقة منطقية للنظر الى البرهان الانطـولوجى ، ولقد رأينا ايضا التفسير الارادى الذى يمكن أن يقدم لتصور الله عند ديكارت ، ونستطيع أن نقول بالمثل ان ثمة جانبا صوفيـــا للبرهان الانطولوجى • فما هى هذه الماهية ، وهذا الكمال الذى هو فى الله علة نفسه ؟ انه فيض للماهية • وهنـــــا نقترب كل القرب مما يقوله أفلاطون وأفلوطين عن مثال الخير •

وهلا نســتطيع أن نقول ــ فضــلا على ذلك ــ أنه يمكن أن نستغنى عن هذه البراهين على وجود الله ، اذا كنـــــا نملك من العبقرية الميتافيزيقية ومن التجربة الصوفية ما يكفى لرؤية فيض الماهية هذا ــ لكى نتصور الكامل فى اتم وضوحه (اذ من الواضح اننا لا نستطيع أن نفهمه ونحن مخلوقات فانية) ؟ ثمة اشياء كثيرة لا تفهمها العقول الاضعف الا عن طريق البراهين وتتابع لحظات الزمان ، على حين تراها العقول الاكثر ميتافيزيقية دفعة واحدة ، بمعزل عن الزمان •

بل نستطيع أن نقول ان طموح مؤرخ الفلسفة حين يعرض مذهب ديكارت ، هو أن يرى ، وأن يجعل الاخرين يرون مذهـــب ديكارت فى لمحة واحدة ، وكأنه يحيله ــ ان صح هذا التعبير ــ الى نقطة واحدة مضيئة •

ولقد قلنا ان الله هو معقولية العالم ، وهو الطبيعة العقليـة بوجه عام ، ولكنه أيضا الارادة اللامتناهية ، على ما فى ذلـــك من مفارقة ، فهنا يتحد اللفظان فى تلك الفـــــكرة التى تكون الدعامة الاساسية للمذهب الديكارتى ، (أى فكرة الله) مثلما تتحد فيها فكرتا الكامل واللا متناهى •

وها نحن أولاء نرى كيف أن سلم الوقائع وسلم الـكمالات هما سلم واحد بعينه ، وأن كمال درجات المعرفة قل هذا الكمال

أو عظم ، يتجاوب مع كمال درجات الوجود قل هذا الكمال أو عظم. والحق أنه لا شيء أفيد لمعرفة تركيب فكر العقليين المثاليين عن أفلاطون حتى كانت ، من دراسة تركيب الفكر الديكارتي .

وهكذا نرى بأى معنى كان ديكارت مثاليا . فمن المعرفة التى لدينا عن الاشياء ، ينتهى الى وجودها . والانتقال من المعرفة الى الوجود ، يأتى بنتيجة طيبة ، فنحن لا نستطيع أن نؤكد وجود شيء الا اذا عرفنا ماهيته اولا . ولكننا نرى ايضا بأى معنى لم يكن ديكارت مثاليا بالمعنى الكنتى لهذه الكلمة ، بل بأى معنى كان واقعيا : ذلك أن ضرورة تفكيرى ليست هى قانون الاشياء . بل ان كل ما فى الامر هو أن فكرى يقرر ضرورات معينة ، وارتباطات معينة بين الماهيات ، سواء فى نظر ديكارت ، وفى نظر افلاطون .

واخيرا نرى أن الحقيقة هى والوجود شيء واحد ، وفى هذه الصيغة تتحد مثالية الفكر بواقعية الوجود .

والواقع أن النظرية الديكارتية عن الافكار — وهى النظرية التى ترتبط بالآراء التى تحدثنا عنها من فورنا — هى أصل نظرية الفكرة عند اسبنوزا وليبنتس . بل انها أصل هذه النظرية عند لوك وهيوم ايضا . وقد قال لنا ديكارت انه قد استعار كلمة فكرة (أو مثال idée) من بعض الفلاسفة من تلاميذ افلاطون ، ولكنه لم يستخدمها للدلالة على أفكار الله ، بل على افكار البشر . ومع ذلك يظل من الصحيح أن أفكار البشر عند ديكارت — على خلاف ما ستكون عليه عند لوك وهيوم — هى طبائع حقيقية ثابتة .

الحق أنه ما من مشهد يمكن أن يكون أكثر آثارة لحماسة الفيلسوف من المناقشة التى دارت بين ديكارت والتجريبيين من امثال جاسندى . فجاسندى يتصور المعرفة على أنها تحليل الى

أجزاء décomposition ويضع نزعته التجريبية في مقابل ديكارت كما ينتقد البرهان الانطولوجي •

أما ديكارت فقد وضع ــ على عكس جاسندى ــ تفرقة محددة غاية التحديد بين الادراك الحسى والتخيل من ناحية والتصور من ناحية أخرى • وبين الصور من ناحية ، والأفكار من ناحية أخرى • ولكنه يوافق على أن هناك فوق التصور ملكة أخرى تتأبى علينـــا عندما يتعلق الامر بأفكار أعلى كفكرة اللا متناهي ، اذ أننا نستطيع أن نتصور فكرة اللا متناهي ، ولكننا لا نســـتطيع ان نفهـــم اللا متناهي •

فاذا أصبحت لدينا براهين على وجود الله ، اســـتطعنا ان نؤسس معرفتنا بالعالم الخارجي ، لا ابتداء من الافكار الواضحة عن الامتداد والحركة فحسب ، ولكن ايضا ابتداء من العالم الخارجي كما يعطى لحواسنا • فلما كان الله لا يمكن ان يخدعنا ، فان هذا العالم الخارجي موجود • ومع ذلك فاننا يجب ان نرده شيئـــا فشيئا الى فكرتى الامتداد والحركة الواضحتين • ويقول ديكارت ان فزيائى ليست الا هندسة • فالشمس الحقيقية ليست هى الشمس التى تتمثل للحواس ، ولكنها شمس علماء الفلك ، وما هو حقيقى فى نهاية الامر هو النظام الشمسى كله • مثلما أن قطعة الشـــمع الحقيقية هي في نهاية الأمر الامتداد كله ، وما هو حقيقى فى أفكارى عن الأشياء الطبيعية ــ على حد تعبير ديكارت ــ هو تنقيب الروح ، وهو الفكر الواضحة المتميزة •

وقد استطاع ديكارت أن يتصور علم فزياء ابتداء من الحقائق التى يثبتها الله ، ودون أن يؤكد أن العالم قد تكون على النحو الذى قال به ، فقد استطاع على الاقل أن يبين لنا ان تتابع الممكنات ينبغى أن يصل فى نهاية الامر الى العالم الماثل أمام أعيننا •

ولكي يفسح ديكارت مكانا أوسع للنزعة الالية mécanisme ويفصل عن الفكر كل ما هو مادة ، فقد تعين عليه أن يضـــع في مجال المادة الخالصة الكائنات الحية الاخرى بخلاف الانسان ،ومن هنا نشأت نظريته في « الحيوانات بوصفها آلات » ، وهي النظرية التي يعبر بها في نفس الوقت عن ارتيابه في كل أهمية خاصـــة تعزى الى فكرة الحياة ٠

وعلى الرغم مما ذكرناه عن محاولة ديكارت الـــكبرى في ميدان الاستنباط ، فلا ينبغي أن نعتقـــــد أنه لا يترك أي مكان للتجربة ٠ واذا كان كل تفسير يتم عن طريق العلل ، فلا يقل عن ذلك صدقا أن كل برهان يتم عن طريق المعلولات ، وأننا نستطيع أن نسبق العلل بالمعلولات ٠ هذا هو تعريف دور التجربة عنـــد ديكارت ، ونستطيع أن نذكر أن « المقال في المنهـــج » قد كتب لمناشدة الامراء والحكام تقديم المعونة الضرورية للقيام بتجـــارب جديدة ٠

ولكن ينبغي ـ بالطبع ـ أن تندمج نتائج التجربة نفسها في مجموع الحقائق المعروضة بطريقة استنباطية ، بحيث يســتطيع العقل ـ بواسطة فعل متميز ومتشابه دائما ـ أن يتقدم في معرفة الطبيعة ٠

ولقد كان ديكارت يعتقد شأنه في ذلك شأن الـكثيرين من رجال عصره ـ اننا ما أن نعثر على المنهج حتى نستطيع أن نعرف كل ما في الطبيعة ٠ وحسب الانسان أن « يستخدم » عقله ٠ ولا أود أن أطيل الكلام هنا عن قواعد المنهج ، ولا على التعديلات التي أدخلها ديكارت في كتابه « مقال في المنهج » ، تلك القواعد التي عرضها في كتابه الاول ٠ ويكفي أن نذكر هنا أفكار البداهـــة l'évidence والتحليل ، والنظام ، والاحصاء الكامل ٠ فنظام الحقائق

البديهيه التى نصل اليها عن طريق التحليل ، والعملية أو العمليات التي يعرضها تحت اسم الاحصاء والتى توصل الى هذا النظام .... عده كلها أدوات للكشف .

واخيرا ثمة شيء لا يقل اهمية عن القواعد الجزئية جميعا ، وهو القاعدة الديكارتية القائلة بانه يجب علينا أن نفحص الاشياء جميعا ، فديكارت استاذ يعلمنا الا نتلقى شيئا من الاساتذة دون أن نفحصه بأنفسنا ، (وان كان من الجائز أنه لم يفحص بنفسه كل مبادئه فحصا كاملا) .

وربما لم يكن في وسعنا ان نؤكد الانفصال التام بين النفس والجسم الا بعد الانتهاء من فحص الخصائص العامة للامتداد . وفيما يتعلق بهذه النقطة ، كانت هناك هفوات ظاهرة فى « المقال في المنهج » ولكنها اختفت في كتاب « التأملات » . وأول ما يجب أن يقال عن موضوع النفس والجسم هو أن كلا من هذين الجوهرين جوهر كامل ، وما يجب أن يقال بعد ذلك هو أن الجسم لا يقتصر على عدم الاسهام بشيء في الفكر فحسب ، بل هو بالأحرى عقبة في سبيله ، كما يقول أفلاطون في محاورة « فيدون » . ومع ذلك ، فان ديكارت قد اضطر الى الاعتراف بأن العاطفة والخيال والذاكرة الجسمية وقائع تدعونا الى قبول فكرة تأثير الجسم فى النفس .

ولكن ، كيف نفسر هذا التأثير ؟ ان ديكارت يلجأ الى فكرة تبدو لاول وهلة مضادة تماما لمذهبه ــ وأعنى بها فكرة الارواح الحيوانية الوسيطة بين الفكر والجسم ، التى تقوم بتبليغ رسائل الاول الى الثانى . واحيانا يعتقد انه بمناسبة حركة معينة للجسم تنشأ حالة فى الفكر ، والعكس بالعكس ، ويضع على هذا النحو تخطيطا مجملا esquisse لحل سوف يتوسع فيه ملبرانش فيما بعد ، وهو يعرض أحيانا أخرى فكرة تبدو لأول وهلة أقوى تضادا مع مذهبه من الفكرة الاولى ، فثمة اختلاط بين النفس

والجسـم ، والنفس مرتبطة ومتحـدة بالجسـم ، وهي ليسـت في الجسم كما يوجد البحار في السفينة ولكنها متحدة به اتحادا جوهريا • وكما يتصور الناس الثقل حاضرا في كل نقاط الجسم الثقيل ـ دون وجه حق ـ فكذلك ينبغي أن نتصور النفس حاضرة في كل نقاط الجسم الحي ، وفي هذه المرة نكون على حق • وهو يستصوب في هذه النقطة رأى أولئك الذين لا يتفلسفون والذين يسايرون تيار الحياة نفسها ويؤمنـون بما يجيء في الاحاديث العادية ، فيعتبرون النفس والجسم كأنهمـا شيء واحد ، أعني يتصورون اتحادهما على حد تعبيره ـ اذ أن تصور الاتحـاد بين شيئين معناه تصورهما على أنهما شي واحد • فهو يقـول ان من الواجب لحل هذه المشكلة ، أن نمتنع عن التأمل ، وعندئذ سندرك ذلك الارتباط الوثيق بين العقل والجسم ، الذى يمر بنـا في تجربتنا اليومية • بل قد يؤدى بنا ذلك الى تصور النفس على أنها مادية • ولكنه يضيف في رسالته الى الاميرة اليزابيث بعـد أن صاغ هذه النظرية التى لا تتفق مع آرائه المألوفة : « أكاد أخشى أن تظنى سموك أننى لا أتحدث هنا حديثا جديا • » فرحابةالروح الديكارتية ، تصل الى حد أن ديكارت حين يتخلى عن نظرياته يريد أن يضعنا وجها لوجه أمام واقعة •

ولنلاحظ فضلا عن ذلك أن عبقريته فى التمييز لا تفارقه هنا أيضا ، فانه لكى يعطى للاتحاد العميق بين النفس والجسم ماله من دلالة ، فانه يلجأ الى القول بأنه لا يوجد جوهران متناهيان فحسب، هما النفس والجسم ، بل هناك جوهر ثالث لا يمكن رده بمعنى ما الى الجوهرين الاخرين ، وهذا الجوهر هو الاتحـاد بين النفس والجسم • وهكذا فانه ، حتى حين يود ان يبين اتحاد الجوهرين ، كان لا بد له من مزيد من التمييز ، وكان لابد له من اكتشـاف جوهر ثالث •

النفس حرة ، وفكرة الحرية هذه لا تتطابق عند الانسان مع فكرة الاختيار الجزافي عند ديكارت - الا في احط درجاتهـا . فكلما كانت الارادة كاملة ، ازدادت هداية بنور العقل . وهكذا تتفق الحرية عند ديكارت في أعلى درجاتها مع الحتمية العقليـة la détermination intellectuelle وهنا يختفي الخطأ في نفس الوقت الذي يختفي فيه العشوائي والجزافي .

وأما فيما يتعلق بخلود النفس الذي يعد باثبات حقيقته في كتابه « التأملات » ، فانه يعتقد أن كون النفس غير منقسمة ، وأن هناك عمليات يقوم بها الفكر الخالص - يمكن أن يؤكد لنا هذا الخلود الى حد ما . ولكن ، لكي نثبته اثباتا تاما ، ينبغي أن يكتمل علم الفزياء ، وهكذا يظل الخلود تخمينا وأملا جميلا عند ديكارت مثلما ظل عند أفلاطون ، في ختام محاورة فيدون مخاطرة جميلة .

وقد قدم الينا ديكارت في كتابه « المقال عن المنهج » - قواعد لأخلاق مؤقتة . بيد أن مضاهاة هذا الفن بالرسائل التي بعث بها الى الاميرة اليزابث تبين لنا أن هذه الاخلاق المؤقتة تكاد تكون هي الاخلاق النهائية . ويقول ديكارت في احدى رسائله : انني من بين أولئك الذين يحبون الحياة حبا جما . وهو لا يندد بالانفعالات، ولكنه يريد فقط أن نستخدمها استخداما سليما .أي استخداما خاضعا لمعرفة الحقيقة ، وهي الغرض الاسمى للحياة ، وخاضعا لمعرفة الضرورة الكامنة في الاشياء ، اذ ينبغي علينا أن نسعى الى تغيير رغباتنا بدلا من تغيير نظام العالم وخاضعا ايضا لمصالح الكل الذي نؤلف منه جزءا ، والذي ينبغي علينا أن نحبه ، اذ أن ديكارت يربط بقـوة بين فكرتي الحب والشـمول totalité وخاضعا أخيرا للاريحية (أو الكرم la générosité) وهي الفضيلة الحق عند ديكارت وكورني . ويقـول ديكارت : « انني أقـدر تقديرا كبيرا الحرية والسيطرة المطلقة على النفس » . وبفضل هـذه

النعاليم ، يمكننا ان نستمد السرور من الحزن ، بل نستطيع أن نجعل السرور يعايش الحزن ، ونستطيع أن ننتزع سرورا ولذة من الشرور التي تسببها الانفعالات ، كما نستطيع أيضـــا ، اذا وضعنا أنفسنا على مسافة معينة من أنفسنا أن نشعر في قيامنـــا بدورنا في الحياة بنفس المتعة التي يشعر بها ممثلو الكوميديا حين يلعبون أدوارهم على المسرح ، ولكننا بما أننـــا نعرف أن للنفس لذاتها الخاصة ، وأنها تستطيع أن تصل بهذه اللذات الى السعادة الابدية ، فاننا نستطيع أن نتصور لافعالنا غاية اسمى من ذلك .

فاذا ألقينا نظرة جامعة على هذا المذهب ، رأينا كيف تجتمع فيه فكرتا الحرية اللامتناهية والحتمية التامة ، وفكرتا الشخصية المفكرة والمريدة ، والعقل اللاشخصي . وهناك عند ديكارت مجال للممكن هو مجال الماهيات ، ومجال للواقع هو مجال الموجودات التي خلقها الله ، ومجال للواجب الذي هو من الله من حيث انه هو على الاقل العلة الضرورية لذاته . ونستطيع أن نفهم ايضا كيف أسس ديكارت في آن واحد نزعة روحية تامة في عالم الارواح ، ونزعة آلية تامة في عالم الاجسام ، بل نستطيع أن نقول انه اسس كلا من النزعتين بالاخرى .

ولكن يجب أن نحسب ايضا حسابا لكل ما احتفظ به ديكارت من الفلسفة الاسكلائية ، وان بدا لنا وكأنه كان يحتفظ بهـــذه العناصر رغم أنفه . فان فكرته عن الروح بوصفها شيئا مفكرا ــ تلك الفكرة التي سينقدها هوبز وكانت ومين دى بيران وبرونشفج واحدا وراء الآخر ــ وفصله للارادة عن الذهن ، ذلك الفصل الذى يأخذ اسبنوزا على عاتقه معارضته ، هذه أفكار لعله قد ورثها عن الفكر الاسكلائي . وعلى نفس النحو يمكن توجيه النقد الى تطبيقه لفكرة العلة على فكرة الكامل في البرهان الاول على وجود الله .

ولكننا نرى كيف أنه واصل ، بمعنى ما ، الجهد الذى بذله أفلاطون . ولكن مع احتفاظه بمجال المحسوس أكثر مما احتفظ به أفلاطون -على الاقل حتى تأليفه للجمهورية - ما دام هناك معقولية للمحسوس عند ديكارت • وهكذا يحتل ديكارت مكانه فى الطريق الذى يبدأ من أفلاطون ويمتد حتى كانت الذى يظل المحســوس بالنسبة له هو المعقول ، على حين أن ما كان معقولا عند افلاطون يصبح فى نظره مغلقا بالنسبة لنا • فالديكارتية تؤلف على هــذا النحو اللحظة التى يبقى فيها ثمة معقولية للمعقول ، وتولد فيها معقولية المحسوس • ذلك لان محاولة ديكارت قد تمت فى اللحظة التى أخذ يتكون فيها العلم الحديث • وهذا يفسر أيضــا الدور الهائل الذى عزاه الى فكرة العلة •

ويعد ديكارت بنظريته فى درجات الكمال ودرجات الواقع ، وبتأكيده بأن الناقص يفترض الكامل - وارثا لتراث أفلاطــون وأرسطو ، بل لعله قد وصف مبدأهما الاسمى وصفا افضل من وصفهما - حين أسماه باللامتناهى • ولقد قال عنه الكثيرون انه كان فى نظريته فى الله بوصفه خالق الحقائق الازلية ، وارثا لدنس سكوت Duns Scot • أما نظريته فى الحرية فتجمع على نحــو متســجم بين نظــريات الابيقــوريين والرواقيين ، وذلك بأن تضعها فى ترتيب تصاعدى ، كذلك فان نزعته الآلية تؤسس فى العقل ما يؤسسه جاليليو فى الواقع • والواقع أن جميع مشكلات الفلسفة الحديثة انما صدرت عنه ، سواء أكانت مشــكلات لوك وهيوم ، أم مشكلات اسبنوزا وليبنتس • على هذا النحــو أقام ديكارت ، على الطريق الذى يسير من الموقف الطبيعى الى العلم مارا أول ما يمر بالشك - أقام ديكارت ميتافيزيقا قدر لها أن تضفى سماتها المميزة على كل ميتافيزيقا فى العالم الحديث ، بما فى ذلك مادية القرن الثامن عشر ، وهى ميتافيزيقا كان عليها أن تحتمــل -

احتمال الظافر (اذ أن ابداعات الارواح العالية لاتنهـــــزم ابدا) هجمات خصوم يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا ، كهوبز وجاسندى من ناحية ، واسبنوزا من ناحية أخرى ، أو كبسكال وفولتير ، أو كانت وكير كجورد ، أو هيدجر ويسبرز ، أو برجسون وهوايتهد ، أو مازيتان والماركسيين •

وقد ترك ديكارت لخلفائه عددا كبيرا من المشكلات : فكيف نطلق اسما واحدا هو الجوهر على الله الذى هو الجوهر اللامتناهى وعلى الجواهر المتناهية التى هى الامتداد والفكر ؟ كيف يحدث أن أحد هذين الجوهرين المتناهيين وهو الفكر يتركز فى نفوس فردية ، على حين يكون الآخر ، وهو الامتداد ، كلا واحدا متجانســـــا وغير منقسم فى نهاية الامر ؟ وكيف نفسر اتحـاد النفس والجسم ، أى اتحاد هذين الجوهرين ؟ وكيف نفسر أن احدهما ، وهو الامتداد ، هو فكرة واضحة متميزة عند الآخر ، وهو الفكر ؟ ويجب أن نذكر ايضا ان ديكارت بعد أن وعد باقامة فيزياء رياضية خالصة ، لم يقدم الرياضة فى كتابه « المبادىء » الا فى معرض الكلام عن قوانين التصادم les lois du choc •

وستكون مهمة اسبنوزا وليبنتس وكذلك كوردموا Cordemoy ومالبرانش هى محاولة حل تلك المشكلات الاربـــع العظمى التى أوردناها • وستكون مهمة الفلاسفة الاكثر حداثة هى نقد ما سمى بالثنائية الديكارتية la bifurcation cartesienne بين الروح والجسم ، واختيار النزعة الديكارتية بوصفها انكارا لفكرتى الحياة والتاريخ وفقا لما ذهب اليه أ • كواريه A. Koyré •

بيد أن هذه الانتقادات لا ينبغى أبدا أن تحول دون ادراك عظمة ذلك المفكر الذى كان دائب البحث عن الأفكار الواضحة ، والذى كتب قائلا : اننى أميز كل شىء ـ على قدر ما أستطيع ••

***

أما بسكال ، فلن نتحدث عنه هنا بوصفه الرياضي العبقري، أو واضع نظرية التقدم في العلوم ، أو خصم الفيزياء الاسكلائية ، أو المجادل مع جماعة بور رويال ، بل سنتحدث عنه فقط بوصفه مدافعا عن الدين المسيحي ، ضد ابيكتيت Epictète بواسطة مونتاني ، وضد مونتاني بواسطة ابيكتيت ، أى بالأحرى تسامى بكل منهما بفضل مطالعة نور المسيح . وبسكال يعرض علينا أن نختار بين أبدية من السعادة ، أو أبدية من الشقاء . فالاختيار يتعلق بأنفسنا ، وعلينا أن نخاطر . ولكي نختار ينبغي أولا أن ندرك شقاءنا (يقول بسكال عن قارئه : اننى لا أحتمل أن يكون مرتاحا) ، انه يريد أن ينتزعنا من حياتنا اللاهية ليضعنا فى مواجهة عزلتنا وضجرنا وعدمنا ، ويجعلنا نشعر بالعالم الذى نعيش فيه محوطا بأنهار بابل الثلاثة ، أنهار الجحيم الثلاثة : « ماذا مضى ، كان نهرا من أنهار بابل » وهو يتساءل ، ويسأل الانسان : « لماذا أنا موجود في هذا المكان لا فى مكان سواه ، ولماذا أعطى لى هذا الوقت القصير المخصص لحياتى فى هذا الموضع لا فى غيره ؟ هذا هو تبرير انشغال فكر بسكال بتلك الأبعاد الكونية الرهيبة التى تحاصره ، وبهذه الأكوان البكماء ، وبالمركب الجامع بين هاتين الفكرتين فى تلك الفكرة التى حاول فاليرى Valéry فى لحظة من اللحظات التى عكر فيها قلق بسكال صفو هدوئه — حاول أن ينقدها عبثا ، فقال : «ان صمت هذه الفضاءات اللامتناهية يفزعنى » .

كان القديس توما قد بدأ من الطبيعة لكى يصل الى الله ، وبدأ ديكارت من الفكر ، أما بسكال فقد بدأ من القلب وانتهى الى اله يستشعره القلب . « يكون الانسان شقيا حين يعرف أنه شقى، ولكنه يكون عظيما حين يعرف أن الناس أشقياء » . وليست هذه بينة من بينات العقل ، ولكنها بينة من بينات القلب . ويمكن القول

انها عند بسكال تقابل الكوجيتو • على أنه ليس من الممكن تفسير هذه العظمة وذلك الشقاء الا لأن الانسان جائر ، ساقط ، هابط عن منزلته • فلم يعد لدينا ذلك الكون الجميل الذى عرفه ديكارت، والذى يمكن تفسير كل شيء فيه عقليا ، حتى الخطأ نفسه ، وحتى الخطيئة نفسها ! وانما نلتقي في كل مكان هنا بالمتناقضات •

هذه المتناقضات سيكون من الممكن تفسيرها لأن الحقيقة المسيحية توحد بينها : « الايمان هو دائما توافق بين حقيقتين متعارضتين » ، وهكذا ، فمن فوق المتناقضات الانسانية نجد في هذه الحقيقة تناقضا الهيا ، ومن فوق تنافر المتناقضات توافقا للمتناقضات •

ولكن ينبغي على الانسان أن يبذل مجهودا لكي يصل الى هذه الحقيقة ولا بد له من فضل الله La grâce de Dieu • فكل شيء في نظر بسكال مكتوب بالشفرة التي تصعب قراءتها • وفي العالم مزيج غريب من الوضوح والغموض ، والكون عند بسكال شبيه بالكون الذى يمكن أن نتخيله من خلال فن التصوير عند معاصريه رمبرانت وجورج دى لاتور : أوليس اله بسكال عبارة عن رمبرانت هائل ، حين مزج ظلالا قاتمة بين الأشياء الواضحة ؟ ولنستمع الى بسكال أيضا حين يقول :اننا في حالة نصف مظلمة demi-obscur وذلك لأن الله قد أقبل الينا في « سر غريب » ، كما يقول في احدى رسائله الى الآنسة دى روانيز Mademoiselle de Rouannez ، فماذا تكون المجازات التي يخاطبنا بها ، ان لم تكن حضورا في غياب ؟ كذلك فان النبوءات تتحقق ، ولكنها لا تتحقق تحققا كاملا أبدا كما كنا نتوقع • فاله بسكال مثله مثل

الله القديس سيران Cyran (١) ، الله محتجب مجهول • ويذهب بسكال الى حد القول بأن يسوع المسيح : « كان التعرف عليه أيسر عندما لم يكن مرئيا » •

ولكن ما سبب هذا كله ؟ السبب هو اننا لا نخاطب العقل ، كما هي الحال في فلسفة ديكارت ، أو كما هي الحال في تصوير بوسان (٢) Poussin ان صح هذا التعبير ، ولكننا نخاطب الايمان • وهذا كله ليس في الحقيقة الا تعريفا للايمان • فالايمان ـ كما يقول بسكال ـ مختلف عن البرهان ، انه مستقر في القلب، وليس شيئا يقينيا •

والايمان ــ الذى هو دائما ايمان بشيء يتجاوز الطبيعة ، ايمان بالمعجزة ـ هو نفسه معجزة انه معلق بالفضل الالهى ، بسلطة المسيح • لا بسلطة القوة كسلطة الاسكندر الأكبر ، أو بسلطة العلم، كسلطة أرشميدس،وانما بسلطة الاحسان charité • « ان المسيح لم يخترع اختراعا ، ولم يسد كما يسود الملوك ، وانما هو لا يوجد الا بالنسبة لعين القلب » • وقد جاء المسيح برحمة واسعة ، وهو يتحدث بوضوح وسذاجة عظيمتين ، وهو الذى كان يتحدث فعلا على لسان الأنبياء • فكأن لدينا ما يشبه سلسلة الهية، فالأنبياء قد تنبئوا ولكن أحدا لم يتنبأ بهم : والقديسون قد تنبأ الناس بهم ، ولكنهم أنفسهم لم يتنبئوا ، أما المسيح فقد تم التنبؤ به ، وهو نفسه متنبيء •

---

(١) القديس سيران (١٥٨١ ـ ١٦٤٣) لاهوتى فرنسى يعد اشهر اتباع الطائفة «الجانسنية Jansénisme » ، سجنه ريشليو عام ١٦٣٨ واطلق سراحه عام ١٦٤٢ • ويعد اليوم شريك «جانسن Jansen » فى انشاء مذهبه والدعوة اليه • (المراجع)

(٢) نيكولاس بوسان (١٥٩٤ ـ ١٦٦٥) زعيم المدرسة الكلاسيكية الفرنسية فى التصوير • (المراجع)

ها نحن نرى اذن عنصرين من عناصر الايمان : عدم اليقين والسلطة ، أى عدم اليقين الذى تكمله السلطة : غير أن هذا لايكفى. ذلك أن بسكال الذى يضفى على التاريخ وعلى الزمان قيمة تختلف تماما عن تلك التى أضفاها ديكارت عليهما ، يعتقد أنه لابد من التاريخ ، ومن تتابع الشهود ، ومن حضور الشعب الشاهد ، شعب متنبىء بأسره ، هو الشعب اليهودى .

ولاكمال التاريخ — لأن التاريخ نفسه موضع شك — لابد من التجربة . أعنى المعجزة نفسها . أعنى الايمان نفسه . فبسكال ، — الذى كان تجريبيا بمعنى ما — يهيب بالتاريخ والتجربة لنجدة القلب ، أعنى يهيب بالمعجزات : ان النبوءات لا تثبت شيئا ، غير أن توافق النبوءات والمعجزات يكاد يكون فيه الدليل ، وهكذا نرى كيف أن دفاع بسكال عن الايمان يفترض بسكال الموجود . بسكال المؤمن . وكما يقول برونشفج فى تعبير رائع : « انالتجربة الديب الدينية وفقا لبسكال تصبح هى تجربة بسكال الدينية » .

«فى نهاية الأمر تجد النفس ذاتها وحيدة أمام الله الوحيد ، وذلك عند بسكال كما عند أفلوطين . ونحن نستشف الله الذى يتحد بأعماق النفس ، على حد التعبير الذى يستعيره بسكال من الصوفية . ويمكن تمثيل الله بنقطة تتحرك فى كل مكان بسرعة لا متناهية . ولكن ما حاجتنا الى تمثيله على هـذا النحو العقلى ؟ انه هناك ، اله الألم ، وانسان الألم . فما الذى نبحث عنه حـين نئن ؟ الأنين الالهى . « ينبغى علينا ألا نتحد الا بآلامه » فى القلق والعزلة . ومن هنا كانت صلاة بسكال : لقد مات يسوع المسيح محتجبا فى قبره ، ولم يجد يسوع المسيح مكانا يستريح فيـه الا لحده ، انه وحيد على الأرض ، وسط الهجران ، وهو يصلى دون يقين من ارادة الأب . « وهكذا ترك المسيح وحيدا لغضب الرب » .

ولكنه يعرف في الوقت نفسه أن : « السماء وهو ينفردان بهـــذه المعرفة » .

ففوق عزلة سقراط ، هناك عزلة المســـيح ، مرتبطة بعلو أسمى من علو الأفكار (أو المثل) idées .

ولكن هذا كله ... لماذا حدث ؟ يقول بسكال : لقد حدث من أجل كل واحد فينا . من أجلى انا .

ان بسكال خصم لكثيرين ، وكثيرون هم خصوم بسكال . يقول عنه دى فينى انه شخص سيىء ، كما يحكم عليه رينان بأنه مخبول بائس . ونيتشه الذى تعد روحه قريبة الشبه من روح بسكال مثلمـــا كانت روح دى فينى ، يتهمه بعنف فى كثير من الأحيان . وجيد يقول عنه انه يقوض أفراحنا . وآخرون يدينونه باسم العقل . فهنـاك بريمون Bremond وماريتان Maritain اللذان يدينانه باسم العقـل المسـيحى ، وهناك فاليرى Valéry الذى يدينه باسم عقل لا يعرف النعميد le baptême .. ولكن، كم تبدو عقول هؤلاء الخصوم قصيرات النظر !

ان ما نحتفظ به من بسكال هو عبقرية العزلة .. عبقرية التضـــاد l'antithèse ونوع من التركيب synthèse .. عبقرية الوضـوح الغامضـة . والأهـم من ذلك أن ما نحتفظ به هو بسكال نفسه .. فمن هو ؟ نستطيع أن نقـدمه أولا على أنه من هؤلاء الذين أسماهم أشخاصا عالميين ، أولئك الذين لا يحتاجون الى عـلامة تدل عليهم ، مثل ليوناردو دافنشى ، ولكن دون ادعاء العلم . « ان الأشخاص العالميين لا يسمون شعراء أو علماء فى الهندسة ، انهم هذا وذاك معا » . ومع ذلك ، فانه لا يصل الى ان يكون شخصا عالميا ، كما أنه ليس ذلك الذى يلتزم الوسط من الأمور ويعرف كيف يتحـــاشى الاطراف . انه بالأحرى ذلك

الشخص الذى يتميز بفضيلة وبعكسها ، « ويمس الاثنين معا ويملأ ما بينهما من فراغ » • وهو يبدى مرونة الروح التى ننتقل بها من طرف الى الطرف الآخر • بيد أن هذا بدوره لا يكفى لتعريفه • هل هو ما يسميه نفسا عظيمة ؟ أجل ، ولكن التعريف الأفضل لبسكال « الخواطر » كما أراد أن يكون ، وكما كاد أن يكون ، هو أن نسميه بالعبد المحتجب والعابد المجهول •

انه لمما يشرف الفلسفة الفرنسية أنها أشرفت على القرن السابع عشر بهذين الطرفين المتقابلين : ديكارت وبسكال • فديكارت مثلا كان خليقا بأن ينكر عبارة بسكال القائلة بأننا يمكن أن نعرف وجود شيء ما دون معرفة طبيعته • وبسكال يؤنب ديكارت فيضع فى مقابل شك ديكارت ، اليأس الذى هو الشك فى الأشياء ذات الأهمية العظمى ، وفى مقابل الخطأ بوصفه سلبا ، يضع الخطأ بوصفه خطيئة أخلاقية ، وفى مقابل يقين الوضوح ، يضع عدم اليقين الواضح ـ الغامض، وفى مقابل نظام العقل، يضع نظام القلب. وفى مقابل اله علماء الهندسة ، اله ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وفى مقابل العلامات ، التى هى الأفكار الفطرية ، يضع العلامات التى هى أفعال الشهداء • ويمكن تلخيص حكم بسكال النهائى على ديكارت فى هذه العبارات : « يقولون انه رياضى بارع ، ولكن ليس لى شأن بالرياضى : فهو قد ينظر الى على أننى قضية رياضية » •

هذه الكلمات تذكرنا على نحو لا سبيل الى مقاومته بذلك الذى وقف فى وجه هيجل ـ كما وقف بسكال فى وجه ديكارت ـ مطالبا بحقوق الايمان : وأعنى به كيركجورد • فنحن نجد لدى كل منهما نفس النقد لهؤلاء الذين يسميهم كيركجورد أنصار التصور الحسى (الاستطيقى) للحياة ، ونفس الديالكتيك الوجودى الذى يسميه بسكال مرونة ورشاقة فى الحركة • وهما يتميزان بنفس الفن فى استبقاء المتناقضات ، ويضعان الانسان أمام نفس

المشكلة ، بحيث يظهرانه معرضا لخطر الشقاء الأبدى • والاجابة تاتى الى كل منهما من علو السلطة الالهيـــة • فكل ما قلناه عن المجهول الالهى l'incognito divin يميز كيركجورد مثلما يميز بسكال، والرهان عند بسكال يناظر الاختيار عند كيركجورد ، وهما يعبدان نفس الاله ، فمن التواضع نصل الى الالهام ، ومن الالهام الى الله ••• انه اله المفارقة • بل ان تصور الكنيسة متشابه عند كل منهما • « ان الله لا ينظر الا الى الباطن ، أما الكنيسة فلا تحكم الا بالظاهر • » الكنيسة ترى الأعمـــال ، ولكن ، هناك مع ذلك كنيسة خالصة يتمناها كيركجورد وبسكال ويشاهدانها ، كنيسة تضم اليهود الروحيين والمسيحيين الروحيين ، وتصل من فوق كل زمانية ــ الى جوهر الاله المعذب •

***

وعلى حين أن ديكارت ــ يفصل مجال العقل عن مجال الايمان فصلا قاطعا ــ وهو فى هـــذه النقطـــة على الأقل مخلص لتراث أساتذته التوماويين فان ملبرانش يكتب قائلا : « لا بد أن يكون المرء فيلسوفا جيدا لكي يصل الى فهم أمور الايمان » • ومن جهة أخرى فهو يرى أن الايمان يساعد على حل مصاعب الفلسفة ، فالدين ــ فى نهاية الأمر ــ هو الفلسفة الحقة •

ويوافق ملبرانش على الكوجيتو ، بيد أن اهتمامه ينصــب على الأفكار التى نفكر فيها ، أكثر مما ينصب على فعل التفكير • « اذا لم تكن الدائرة التى أشاهدها شيئا عندما أفكر فيها ــ لما فكرت فى شىء » • وكما أن جسمنا يتجول فى عالم جثمانى ، فــكذلك تنتقل روحنا دون انقطاع فى عالم معقول ، بين أفكار ضرورية ثابتة الهية • وهكذا فان الأفكار ، كما عرضـــها أفلاطون ، ومن بعده القديس أغسطين ــ تلك الأفكار التى أخضعها ديكارت لارادة الله ، وأغلق عليها بمعنى ما فى النفس الانسانية ــ هذه الأفكار تواصل

سعيها متجهة صوب الأعالى لتستقر فى المستوى الذى وضعها فيه أفلاطون والقديس أغسطين • وهذه الأفكار (أو المثل) ـ كما رأى ديكارت ـ ذات وجود سابق على الجهد الذى نبذله لمشاهدتها، وتقاوم ما نبذله من جهد لتحطيمها • والواقع أنها تنتمى الى الذهن الالهى • وهكذا تصبح الفلسفة الفرنسية على يد ملبرانش ـ فلسفة للوجود الذى هو موضوع للتفكير l'être pensé، أكثر منها فلسفة للوجود الذى يقوم بالتفكير l'être pensant :

وثمة اختلاف ثالث بين ديكارت وملبرانش هو أن الأفكار الواضحة المتميزة التى نتصورها أصبحت تتركز جميعا فى الجوهر الممتد substance étendue وقد كان هذا الجوهر الممتد فكرة واضحة متميزة عند ديكارت ، أما عند ملبرانش فهو الأفكار الواضحة المتميزة جميعا • انه الفكرة Cogitatum وهو أهم من التفكير Cogitatio ، فهو الامتداد المعقول • ومن هنا فان الانصراف الى العلوم الرياضية هو انصراف من الروح للوصول الى الله •

هذا الامتداد المعقول وجه من أوجه الله ، من حيث أنه قابل للتمثل من جانب المخلوقات • فالله يعرف ، كما تعرف العقول ، وهو امتداد كالأجسام ، ولكنه هذا كله بطريقة مختلفة عن مخلوقاته • والعقول موجودة فى العقل الالهى مثلما توجد الأجسام فى رحاب الله • وهنا نرى الى أى حد يقترب ملبرانش من اسبنوزا• ومع ذلك فهو يتميز عنه ، أو يظن أنه يتميز عنه حين يقول ان الامتداد هو الله فى ذاته •

ولا يحتفظ ملبرانش من البراهين الديكارتية الثلاثة على وجود الله ، بالبرهان الأنطولوجي ، أو بالأحرى يوحد بين البرهان الأول والبرهان الثالث ، ذلك أن حضور اللامتناهي فينا يثبت وجود اللامتناهى • ونحن لا نقول : حضور فكرة اللامتناهى ، اذ لا توجد للامتناهى فكرة تمثله •

واله ملبرانش عقل أكثر منه ارادة ٠٠ انه اله النظام ، ومنبع كل العلاقات ، سواء أكانت علاقات مقدار أو علاقات كمال ٠

ونستطيع أن نضيف اختلافا خامســـا الى الاختلافات التى ذكرناها : الاختلاف الأول ، المتعلق بالمنهج ، والثـــانى ، المتعلق بأهمية ما نفكر فيه ، وهو اختلاف فى نقطة البداية ، والثـــالث المتعلق بالامتداد المعقول ، والرابع ، الخاص بغياب فكرة اللامتناهى٠ فلقد رأينا ملبرانش ينظر فى الكوجيتو الى « الفكرة » cogitatum بوجه خاص ، ورأينا أن الجوهر الممتد يصبح الجوهر المعقول بالمعنى الصحيح ، ومهمتنا الآن هى أن نرى ما صار اليه تصـــور جوهر النفس عند ملبرانش٠ فلدينا أفكار واضحة ومتميزة، بيد أن النفس التى توجد فيها هذه الأفكار الواضحة المتميزة ، أو على نحو أدق التى تشاهد هذه الأفكار ، ليست هى نفسها سوى ظلمات ٠ « أنا لست سوى ظلمة ، ولا يوجد فى حين أتأمل نفسى ، سوى احساس يخلو من النور » ، « اننى أعرف الله بفكرة واضحة ، وأعرف نفسى باحساس غامض» ٠ فملبرانش يذهب الى أننى لا أملك فكرة ما عن وجودى ٠ وهذا الرأى يرتبط بتصور آخر من تصورات ملبرانش وهو أن الفكرة تمثل الماهية ، والاحساس ينبىء بالوجود ٠

وعلى هذا النحو ازدوج « الكوجيتو » ، وتقدم الموضوع على الذات ، ودخلت الذات فى الظل بالمعنى الصحيح ٠ وهنا نجد سمة من سمات الفلسفة الفرنسية سوف نهتدى اليها مرة أخرى بدرجات متفاوتة من الوضوح عند روسو وبيران وبرجسون ٠

لا توجد فكرة عن الله ، وهذا هو البرهان على وجـــوده ٠ كذلك لا توجد فكرة عن النفس ، وهذا أيضا بمعنى ما برهان على وجودها ، فليس ثمة فكرة الا عن الامتداد المعقول ٠ وهنا نلمح ما يتسم به ملبرانش من عمق حين يضع فى ترتيب تصاعدى ما ليس

بفكرة non-idée ، ثم الأفكار ، ثم ما هو فوق الأفكار على نحو لا يبتعد كثيرا عن الترتيب الذى وضعها فيه أفلاطون •

والآن نستطيع أن نرى كيف يفضى بنا تصور الجواهر عند ملبرانش الى أن نضع كل نشاط في الله ، « فحين أنظر الى نجوم العالم المادى ، أرى نجوم العالم المعقول • » ، وهكـــذا يتناقص النشاط العقلى للمخلوقات • بل ان ملبرانش يمهد لنقد العلية كما سنجده عند هيوم ، متخذا نفس الأمثلة ، وهى الكرات التى تتحرك، وحركة أعضائنا ، فيبين لنا أنه لا وجود لأية علاقة علية بين جسم وروح ، أو بين روح وجسم ، أو حتى بين جسم وجسم ، أو روح وروح ، وبذلك لا تكون المادة وحدها طبيعة عاجزة ، بل ان أرواحنا أيضا تفتقر الى الفعالية •

وليس من شك فى أن ملبرانش يريد أن يحافظ على حريتنا التى هى ما فينا من قوة تتيح لنا السير بلا انقطاع الى ما هو أبعد • بيد أن هذه المحافظة على الحرية تثير عنده طائفة من المشكلات ، وعلى الأخص مشكلة الشر • ولحل هذه المشكلة ، يقـــول ملبرانش ان الخطيئة ليست الا نوعا من التوقف ومن السكون فى هذه الحركة غير المنقطعة التى ينبغى أن تكون عليها حياة الكائن الحر •

ويحاول ملبرانش ، عن طريق فكرته القائلة ان الله يوجه حركات الجسم وأفكار النفس بمساعدة القوانين العامة ــ يحاول أن يحل المشكلة الديكارتية الخاصة باتحاد النفس والجسم ، كما حل بواسطة الامتداد المعقول المشكلة التى نشأت عند ديكارت من أن الجوهر الممتد هو فى نفس الوقت فكرة من أفكار الجوهر المفكر •

وليس من شك أن ملبرانش لم يرق له ذلك العنصر التعسفى فى قوانين الاصطدام الديكارتية ، فهو يبين لنا ، بطريقة عامة ــ العالم المادى بوصفه من خلق ارادة الله الاعتباطية • وهذا جـانب

من أكثر الجوانب اثارة للدهشة ، وأشدها طرافة في هذه الفلسفة التي تمتلىء بجوانب جديدة مثيرة للدهشة • فالعالم المادى لا يوجد الا لأن الله قد طاب له أن يخلقه • ونحن لا نعرف هذا العالم الا عن طريق الوحي la Révélation • وهكذا يقلب ملبرانش الحـــل الديكارتي رأسا على عقب • فعالم الماهيات عند ديكارت هو من خلق ارادة الله الاعتباطية ، أما قوانين العالم المادى ، من حيث أنهاترتبط بثبات الله على الأقل فتتضمن شيئا من الضرورة • والى نقيض هذا تماما يذهب ملبرانش • فلا يمكن البحث عن البرهان الحقيقى على العالم المادى الا فى الكتاب المقدس : « لا شيء قطعا ســوى الايمان يمكن أن يكشف لنا عن وجود الأجسام بحق » •

من هذا يمكن أن نستنتج وجود نوعين من العلوم : « علوم تبحث في العلاقات القائمة بين الأفكار ، وعلوم تبحث في العلاقات القائمة بين الأشياء بتوسط أفكارها • الأولى واضحة من أى وجه نظرنا اليها ، والأخرى لا يمكن أن تكون كذلك الا اذا افترضنا أن الأشياء مماثلة للأفكار التى لدينا عنها » • « والى جانب العلوم المضبوطة التى ترضي براهينها فضولنا المغرور ارضاء تاما ــ هناك العلوم الفزيائية (الطبيعية) التي تعتمد فى كثير من الأحيان على تجارب وظواهر مشكوك فيها الى حد ما » ومن الطبيعي أن قوانين هذه العلوم التى هي فى نظر ملبرانش ــ أعظم قيمة بالنسبة الينا من العلوم الرياضية نفسها ــ هذه القوانين خاضعة للنظام الموجود في الله ــ وهو رأى يبعد كثيرا عن نظرة ليبنتس الى هذا الموضوع ، وان يكن ملبرانش أقوى منه تأكيدا لجزافية قوانين العالم الفزيائى ، وهذا أمر لا بد لنا من تأكيده ، اذا كان من الحق أننا نستطيع أن نلمح ــ من ملبرانش الى كورنو Cournot الى بوترو الى النقـــد المعاصر للعلوم ، الى برجسون ــ تيارا واحدا فريدا فى الفلســـفة الفرنسية ، متميزا بقوة خاصة •

وعلى هذا النحو وضع حد فاصل انقسم به العلم الواحد عند ديكارت الى قسمين ·· فلم يعد ثمة علم واحد ، بل ان هناك العلوم الرياضية الواضحة من جهة ، وهناك من جهة أخرى علم الفزياء وعلم النفس الغامضان : فالأول غـــامض لأنه يفتقر الى الامتداد المعقول ، والثانى لأنه يند عن كل امتداد ·

ولكن ، ينبغى ألا نعتقد أن ذلك يؤدى بنا الى انكار العلم · فاذا كانت العلل فرصية occasionnelles ، فهى علل على كل حال · وفضلا عن ذلك ، فان هذه العلل تحكمها علاقات ، وقوانين عامة لا يمارس الله فعله الا بوساطتها فالمعجزات قليلة الحـدوث فى عالم ملبرانش ، وهو فى اصراره على فكرة القانون يعد ســلفا لفلسفة القرن الثامن عشر ، والفلســفة الوضـعية · وفى تأكيده للامتداد المعقول يعد ــ الى حد ما ــ سلفا لكانت ، وثمة قدر من التشابه به نظريته فى العالم الخارجى وبين نظرية باركلى ، أما فى تأكيده للعرضية ، فهو يعد ــ كما قلنا آنفا ــ واحدا ممن مهـدوا الطريق لحركة نقد العلوم ·

وتشبه نظريته البرجماتية فى الادراك الحسى نظرية برجسون الى حد ما ، اذ يقول : « ان الاحساسات لم تصنع الا للمحافظة على جسمنا وعلى كل ما يمكن أن يكون نافعا له ·· ونحن نربط المشاعر دائما بما يكون من الأنسب لمنفعة الجسم أن تربط به · » و « لم تعط لنا الحواس الا لتوضيح حركات جسمنا بالنسبة الى الحركات التى تحيط بنا · » وهذه النظرية البرجماتية هى فى الوقت نفسه امتداد لنظرية ديكارت · ويكاد يكون نقده للنزعة المادية هو نفسه نقد برجسون ، اذ يقول : « لا وجود لأى تحول (من المادة الى فكر أو طاقة) فان اهتزاز (أو تذبذب) المخ لا يمكن أن يتحـــول الى ضوء أو الى حرارة · » كما أن ملاحظته فيما يتعلق بالنظرية الشائعة عن التمثل مطابقة لنقد برجسون ، فهو يقول : « ماذا ؟ أتعتقد أنك

من الضخامة بحيث تستطيع أن تحصرفى نفسك الفضاءات اللامتناهية التي تشاهدها ؟ » وكذلك الحال فى نقده للفزياء النفسية « نحن لا نستطيع قط أن نكتشف العلاقات القائمة بين حالاتنا النفسية».

وينبغى أن نذكر أيضا النزاع الذى قام بين ملبرانش وارنو Arnauld والذى يرى فيه بعض الفلاسفة الانجليز والأمريكيين المعاصرين من أمثال ليردودوز Laird هكس néo-réalistes ولفجوى Lovejoy نموذجا للمناقشات بين الواقعيين الجدد Dawes Hicks والواقعيين النقدين réalistes-critiques فاذا استطعنا أن نقول ان آرنو قريب فى مواضع معينة من الواقعية الجديدة المعاصرة ، فان ملبرانش لا يبعد كثيرا عن الواقعية النقدية عند كل من سانتيانا وسترونج Strong •

وقد كان القديس أغسطين استاذا لكل من بسكال وملبرانش• ولكن لا يكفى ان نقول فى تفسير الاختلافات بينهما ان تأثير اغسطين على ملبرانش يمتزج بتأثير ديكارت (الذى تأثر هو نفسه بالقديس أغسطين فى الكوجيتو وفى نظريته عن الافكار ، وفى نظريته عن الله) ، ولا يكفى أن نقول ان بسكال يؤكد جانبا أغسطينيا معينا ، بينما يؤكد ملبرانش جانبا آخر ، بل لابد أن نرتفع الى أعلى من ذلك ، وأن نبين وجود ثنائية عند القديس أغسطين نفسه : ثنائية بين تأثير القديس بولس وتأثير القديس يوحنا ، بين عنصر عبرى معين ، وعنصر هلينى معين • وهنا نجد بسكال على أحد جانبى هذه الثنائية ، وملبرانش على الجانب الآخر •

ذلك لأن بسكال ــ ذلك العبقرى التراجيدى (المأساوى) ــ يحلل العناصر ، ويخضع الرياضيات والعقل للكتاب المقدس اخضاعا كاملا ، بينا يعمل ملبرانش على التوفيق بين العهد الجديد وأفلاطون والرياضيات ، ويقول مسيح ملبرانش مخاطبا الانسان : « أنت

هيكل الله الحى ، وأنت جزء من جوهرى » • وليس هذا لهيب بسكال المتوقد ، وانما هو نار تشتعل بقوة ، ولكن فى وداعة •

***

واذا أردنا الآن أن نلم بالتطور الكامل للفلسفة الفرنسية فلابد أن نكمل هذه اللوحة للقرن السابع عشر : فهناك فينيلون Fénelon ، وهناك بوسويه Bossuet • ونستطيع أن نجد تيارا يسرى من فينيلون الى روسو ، ومن روسو الى برجسون ، كما أن هناك تيارا آخر يسرى من بوسويه الى ميستر Maistre وبونالد Bonald ، ومنهما الى دوركيم • وعلينا أن نضيف اسمين آخرين لتمييز اتجاه أخير ، وأعنى بهما جاسندى وفونتنل Fontenelle اللذين يمكن أن نضم اليهما فلاسفة القرن الثامن عشر •

ولكن هناك عوامل أخرى يمكن بها تفسير القرن الثامن عشر ، بالاضافة الى هذا التيار الأخير ، هى الخلافات التى نشبت بين المفكرين الذين ذكرناهم ، والسأم من المذاهب الميتافيزيقية ، وكذلك تأثير ملبرانش بفكرته عن النظام وبما كاد أن يقول به من انكار للمعجزات ، وتأثير ديكارت ، وعدم ثقته فى السلطة ، ونظريته فى الأفكار الوضحة المتميزة ، وتأثير بسكال نفسه من حيث أن يربط بين فكرة الدين وفكرة المعجزة بطريقة تجعل من الوقوف ضد المعجزات وقوفا ضد الدين •

القرن الثامن عشر

نود أن نسمي التيار الذي سوف نتتبعه الآن « تيار العقل التحليلي » • وهذا التيار يتكون من جاسندي وفونتنل وسان افريمون Saint-Evermond ، ويمكن أن يعد ميتون Miton صديق بسكال رمزا يصلح للدلالة عليه •

فهؤلاء مفكرون أرادوا أن يرتبوا الأشياء بأوضح طريقة ممكنة• ويؤلف فونتنل حلقة الوصل بين المحدثين في معركة القدماء والمحدثين ، وبين القرن الثامن عشر • وهذا الرجل الذي نعته لا برويير بأنه مزيج من المتقعر والمتكلف كان له من الأهمية نصيب أوفر مما افترضه لا برويير • فهو يمعن التفكير في ضروب التقدم التي أحرزها العلم في القرن السابع عشر ، ويبث في قرائه الاعتقاد بأن العلوم ما زالت في مهدها • وهو يكتب مقالته عن كثرة العوالم مستوحيا كشوف الفلكيين الذين عاشوا في عصر النهضة ، وهو يناضل ــ بصراحة غير تامة ــ ضد الدين في كتابه « دفاع الورود »

وفى كتابه « أصل الخرافات » وفى « تاريخ النبوءات » ، ولكنه يظل شكاكا ، أو يكاد أن يكون وضعيا قبل الوضعيين .

وليس من شك أن بيل Bayle يعد من أكثر المفكرين تأثيرا فى فلسفة القرن الثامن عشر ، وقد كتب فولتير قائلا :

« ان بيل يفوقهم جميعـــا فى المعرفة ، وبودى أن ألتمس المشورة لديه ، لقد أوتى من الحكمة والعظمة ما جعله يبقى بلا مذهب ، فقد حطم المذاهب جميعا ، وأخذ يناضل نفسه . »

وبيل أستاذ فى النزعة النسبية أساسا ، بل هو أستاذ فى عدم التدين irreligion ، أو هو على الأقل يبين أوجه التعارض بين الدين العادى وبين الأخلاق ، كما يبين لا أخلاقية شخصيات العهد القديم ، ويذهب الى أن الالحاد لا يؤدى أبدا الى فساد الأخلاق، والأخلاق عنده مستقلة عن المبادىء النظرية ، وعلى نزعته النسبية يؤسس دفاعه عن التسامح ، وهو يبدو فى بعض الأحيـان وكأنه لا يعترف الا بصحة السلطة وحدها ، ولكنه فى الواقع ، بعد أن يحطم كل سند ترتكز عليه السلطة ، لا يترك لها أية قوة .

ويرتبط أول فيلسوف بالمعنى الصحيح من فلاسـفة القرن الثامن عشر ــ وهو مونتسكيو ــ بمذهب واحد ، وربما بمذهبين من المذاهب الكبرى فى القـرن السـابع عشر وأعنى بهما مذهبى ملبرانش وليبنتس ، فهو يحتفظ من ملبرانش بفـكرة القانون العام . وفيما بعد ، سـنجد « كونت » Comte يعلن أنه وريث لمونتسكيو . وهكذا ففى استطاعتنا أن نتتبع ، من ملبرانش الى كونت ، مارين بمونتسكيو ــ تيارا من التيارات الكبرى فى الفكر الفرنسى ، ويتضح لنا أن القرن الثـامن عشر ليس اسـتمرارا لجاسندى وفونتنيل فحسب ، ولكنه استمرار لديكارت وملبرانش أيضا . ففكرة طبيعة الأشياء ، وفكرة القـوانين بوصفها عـلاقات

مستمدة من هذه الطبيعة ، تسودان فلسفة مونتسكيو السياسية : وهو يعلم أيضا أن نتائج قوانينه تتنوع طبقا للظروف العامة ، ويربط بين خصوصية النتائج ، وعمومية الأسباب •

ومن السمات المميزة لهذه الفترة ، عدم الثقة فى المذاهب الكبرى التى ظهرت فى المرحلة السابقة • وكان «بيل» قد حارب ديكارت واسبنوزا وليبنتس • ولم يكن دالمبير D'Alembert يريد أن يستبقى من فلسفة ديكارت كلها سوى عنصر واحد : هو الشك ، ويقول فولتير ان ديكارت نسيج من الخيالات الضالة المضحكة : وهو يتحدث عامدا عن «روايات» romans ديكارت ، ويكتب كونديالك Condillac قائلا : « ان ديكارت لم يعرف أصل أفكارنا ولا نشأتها » ويقول فولتير : ان اسبنوزا لم تكن له دائما أفكار واضحة المعالم • وكذلك لم يعف الماديين من النقد : «ان لوكريس Lucrèce بالنسبة الى الفلسفة أقل من بواب الكلية وقواس الكنيسة » •

وقد تعرض بسكال للنقد أكثر من صانعى المذاهب ، وذلك بسبب ايمانه بالعهد القديم ، وفكرته عن النبوة (لكى يكون المرء نبيا ، فيكفى أن يضفى على نفسه قدرا معينا من التسامى) ، ونظريته عن المعجزات ، وتصوره للطبيعة الانسانية بأسره ، فليس الانسان متناقضا وملغزا كما يقول عنه بسكال ، وليس حب الذات وحب اللهو خطيئتين ، ولكنهما دافعان للنشاط الانسانى • ويذهب هلفسيوس الى أبعد من ذلك فيقول : « الناس مدينون بسعادتهم لشهواتهم المتعاقبة » •

والاسمان اللذان كانا يسودان الابحاث الفلسفية فى ذلك الحين هما نيوتن ولوك • ويقول « دالمبير » : ان لوك قد خلق الميتافيزيقا ، كما خلق نيوتن الفزياء • ذلك أن لوك يعرض علينا

تاريخ العقل الانســاني ، أما نيوتن فيجعلنــا ندرك الكون على أنه مجموعة من القوانين • ومنذ ذلك الحين ، نجد أن الوضعية هي التي أخذت ملامحهـــا في الوضــــوح عند فلاسـفة من أمثال لامترى وكوندياك • فلامترى يؤكد : « ان كل مالا ينبع من حضن الطبيعة، وكل ماليس بظاهرة أو علة أو معلول لا يخص الفلسفة في شيء »•

فماذا سيكون مُنهج هذه الفلسفة الجديدة ؟ انه يقـوم على الافكار الواضحة المتميزة • ولكنها أفكار نحصل عليها عن طريق التحليل والملاحظة • يقول هلفسيوس : « كل فكرة يمكن أن ترد الى وقائع أو احساسات فيزيائية » • وهو يعتقد أن أسمى الحقائق، اذا تم تبسيطها مرة وردها الى أقل حدودها ، تتحول الى وقائع • وهذا ضرب من الوضعية المنطقية ، كما يمكن أن يقال اليوم ، أو بالأحرى كما كان يمكن أن يقـــال بالامس • فالبداهة التي كانت معقولة عند ديكارت ، قـد أصبحت محسوسة ، اذ يظل هنـــاك بداهات ، أعني روابط ترى دفعة واحـدة ، ولـكنها تصبح الآن منتمية الى مجال الوقائع •

أما كوندياك فهو فيلسوف « الفلاســفة » ، وواضع نظرية التحليــــل • والتحليــل في نظره يعطينا منشــأ الافكار ، وبهذه الوسيلة نفسها يسمح لنا بانتاجها واعادة تكوينها • فالاحساسات توجد في أساس الافكار ، ولكنها تضاف بعضها الى بعض وتتعقد• بواسطة تداعي الاحساسات ، وتداعي الافكار • وينبغي أن نبدع بمعونة أشد العبارات وضوحا ، لغات محـــكمة الصنع ، أعني علوما • والواقع أن كوندياك يعتقد أنه ينبغي الذهاب الى أبعد مما ذهب اليه ديكارت ولوك ، اذ أنهما قد تقبلا الافكار كما هي في العقل الانساني بسهولة زائدة عن الحد ، حتى بعـد أن وضعاها لحظة موضع الشك • ولكن الواجب أن نعيد صياغة أفكارنا من خلال احتكاكها بالتجربة ، واحتـــكاكها بالعـــالم ، اذ ينبغي أن تكف

الفلسفة عن أن تكون علم الاشخاص الذين يتأملون بعيون مغمضة ، قابعين في مكاتبهم • وعلى هذا النحو وحده يمكننا أن نصل شيئا فشيئا الى تكوين مجموعات الرموز الكافية المسماة بالعلوم •

ومن هذا التحليل ، وهذه المشاهدة يمكن أن نصل الى أشد الآراء (أو الافكار) اتساعا • ونحن نعرف العبارة التي قالها دالمبير : « ان أشد الافكار تجريدا ، أعني تلك التي ينظر اليها معظم الناس على أنها أبعد الافكار منالا ، هي التي تحمل أكبر قدر من النور» • وهو نفسه الذي كتب قائلا : « الكون ــ لمن يعرف كيف يجمعه في نظرة واحـــدة ــ لن يكون الا واقعة واحـدة ، وحقيقة هائلة » •

هؤلاء الفلاسفة ــ وعلى الأخص كوندياك ــ أصـــحاب نزعة وضعية • ففي رأى كوندياك أننا لا نعرف عناصر الاشياء ، أو محركاتها الاولى • وانما الواجب تفسير الظواهر بظواهر أخرى ، وثمة أشياء لا نفهمها الا عن طريق نتائجها ، ولهذا ينبغي دراسة هذه النتائج التي تتوقف هي نفسها على علل لا نعرفها • وعلى الميتافيزيقا أن تجعل أبحاثها متناسبة مع ضعف العقل الانساني •

وكما أطلق على مذهب كوندياك اسم مذهب الاحساس المتحول la sensation transformée ، فمن الممكن أيضا أن يطلق على مذهب دالمبير اسم مذهب القضية المتحولة la proposition transformée فكل شيء يمكن أن يرد ــ في نظره كما هو في نظر ليبنتس ــ الى قضايا بسيطة • والواقع أنه كان أفضل الناس تهيؤا واستعدادا لتحقيق فكرة الموسوعة ، أعني فكرة شجرة موسوعية تعطينا معجما عقليا للعلوم ، وتكون في الوقت ذاته شجرة نسب تحدد أصل معارفنا •

وبفضل هذا النسق من العلوم ، نستطيع أن نعود مرة

أخرى ، وفي مزيد من الثقة ــ الى الفكرة الديكارتية القائلة بقدرة المنهج الشاملة : « لا وجود لعلوم أو فنــون لا نستطيع بالمنطق السليم ، أن نلقنها لأشد العقول ضيقا » •

ويدرك دالمبير ــ في الوقت نفسه ــ النتائج الأخلاقية لهذه الدراسات • فهو يستخلص فكرة المساواة من اتفاق الناس جميعا في الشكل وفي الحاجات الاساسية ، ومن المشــاركة التى تخلقها التربية وفقا للمنهج الواحد ، ومن ضرورة اعتماد كل شخص على الآخر •

وقد اتخــذ فكر كونديياك ودالمبير في القرن العشرين أشكالا جديدة • فنحن نجد أن عالما مثل كوتيرا Couturat ونيكو Nicod وأحدث منهما كافاييس Cavaillès ولوتمان Lautmann . قد تناولوا من جديد فكرة وضع نسق من العلامات des signes بمعونة أحدث الاساليب الرياضية ، ومن المفيد أن ننوه بالدور الايجــابى الذى أسهما به فى المحافظة على فكرة الشمول العقلى universalité rationnelle

***

« ما هى الفكرة ؟ انها صورة ترسم في مخى • » بهذا نرى أن فولتير يقــف ضد ديكارت ، وينحاز الى جانب جاسندى فهو يقول : « كل افكارنا صور » •

ولقد سميت فلســفة فولتير بأنهــا فلسفة الفطرة السليمة le bon sens ، ولكن لا بد أن نورد هنــا ملاحظتين ، فالفطرة السليمة التى يعنيها ليست هى الفطرة السليمة التى يعنيها ديكارت حين يجعلها مرادفة لما يعتبر أنه العقل • كما أن الفطرة السليمة كما يفهمها هى ــ من جهة أخرى ــ شىء مختلط متغاير الى حد ما •

ان فولتير يؤمن بالله •• بإله أشبه بصانع دقيق للساعات ، « فاما أن النجوم مهندسون عظماء ، واما أن المهندس الابدى ينظم

النجوم » • وهو يوجه النقد الى أولئك الذين لا يقبلون فكرة العلة الغـائية : « أليس القـول بأن العين لم تخلق للنظر ، هو أكبر السخافات ؟ » والهه اله أخلاقى أيضا • وبهذا المعنى يقول انه لو لم يكن الله موجودا ، لكان لابد من اختراعه • ففكرة العناية الآلهية تتيح لنا بأن نجعل من الاله صانع الساعات ، الها ضامنا للخير •

وهكذا فان قوام الطبيعة صنعة يدوية •• فهو يقول على لسان الطبيعة : « انهم يدعونني طبيعة ، وأنا فن صرف » •

وعلى الرغم مما يقوله فولتير عن العناية الالهية ، فانه ينقـد هذه العناية ، بل ينكرها لحساب المصادفة • وهكذا نلمس لديه فى هذه النقطة ذاتها شيئا من التردد •

واذا كانت أقوى الاحتمالات تؤيد الله والعلل الغائية ، فانها عند فولتير ضد خلود النفس ، فالخلود لا نفع فيه لتأسيس الأخلاق، وهو يقول لنا من الممكن للمادة أن تفكر وأن تشعر ــ وهى فكرة استعارها من جاسندى ولوك •

أما فيما يتعلق بالحرية فانه يتصور أحيـــانا حرية محدودة متغيرة تكون أعلى درجاتها هى الطاعة بالضرورة ــ ولـكن عن طيب خاطر ــ لأوامر العقل ، وفى هذا يتفق مع تعاليم ديكارت وليبنتس• وهذه الحرية هى صحة الحياة • وفضلا على ذلك ، « فاننــــا نتصرف دائما ، كما لو كنا أحرارا أيا كان المذهب الذى نعتنقه » •

ولكن يبدو أنه يتخلى أخيرا عن الحرية ، وله فى هذا الموضوع تعبيرات موفقة اذ يقول : « ان ارادتنا ليست حرة ، أما أفعـــــالنا فهى حرة » و « ان لدى بالضرورة رغبة فى أن أكتب هذا ، ولديك أنت الرغبة فى أن تدينني • فنحن الاثنان ســــواء فى الحمق ، ولعبتان فى يد القدر • ان طبيعتك هى أن تقترف الشر ، وطبيعتى

هي أن أحب الحقيقة وأنشرها على الرغم منك » • والواقع أن ثمة بطولة رواقية في هذه المرارة المستسلمة الفعالة ، وتتحول تعبيراته شيئا فشيئا الى حتمية ، فيقول : « من التنـــاقض أن يكون في استطاعة ما يجب أن يكون ، ألا يكون • » و « المذهب المعـــارض لمذهب القدر لا معقول • » و « الحرية هي النتيجـة المعروفة لعلة مجهولة • » •

وكثيرا ما يكون فولتير وضعيا •• فنحن نقف على شــاطيء محيط هائل •• أو وفقـا لتعبير يســتخدمه ليتريه Littré فيما بعد ، نحن نسبح جميعا في بحر لم نر شاطئه قط • فكم من أشياء يتعين علينا أن نكتشفها ، ولكن ما أكثر الأشياء التي ستبقى الى الأبد خارج نطاق معرفتنا ! نحن لا نعرف كنه الطبيعة ولا الروح ولا كيف تؤثر الارادة على الجسم ، ولا ما هي الكهرباء ، أو الارادة• ونستطيع أن نقول بمعنى ما ان كل شيء كيفية غيبية qualité occulte بل لقد أراد انشاء كرسي للحقائق المجهولة • وله أحيـــانا أخرى تعبيرات تذكرنا ببسكال مثل قوله : « كل شيء غارق بالنسبة لنـــا في هوة من الظلمات • »

وفولتير يسير أساسا في اتجاه مضــــاد ، ذلك لأنه لما كان نصيرا لنوع من التقدم يتم داخل الانسانية ، وهو تقدم لا يرجع تفسيره الى أن الانسان يتغير ، وانما الى أن من الممكن أن يستنير ، والى أن الحقيقة تكفي للتوحيد بين الناس ، « اذ لا وجود لطوائف في الهندسة » ـ فانه لا يقبل الفكرة التي سينادي بها داروين ، فكرة أصل الأنواع • ذلك أن الأنواع واحدة بلا تغيير ، وهو يميل الى القول بحدوث انقطاعات في سلسلة الكائنات ، وكذلك في سلسلة الحوادث (وان يكن قد تصور أحيانا شجرة نسب متصــلة لأحداث العالم) •

وتفيده نزعته النسبية في تصوره للتاريخ • فهو يؤكد تباين المدنيات ، ودور المصادفة ، ولكنه يؤكد أيضا دور عظماء الرجال •

وترتبط أخلاقه ارتباطا وثيقا بمفهوم الله عنده ، وهنا يكف صاحب النزعة النسبية عن أن يكون نسبيا ، فهو القائل :

« الأخلاق الواحدة •• فى كل زمان ومكان ،
وفى قرون بلا نهاية تتحدث باسم الله » •

وهو يصوغ قواعده الأخلاقية فى البيتين التاليين :

« من طرف الى آخر من أطراف العالم ، تتحدث ، بل تصيح :
أعبد الله •• وكن عادلا ، واعتز بوطنك • »

وهو يعبر عن هذه القواعد نفسها بطريقة مختلفة الى حد ما في جملة من النثر : « اعبدوا الله ، وكونوا أمناء ، وصدقوا أن اثنين مضافة الى اثنين تســــاوى أربعة » • ومن حسن الحظ ، أن الغرائز الأخلاقية شاملة وفطرية :

« لقد تلقى الناس جميعا من السماء مع العقل ،
هذا اللجـــــام من العـــــدالة والضـــــمير • »

والأخلاق عنده مستقلة عن كل اعتقاد ميتــافيزيقى أو دينى (اللهم الا الاعتقاد بوجود الله) • « ومن حسن الحظ ، أنه أيا كان المذهب الذى نعتنقه ، فانه لا يضر الأخلاق » •

وأما فيما يتعلق بمسألة المساواة ، فان فكره غير مستقر الى حد ما ، ويمكن تلخيصه جيدا فى هذه الجملة : « المساواة هى أكثر الأشياء طبيعية فى العالم ، وهى فى الوقت ذاته أكثرها خرافية » فلكل انسان من جهة ، الحق فى أن يعتقد فى أعماق نفسه أنه مساو

للآخرين ، ومن جهة أخرى ، فان الجنس البشرى ، بما هو جنس ، لا يستطيع البقاء ان لم يكن ثمة عدد لا متناه من الناس لا يملكون شيئا على الاطلاق •

وأما فيما يتعلق بمسالة التفاؤل والتشاؤم فقد صرح فولتير فى بداية الأمر بأن الشر يمكن أن يكون خيرا من بعض وجوهه ، وأن الخير يغلب على الشر ، وأن الانسان ، لانه يحب الشكوى ، يبالغ فى كمية الشقاء فى العالم • وأخيرا ، فان قلة عدد أولئك الذين يتمنون الموت ، تثبت أن الحياة ليست سيئة الى هذا الحد • بيد أن فكرته عن هذا الموضوع قد تحولت فى أواسط القرن . ودعم زلزال لشبونة تغييرا كان قد بدأ يتشكل فى نفسه • فذهب الى أن كفة الشر هى الأثقل من بين كفتى الميزان الذى يقبض عليه جوبيتر بيديه • وأخذ ينظم أشعارا تذكرنا بمدام آكرمان Ackerman وفينى Vigny ، ولوكريس Lucrèce :

« ذرات معذبة فوق هذا الكوم من الوحل ••

الجميع يجأرون بالشكوى ويئنون فى بحثهم عن السعادة • »

ولم يتبق للانسان الا أن :

« يستسلم ، ويأمل ، ويعبد ، ويموت •• »

ويصل فولتير أخيرا الى ما أطلق عليه اسم « نصف تشاؤم » فالحياة تافهة ولكنها محتملة ، فلنزرع حديقتنا ، ولنصنع الخير • ولن يحاسبنا الله على أفكارنا ، وانما على أعمالنا •• وأعمالنا يمكن أن تجعل العالم أفضل مما هو •

« سيصبح كل شىء على ما يرام ذات يوم •• هذا هو أملنا ، أما أن نقول ان كل شىء على ما يرام اليوم •• فهذا هو الوهم • »

وعلى ذلك فان فولتير من أنصـــــار مذهب اصـــلاح العالم

méilioriste • ويتحول الفيلسوف الى حكيم كما كان كونفوشيوس وكما كان المسيح « هذا السقراط الصوفى » • ولكنه لا يصبح متحمسا •

ولن نتحدث هنا عن « بوفون » Buffon وعن محاولته الهائلة فى وصف الأنواع الحيوانية ، وهى محاولة كان اهتمامه فيها منصبا على تركيبها وهيئتها أكثر مما كان منصبا على مراحل تطورها وكذلك محاولته اعطاءنا فكرة عن النظام متفقة من وجوه معينة مع رؤية شبيهة برؤية ملبرانش •

❋ ❋ ❋

وكما حارب فولتير الدين ، فقد حارب أيضا النزعة المضادة للدين حين تتبدى على صورة « تعصب » عند الماديين •

ولقد حرص ف • لانجه ، مؤرخ المادية ، على انصاف لامترى ، رائد المادية فى القرن الثامن عشر ، الذى طالما افترى عليه ، وتقوم نظريته فى آن واحد على الفكرة التجريبية القائلة بأن كل ما تتضمنه روحنا آت من الاحساس (وهذه القضية نجدها هى نفسها عند هلفسيوس) ، وعلى ملاحظة التأثير الذى يمارسه الجسم ، وعلى الفكرة الأرسطية القائلة بأنه لا وجود لصورة بلا مادة ، وعلى الفكرة الديكارتية عن الحيوان ــ الآلة ، وهى الفكرة التي يحاول تطبيقها على الانسان : اذ لا وجود لاختلاف مطلق بين الانسان والحيوان • ولقد تساءل كل من لوك وكوندياك وفولتير : « ألا يمكن أن يكون مايحس شيئا ماديا ؟» وأجاب لامترى : بأن مايحس هو بالفعل شىء مادى • فلابد من ارجاع الروح الى مادة ، بدلا من ارجاع المادة الى روح كما فعل ليبنتس • ولكن علينا أن نتنبه مع ذلك الى أن تعريف المادة عند لامترى تعريف واسع ، فهى تتصف بالامتداد والقوة والاحساس ، فلابد اذن أن توجد اختلافات فى المادة طبقا لتباين التنظيمات العضوية • بيد أن الطبيعة تظل متصلة متجانسة•

ويؤمن لامترى بقوة حيوية force vitale تتجه صوب اللذة . وهو يعتقد أن العالم لن يكون سعيدا الا اذا أصبح الناس جميعا ملاحدة . هذه هي نتيجة تلك الفلسفة القائمة على الفكرة القائلة ان كل ما في الانسان حس ، وكل ما في الطبيعة مادة .

أما ديدرو فمن الممكن أن تقترب بعض أفكاره من الوضعية أو من نوع من البرجماتية الوضعية . فهو لا يريد أن نبحث عن التفسير (« لماذا ؟ ») ولكن عن الوصف (« كيف ؟ ») ، وهو معنى لهذا السبب بالانتفاع العملي من العلوم قبل كل شيء ، ويحرص في « الموسوعة » على دراسة كل ما يتعلق بالفنون والحرف .

بيد أن هذا ليس هو الوصف المميز له بدقة ، ذلك لأنه مادي، بل نستطيع أن نقول : انه مادي حيوي matérialiste vitaliste .

وهو يضع التماس (أو التلامس) contiguïté في مقابل الاتصال continuité فيقول : « ان اتصال جزيئين فيهما حياة شيء يختلف كل الاختلاف عن تماس كتلتين ماديتين » . ففي هذه الاتصال تتم عملية تمثيل ، وينمو الجزيء الحي .

هذا الاتصال لا يوجد في الكائن الحي فحسب ، ولكنه يقوم بين الكائن الحي والكون ، فهناك تداخل مستمر بين الموجودات بعضها وبعض ، وكل شيء في تدفق مستمر ، ورخام التمثال يصنع جسد الانسان ، ولكل شيء حساسية ايجابية ، لا وجود في أي مكان لحدود قاطعة ، وكل حيوان هو انسان بدرجات متفاوتة ، وكل معدن نبات بدرجات متفاوتة ، وكل نبات حيوان بدرجات متفاوتة. ان كل شيء متداخل في كل شيء آخر ، وما من شيء يمكن أن يعد ماهية لكائن معين ، ولا وجود لأفراد .. أو لا وجود الا لفرد واحد هائل هو الكل le Tout

ففي كل مكان حياة ، وما الموت الا تغيير في الصورة ، فثمة

محيط هائل من المادة ، وكل موجة من موجاته عابرة ، والعالم يبدأ وينتهى بلا انقطاع فى انتقال مستمر من صور الى صور جديدة • بيد أن الكل يبقى • وفى بعض الأحيان نجد ديدرو يقول باللاأدرية agnostique ويؤمن كما قلنا من قبل بالوضعية : (لا توجد سوى صور ، أما الجوهر فلا أعرف عنه شيئا •) الوحدة والتنوع فى كل مكان : نموذج واحد للصور الحية ، وصور متباينة لا حصر لها • وهذه فكرة سوف يبدى جيته اعجابه بها فيما بعد •

وهكذا نفهم الآن بأى معنى يمكن أن يقال عن ديدرو انه استبق النزعة التطورية : فأعضاء الجسم تنتج الحاجات ، والحاجات بدورها تنتج الأعضاء ، وقد استبق فى ذلك لامارك Lamarck على وجه الخصوص • فالتشكل الأصلى عنده يتغير أو يكمل بفعل الحاجة والوظائف المعتادة •

ان الحيوان عنده مجموعة من الحيوانات ، والمجتمع ــ من ناحية أخرى ــ حيوان هائل •

وها نحن أولاء نعود ، بعد أن سرنا طويلا فى طرق جانبية ، الى فكر هرقليطس وأنكساجوراس ، ولكن أيضا الى فكر فلاسفة عصر النهضة ، ورابليه • وقد كتب ديدرو قائلا : اتركوا ماهياتكم هناك ، وانظروا الى الكتلة العامة ، وأكد أنه ما من نقطة فى الطبيعة لا تتألم ولا تستمتع • وبالحركة والحرارة تبدو هذه الحياة الكلية وكأنها تتركز فى حيوات جزئية • بيد أن هذه الحيوات الجزئية لا تنفصل عن الحياة الكلية ، فالكائن الحى متحد دائما مع العالم الخارجى ، أو هو ان شئنا الحق جزء من العالم الخارجى تحول الى شىء داخلى ، فلما كان ناشئا عن العالم الخارجى ومتغذيا منه فانه متصل به ، وما السمع والشم سوى نوعين من اللمس •

وسوف نجد فيما بعد أن روبينيـــه Robinet يؤكد في ألفاظ مماثلة الى حد ما لألفاظ ديدرو أهمية المجهود الذى تبـــذله الحياة ، ويعرض علينا نوعا من النزعة الحيوية المادية
vitalisme matérialiste

ويكفي أن نقرأ هذه الجملة لدولباك : « الطبيعة ليست عمـــلا مصنوعا » لنرى مدى التعـــارض الواضح بينه وبين فولتير • انه يقول : « ان الطبيعة معمل كبير مزود بالمواد ، وهو يصنع الادوات التي يستخدمها من أجل الفعل • وفي كل مكان نشاهد آثار نشاطها وعناصرها الأبدية التي لا تخلق ولا تفني ، والتي تتحرك دائمـــــا وأبدا • ولا حاجة بنا بعد الى العلل الغائية التي كان يحرص عليها فولتير ، فهناك حركة كامنة في الكائنات » •

هذه الكتلة الهائلة التي هي المادة ليست متجانسة ، سواء في نظر دولباك أو في نظر ديدرو • فكل كائن لا يستطيع أن يتحرك الا بطريقة خاصة ، وكل كائن مختلف عن ســـواه • وهكذا يأخذ الفيلسوف المادى دولباك بمبادىء الفيلسوف الروحي ليبنتس : فكل شيء في حركة ويبذل مجهودا •

ونستطيع أن نستنتج من ذلك نوع الموقف الذى يتخذه كل من ديدرو ودولباك ازاء فكرة الله • فقد بدأ ديدرو معاديا للالحاد متأثرا بشافتسبرى Shaftesbury ولكنه تحول شيئا فشيئا الى القول بأن أبدية العالم لا تقل امتناعا عن أبدية الروح ، فمن الممكن أن تكون الذرات الحية قد انتجت العالم • ومن هنا فانه بعد أن كتب قائلا : « انني أستمع الى الله » أصبح يقول الآن : « وسعوا الله وحطموا الحوائل » • واذا كان يؤمن باله ، فهو الآن « اله مادى » معرض للتغير • ألا يجوز أن يكون العالم هو الله ؟ انه يرى العـــالم كأنه حيوان ، أو انسان هائل : « من أدراكم أنه ليس لهذا العالم

مخ كالانسان ؟ » وهناك كائن مركزى ، مادى ، ولكنه منتج للروح « المادة تستطيع أن تصنع الروح » • وهى تستطيع أن تصنع الله وأن تكون هى الله •

أما دولباك ، فمن الطبيعي أن يكون ضد الله ، ضد السر ، ضد القساوسة ، ضد كل زهد • ولكنه على خلاف لامترى وديدرو يعتقد أن الدين مفيد لعامة الناس : فالالحاد لم يجعل لعامة النـــاس • ويسوق هلفسيوس حجة بارعة ضد الاتهام بالالحاد ، فعلى حين يتمنى لامترى أن يصبح الناس جميعا ملاحدة يقول هلفسيوس ان أحدا لم يكن ، ولا يكون ، ولن يكون ، ملحدا ، اذ أنه ما من انسان مستنير لا يعترف بوجود قوة فى الطبيعة •

وعند هلفسيوس نستطيع أن نهتدى الى سيكلوجية المادى • والشىء المهم فى الروح ، الذى يفسر العبقرية ، هو الانتباه والاهتمام، على أن الانتباه والاهتمام ينبعان من الانفعـــال • أما فيما يتعلق بالانفعال نفسه فهو بحث عن اللذة ، بحيث ان كل شىء يرجع الى الحساسية الفزيائية • فقد كتب يقول : « ان المرء يصبح غبيا حين يكف عن أن يكون انفعاليا » ، وهى عبـــارة لهلفسيوس أطربت « استندال Stendhal» فيما بعد ، شأنها ــ دون شك ــ شأن العبارة الآتية : « نحن لا نستمتع حقا الا فى الأمل » •

وهؤلاء الماديون حتميـــون déterministes ، « فما دمت أتصرف على هذا النحو ، فان من يتصرف على نحو آخر لا يكون أنا» والارادة تأتى دائما من دافع داخلى أو خارجى ، من انطباع حاضر ، أو من ذكرى ماضية ، أو من انفعـــال معين ، أو من مشروع فى المستقبل • ولا وجود لفضيلة أو رذيلة شخصية ، وجاك القدرى Jacques le Fataliste مسوق حقا بواسطة القدر le Fatum •

وتتصف الأخلاق عند هؤلاء الفلاسفة بأنها أخلاق نفعية نسبية

مخففة بفكرة فعل الخير • وهذا يصدق بوجه خاص على ديدرو ، بيد أن هذه الأخلاق النفعية تطامن من غلوائها أيضا أخلاق الانفعال ان صح هذا التعبير • وديدرو يتفق في هذه النقطة مع هلفسيوس فهو يقول : ان الانفعالات هي مصادر الملذات جميعا • (أما هلفسيوس فكان من الممكن أن يقول : « الملذات هي مصادر كل الانفعالات ») • والحق أن الانفعالات الهائلة هي وحدها التي تستطيع أن تصل بالنفس الى عظائم الأمور ، وبدونها لا توجد افكار سامية •

والقوتان اللتان تسيطران على الانسان ـ عند دولباك ـ هما حب الذات والتعاطف ، وهو في الأخلاق يؤكد ـ من ناحية ـ أهمية السعادة : « اذا كانت الرذيلة تجعل الانسان سعيدا ، فليحب الانسان الرذيلة » كما يؤكد من ناحية أخرى ، أهمية دور التشريع، اذ لابد من قدر معين من القهر الاجتماعي لكي تخضع المصلحة الخاصة للمصلحة العامة • وكذلك يؤكد دور المجتمع ، والتقدير الاجتماعي ، ويؤمن ـ بأكثر من ايمان دولباك ـ بتأثير التربية •

واذن فالاتجاه الذي يسود هذا النوع من علم النفس ومن علم الأخلاق هو الدور الذي ينسب الى الميول ، والى المصلحة أو الاهتمام وهم في ذلك متأثرون ب « لاروشفوكو » ، بوجه خاص •

ويعتقد هؤلاء الماديون أن الناس يستطيعون أن يتجهوا صوب المساواة ، وفضلا عن ذلك فلا وجود لعدم مساواة حقيقية ، فكل انعدام للمساواة انما يأتي من التربية السيئة •

والواقع أن لبعض العناصر التي نادت بها هذه الفلسفات قيمة باقية ، فدولباك قد تنبأ ببعض آراء برجسون حينما أنكر فكرة انعدام النظام ، وحين رأى أن الدورة الحيوانية ترتكز في مجهودها وفي سورتها على الدورة النباتية • وديدرو بتأكيده لفكرة الاتصال

وفكرة الميل tendance (« الأنواع ليست الا ميولا » ، « ما أنا الا ميل ») وبفكرته القائلة اننا نتذكر كل شيء ، كان يسير على الطريق الموصل من ليبنتس الى برجسون •

وهكذا يتضح لنا مدى صعوبة تحديد الفئة التي ينتمي اليها ديدرو بوجه خاص : فليس العقل التحليلي هو الذي يتبدى فيه ، أو يتبدى في غيره من الماديين ، بل ان أبرز مافيه هو ضرب من العبقرية التركيبية • وقد كان ـ من جهة أخرى ـ صديقا لروسو وملهما له في وقت ما • والواقع ان النقاط المشتركة بينه وبين كونديلك أو فولتير قليلة ، فهو في أحيان كثيرة يقترب من روسو ، أو حتى من الرومانتيكيين ، حين يمتدح الالهام ، أو حين يكتب قائلا: « ان كل شعر انما هو حلية emblématique » •

وأخيرا ينبغي أن نضيف الى هؤلاء الفلاسفة أشدهم جرأة ، وربما أقربهم الى طابع الفيلسوف الحق ، مع أنه يكاد يكون مجهولا غداة الحرب ـ وأعني به دوم ديشان Dom Deschamps الشيوعي البندكتي المادي المعادي للدين ، والهيجلي قبل هيجل • فقد بدأ بالواقعية الاسكلائية ، وبين أن الكل يختلف عن عناصره ، ثم اتجه صوب فكرة الكل الشامل ، أو ما يسميه بالعمومية الشاملة التي هي كلها روابط وعلاقات • ففي رأيه ، كما في رأي ديدرو ان الاتصال لا ينقطع الا بالنسبة الى عيني الجسم ، ولكنه يذهب الى أبعد من ذلك ويؤكد أن الاهتمام الزائد بحاسة الابصار قد زيف جميع منظورات الفلسفة • وهو يضعنا في حضرة الوجود ، الوجود الذي يثبت وينفي في آن واحد العنصر الميتافيزيقي والعنصر الفزيائي ، وهما العنصران اللذان ينفي أحدهما الآخر ، فهو يقول في صيغة هيجيلية : ان الوجود هو الذي ينفي الأضداد باثباتها • وهو يرى في كل مكان ـ مثل هيجل ـ قوة ذلك العامل الذي يسميه بالسلب ، أو ال «لا» التي تصنع حركة العالم • ويؤدي به تفكيره

الى العودة الى آراء نيقولا دى كوزا Nicolas de Cuse في اتفـــاق الأضداد • ولكنه لا يقف عند هذا الاتفاق ، وانما يتـــــابع تفكير أفلاطون في محاورة بارمينندس ، فيرى فيما وراء الكل الذى هو هذا الشيء وسواء معا ، بل هو كل شيء – يرى ما يسميه « بالكل Tout في مقابل ما يسميه كل شيء le tout ، أى الموجود بلا نسب كما تصوره جان سكون اريجينا ، والموجود السلبى • والاله غير الخالق non-créateur وبينـــا يربط ديــكارت بين فــكرة اللا متنـــاهى والكامل ربطا عميقا ، فان دوم ديشان يفصل بينهما فصلا قاطعا : فاللامتناهى هو سلب الكامل « والكل الشامل سلب لكل شيء » • وهكذا نصل الى ما يســـميه « بالوجود المتجـــاوز للأخـــلاق l'être méta-moral » وينبغي الجمـــع بين هاتين الفـــكرتين المتناقضتين : فكرة الكل le tout وفكرة « كل شيء le Tout » وكذلك الوجود الداخل فى علاقة ، والوجود بلا علاقة – ينبغى الجمع بينهما فى ضرب من التســـاؤل والبحث المســـتمر • « انه لا شيء بالنسبة لنا •• ولم يتوقف قط عن أن يكون موضع سؤال بالنسبة لنا » • وهكذا يعبر دوم ديشان فى صيغة وجودية (وبسكالية) عن موقفه الأنطولوجى •

ومن هذه الأفكار الميتافيزيقية يستخلص دوم ديشان من جهة تصورا للعلم من حيث انه لا يعدو أن يكون تقريبيا ، كما يستخلص من جهة أخرى مجموعة من النتائج الاجتماعية والأخلاقية • فلابد من توحيد الناس فى انسان واحد ان صح هذا التعبير ، والنساء فى امرأة واحدة ، والغاء كل تفاوت فى المساواة ، والقضاء على الملكية أو ما يسميه رذيلة الملكية ، ومحو طبقة العاطلين بما فى ذلك رجال الأدب ، وعلى وجه الخصوص الغاء طبقة الكهنة وطبقة الجنود الذين يجمع بينهم اضطهاد الشعب ، وازالة القوانين ، وانكار فكرة الله التى تناظر فى المجال الفلسفى فكرة الملك فى مجال العلاقات الانسانية•

ولقد كان الخطأ الذى وقع فيه دولباك ـ فى نظره ـ هو أنه ناضل القوانين الالهية ، دون أن يناضل ضد القوانين الانسانية • وخطأ روسو هو أنه ناضل ضد القوانين الانسانية دون أن يناضل ضد القوانين الالهية ، أما دوم ديشان فقد دعا الى الثورة على هذين النوعين من القوانين ، ذلك أنه يرى ـ شأنه فى ذلك شأن ونيم بلنيك ـ أن نتيجة القوانين هى الشر (١) •

وهكذا نفهم سبب حنق فولتير على الماديين الذين تشككوا فى تصوره للعالم وهو التصور المبنى على العلل الغـائية وعلى العقل السليم فهو يتحدث عن ذلك المأفون لامترى • وحين سأله دولباك عما اذا كان الصانع الذى أحدث الكون خارج العـالم أم داخله ، أجاب بقوله : « أعلينا نحن أن نجد له مكانه ؟ ان عليه هو أن يعطينا مكاننا • » وما كان بوسويه ليستطيع أن يجيب اجابة أفضـل من ذلك • وهو يضيف : « أنت تعترف بالله على الرغم منك (لأن دولباك قد وصف الطبيعة بأنها مفكرة نشطة) • ويعتقد فولتير أنه مما يند عن التصور أن ينتج كائن بلا عقل ، كائنات ذات عقل • وهو يدافع ازاء الجميع وضدهم عن وجود الله ، قائلا : « حتى اذا كان البنـاء مصطبغا بدمائنا ملطخا بجرائمنا ، فان ثمة معماريا شيد هـذا البناء » وهو يحتج على الفكرة القائلة ان النظام لا يحتاج الى تفسير، وينكر وجود اتصال مطلق بين العضوى واللاعضوى • « هل رأينا قط حجرا يشعر ويفكر ؟ »

* * *

وقد ظهرت فيما بعد عند كابانيس بعض من هذه الاتجاهات المادية على الأقل ، وهو يدخل بعض التعديلات على نظريات كوندياك

---

(١) راجع كتاب «المذهب الحقيقى» Le Vrai Système » بقلم دوم ديشان ، نشره جان توما وفرانكو فنتورى (طبعة دروز Droz ، باريس ١٩٣٩) •

فليس من الممكن فصل احساس ما عن الاحساسات الأخرى أو عن الطبيعية المادية • وهو يؤكد أهمية الاحساسات الداخلية الى جانب الاحساسات الخارجية ، ويفصل بين القابلية للاثارة (أو القدرة على الاستجابة) وبين الحساسية ، ويدرك تعدد مراكز الوعى ، وبذلك يزود مين دى بيران Maine de Biran بنقطة بدايته • وعن طريق فصله بين الأنا الذى يسلك وفقا للعادات والأنا الذى يفكر ــ متفقا فى ذلك مع بعض أفكار كوندياك ــ فانه يمهد أيضا كما لاحظ اميل بربيه Emile Bréhier لبعض مفاهيم دى بيران •

انه يقول حقا : « ان الأخلاق فزياء » و « الفكر نتاج المخ » ، ولكننا نرى فى الوقت نفسه كيف أن نزعته المادية ــ لأنها مادية رجل علم ــ أكثر دقة من مادية الفلاسـفة • والواقع أن كثيرا من صيغ كابانيس أقرب الى الوضعية منها الى المادية ، بحيث ان تأثير كابانيس الذى امتزج فيما بعد بتأثير بيشا Bichat (الذى يصر على أن يفصل داخل الانسان بين حياة الحواس وحياة الأعضاء التى هى أكثر استمرارا) قد أسهم فى تكوين نظريات أكثر مرونة •

***

ويكاد يكون من العبث أن نبين تناقض فلسفة القرن الثـامن عشر ، وحتى اذا نحينا جان ــ جاك روسو جانبا ، فانا نرى هذه الفلسفة تؤكد التحليل مع كوندياك ، والتركيب مع ديدرو ، وتؤكد الها منفصلا عن العالم مع فولتير ، والها حالا فى العالم مع ديدرو وهلفسيوس ، وتؤكد حقائق مطلقة مع فولتير على الرغم من نزعته النسبية كما تؤكد النسبية الكاملة ، أو التى تكاد تكون كاملة مع الماديين • والواقع أننا نجد عند هؤلاء الفلاسفة جميعا ، بل ولدى كل واحد منهم ، تأكيدات متناقضة بشأن موضوع التقدم والتفاؤل والأخلاق ، اذ أنهم يبدون غيريين متطرفين أحيانا ، وأنانيين عنيدين أحيانا أخرى • ولا توجد سوى نقطة واحدة يبدو أنهم متفقون عليها

جميعا ، وهي انكار الحرية النفسية ، وتأكيد الحرية والتسامح بوصفه قيمة valeur •

وهكذا يبدو أن فكرة العقل السليم le bon sens تحتمل تأويلات عديدة عند هؤلاء المفكرين المختلفين حين نقارن بعضهم بالبعض الآخر ، وأحيانا عند فولتير حين نقارنه بنفسه •

كما يتضح لنا أن فلسفة العقل هذه ، هي بطبيعتها نفسها فلسفة مائعة ، ذلك أن العقل لا يولد من نفسه ، وخاصة عند أمثال هؤلاء التجريبيين ، اذ لابد من ربطه بالاحساس كنقطة بداية ، أو بالرغبة وباللذة كنقطة بداية ونقطة نهاية • وفي كلتا الحالتين ينبغي أن نصل الى نوع من المادية ، اللهم الا اذا أردنا أن نبقى — مع كوندياك — داخل الحدود الوضعية •

وسنرى أن ورثة هذه الفسلفة يذهبون صوب المادية تارة ، وصوب الوضعية تارة أخرى ، وصوب نوع من الرومانتيكية العاطفية تارة ثالثة •

وفي نهاية القرن الثامن عشر ، تتحقق من جديد في كوندورسيه Condorcet روح الانسكلوبيديا (الموسوعة) في صورتها الخالصة ، لا في انحرافها المادي ، وافراطها في التركيب ، أو في بداية انحرافها في النزعة التحليلية عند كوندياك • ذلك أن كوندورسيه يعود الى فكرة دالمبير : « بقدر ما نعرف من علاقات أكثر بين عدد أكبر من الموضوعات ، نصل الى حصرها تحت تعبيرات أشد بساطة » • ولما كان اخلاصه لروح دالمبير أكثر من اخلاصه لغيره من الموسوعيين ، فقد أكد القيمة العليا للرياضيات ، كما أكد دور التربية ، شأنه شأن غيره من فلاسفة القرن الثامن عشر في جملتهم•

وفي الوقت نفسه نجده يلقي ضوءا متزايدا على عناصر الوضعية التي كانت متضمنة عند كوندياك وفولتير وديدرو ، فيقول:

« لا تستطيع الروح أن تستنفد كل وقائع الطبيعــــة أو حتى كل العلاقات الكمية • »

كل هذه الأفكار التي يدعو اليها دالمبير قد وضعت في خدمة فكرة التقدم غير المحـــدد ، وهي الفكرة التي تظهر لديه في أعم صورها •

أما مجموعة المفكرين الذين أطلق عليهم نابوليون تســـمية عجيبة ، هي«الميتافيزيقيون المظلمون» ténébreux métaphysiciens وأعني بهم الايديولوجيين les idéologues ، فيرتبطون بفلسـفة كوندياك أكثر من أية فلسفة أخرى • فقد عاب دستوت دي تراسي Destut de Tracy على كوندياك ــ تحت تأثير كابانيس ــ أنه لم يعرف أن في الروح الانسانية ملكات متعددة أخرى لا تقل تأصلا عن غيرها : مثل ملكة الارادة والحكم ، فضلا على ملكة الاحساس • وهو يؤكد ــ مثل كابانيس أيضا ــ أهمية الشعور بالمقاومة • وهو يوضح ــ من جهة أخرى ــ وحدة الملكات التي فصل بينها كوندياك أكثر مما ينبغي ، ويذهب الى أن كل كلمة انما هي حكم • وهكذا ، فكما أكمل كابانيس فلسفة القرن الثامن عشر بتأكيده للاشـــعور والغريزة ، فان دي تراسي قد أكملها بتأكيده للحكم وللنشـــاط العقلي •

وهنا أيضا نرى مدى صعوبة التصنيفات وزيفها هذا اذا نظرنا اليها على أنها أساسية ، اذ أن دستوت وكابانيس يمهدان الطريق لبيران الذي يعد استمرارا لهما وخصما في الوقت نفسه •

وقد تركت فلسفة القرن الثامن عشر هذه آثارا هاما في الأدب ، وتتضح هذه الآثار أولا في « هرمس » للشاعر شينييه Chénier حين يكتب قائلا :

« في السيول torrents الجارفة العميقة من النور الأبدى »
أو حين يقول :

« أرى الوجود والحياة ومنبعهما المجهول ،

في أنهار الأثير التي تسرى خلالها تلك العوالم جميعا • »

فهو انما يعبر عن فكر الفلاسفة • وكذلك لا يمكن أن يفهم استند ل الا بكوندياك والايديولوجيين • وحين يكتب جيراردى نرفال قائلا :

« تنمو روح خالصة تحت قشرة الصخور ، »

فانه يردد بذلك فكرة مماثلة لافكار ديدرو •

ولا ننسى أن جيفرسون Jefferson في معرض حديثه عن كتاب «عناصر الايديولوجية» لدستوت قال انه : « يأمل أن يصبح هذا الكتاب مرجعا لطلابنا ، ولرجال الدولة »• ويجمع توماس بين Thomas Paine روح الثورتين ، وهكذا لا نحس بتأثير القرن الثامن عشر في الأدب وحده ، وانما هو أصل من أصول الثورتين : الأمريكية والفرنسية •

***

تتبعنا التيار الذى يتجه من جاسندى وفونتنل الى كابانيس والايديولوجيين ، وهو التيار الذى سيستمر فيما بعد في مؤلفات لدانتك Le Dantec التى تجمع بين البساطة والروعة • ومع ذلك فقد كان بيرول Béru lle يعيش في عصر جاسندى ، كما أن كل حركة النزعة الانسانية المخلصة التي درسها الأب بريمون l'abbé Bremond كانت معايشة لفكر الاباحيين • وكما تعقبنا الحركة الأولى ، نستطيع أن نتعقب الثانية حتى روسو ومين دى بيران مارين ببواريه Poiret ذلك المتصوف الذى تابع في البداية

مدرسة ديكارت ، ثم أصبح فيما بعد تلميذا لبيمه Böeme وعارين كذلك بفنيلون Fénélon الذى كان يضع نفسه : «فى المجهول الالهى حيث يريد أن يفقد نفسه الى الأبد » ، أو على الاقل كان يضع نفسه هناك أحيانا • ومن المستحسن أن نذكر الى جانب اسمه اسم مدام جيون Guyon ، ذلك لأنه اذا كان تأثير فينيلون يتردد مرة أخرى عند مين دى بيران ، فان تأثير مدام جيون يتردد عند ذلك الفيلسوف الذى يمكن أن نعتبره ذروة هذا الاتجاه ، وأعنى به برجسون • ومن الملائم بلا شك أن نضع هنا اسم فوفنارج Vauvenargues الذى تركز تفكيره الاخلاقى على القلب ، والذى كان وارثا لبسكال وملبرانش معا ، وبطلا من أبطال نيتشه فى الوقت نفسه •

ولقد أدت قراءة كتاب « الروح » لهلفسيوس الى ابعاد جان جاك روسو عن الماديين ، فهو يقول : « ان الماديين يعترفون بوجود نفس للأحجار ، ولكنهم ينكرونها على الانسان • » أما كوندياك ، فيظل فى نظره تجريديا • فما يبحث عنه روسو هو الأصول الأولى • أما نحن فقد أفرطنا فى العلم ، ذلك أن شدة حرصنا على دراسة الانسان جعلتنا ــ بمعنى ما ــ فى حالة لا تسمح لنا بمعرفته ، فهو يريد العودة الى الطبيعة ، غير أن هذه العودة لن تجعلنا نصل الى المرحلة الأولى التى كنا فيها ، بحيث أنه يتصور مراحل ثلاثا ، وهذه الفكرة عن المراحل الثلاث التى يجب أن يمر بها الانسان كانت موجودة من قبل عند أفلاطون ، وسيكون لها تأثيرها على هيجل •

ويريد روسو أن يخلص الانسان « من ذلك الجهاز المرعب الذى هو الفلسفة » • فالقلب يصبح الآن المصدر الأكبر للبينة (كما هى الحال عند بسكال) وهو يؤيد ــ معارضا فى ذلك دولباك ولامترى ــ ضربا من البرجماتية الوجدانية (ليس المهم أن نعرف ما هو صادق ، بل ما هو نافع) • وهكذا يعطينا قسيس اقليم

سافوا هذا شعورا بأننا نوجد فى عالم نألفـــه ونرتاح اليه ، ولم يقذف بنا أو نضيع فيه • وهذا هو موضع الاختـــلاف بينه وبين بسكال •

ان الكلمة تقول لملبرانش : « لو كانت لديك فكرة عن نفسك، لما استطعت أن تفكر فيما عداها • » أما روسو فيكتب قائلا « كيف تكون لك نفس ولا تعجب بها ؟ » وهو يعبر عمـــا يمكن أن نسده تصوفا لديه فى كتابه « أحلام ســائر وحيــد » Rêveries d'un promeneur solitaire فهو يعانى : « مواجد ، وأفراحا لا سبيل الى التعبير عنها ، تذيبه ــ ان صح هذا التعبير ــ فى نسق الكائنات، وتجعله هو والطبيعة بأسرها شيئا واحــدا » • عندئذ يتحــدث الشعور باللامتناهى بصوت مرتفع غاية الارتفاع فى نفس روسو• « ان قلبى المنحصر فى حدود الكائنات يجد نفسه فى مكان أضيق من أن يسعه ، اننى اختنق فى الكون ، ولكم وددت أن أقــذف بنفسى فى اللامتناهى • »

وهو يبحث فيما وراء الطبيعة وفيما وراء نفسه ، وفيما وراء ذلك الاله الأبوى الذى يؤمن به قسيس سافوا ــ يبحث عن اله شبيه باله اللاهوت الســلبى ، ويكتب قائلا : « انه يفلت منى ، وروحي الحائرة لم تعد تشاهد شيئا » •

وقد أشرنا من قبل بكلمة الى الثورة الفرنسية ، ولكن كيف نفسرها ان لم نضع فى اعتبارنا نظرية « العقد الاجتماعى » التى بواسطتها ينقل الفرد سيادته الى الدولة ؟ ان فكرة الارادة العــامة عند روسو ، وهى الارادة التى لا يمكن ردها الى مجموع الارادات الجزئية ــ تفسر في الوقت نفسه وقائع كثيرة من الثورة ، كما كان لها تاثيرها على نظرية الفكرة Idée عند هيجل •

ولقد أوضحنا تاثير بسكال وملبرانش على روسو ، بيــد أن

روسو يعد نقطة بداية أكثر مما يعد نقطة نهاية . وخلفاؤه المباشرون مثل برناردان دى سـان بيير Bernardin de Saint-Pierre الذى كتب « مسرات الجهـل » Plaisirs de l'ignorance وفيدل Fidèle ولاهوته التجريبى ، لا يعطيان سوى فكرة محدودة عن هذا التأثير الذى يبسط جناحه فى مستهل القرن الثامن عشر على جميع البلاد .

والحق أنه ما من كاتب فرنسى ــ اللهم الا ديكارت ــ كان له حتى فى المجال الفلسفى تأثير أعظم من تأثير روسو .

وهو يعد من نواح كثيرة مستبقا لكانت ، اذ أثر عليه تأثيرا عظيما بتأكيده لأهمية الحكم ، وبتلك الكلمـة الصـغيرة يكون est التى هى علامة على نشاط الانسان ، وهى تفنيد لكل نزعة يقول بها كوندياك ، وبرفضه للمذاهب الأخلاقية التى لا تصـدر عن الفرد نفسـه ، وبتمجيده للضـمير ، تلك الغريزة الالهية ، وبنظرية المسـلمات postulats ، التى نجـدها ضـمنيا عنده ، والتى توسـع فيها كانت ، وبصياغته قبل كانت لفـكرة الاستقلال الذاتى autonomie اذ قال : « الطاعة للقانون الذى يضعه الانسان هى الحرية . » وهكذا نجد تأثير روسو أصلا من أصـول « نقد العقل الخالص » فى تأكيد هذا الكتاب الأخير لاستحالة رد « الحكم » الى شىء غيره ، كما أنه أصل من أصـول « نقد العقل العملى » فى الوقت نفسه .

وفضلا عن ذلك ، فان روسو أقرب الفلاسفة جميعا الى الشعور الخالص بالوجود . فهو يصف لنا تلك اللحظات التى نشعر فيهـا بمتعة وجودنا دون أن نشق على أنفسنا بالتفكير فيه .. فياله من تنوع فى الفلسفة الفرنسية ! لقد تأسست هذه الفلسفة على الفكر بديكارت ، وها هى ذى تقوم على حالة تكاد تكون غريبة عن الفكر .

وعلى حين أن ديكارت كان يقول : « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود » . فاننا فى تلك الحالات التى يصفها روسو نقول « أنا موجود لأننى لا أكاد أفكر ، بل يمكن أن نقول : لأننى لا أفكر » .

وما أبعدنا فى ذلك عن بسكال ، ما دمنا نجد لذة فى ذلك الشعور ! ولكن ، ما أقربنا الى فينيلون ! فلم يعد ثمة تسابق نشط فى داخل نفسى ، ولا وجود الا لحركة مطردة متصلة خارجية تبعث فى نفسى اتصالا أو استمرارا داخليا ... فما أقربنا حقا الى فينيلون وكذلك الى برجسون فى كتابه المعطيات المباشرة ، للوعى
Données immédiates de la conscience

كل ما فى الأمر أن الوصف يختلف ، فبـدلا من الالحاح على التدفق l'écoulement ينظر روسو الى هذه اللحظات على أنها نوع من الحاضر الأبدى ، الهابط من السماء الى الأرض ، فالسعادة تدوم أبدا « دون أثر للتعاقب » . وهنـا نحس « بشـعور الوجود » le sentiment de l'existence ، ونلمس أعماق النفس ، وبهذا يتأسس ضرب من التصوف الوجودى .

ومن الطريف أن نتنبه الى التنوعات التى أدخلت على «شعور الوجود » هذا عند سينانكور Senancour وكونستان Constant وعند شاتوبريان Chateaubriand حيث يصـطبغ بالكآبة مع ازدياد عمقه ، وعنـد موريس دى جيران Maurice de Guérin وسوف نتتبعه على الأخص عند الفيلسوف مين دى بيران .

وهكذا امتدت فى القرن الثامن عشر عقيدة ديكارت عن الأفكار

الواضحة المتميزة ، وان أصبحت في كثير من الأحيان سطحية الى حد ما ، وازداد من ناحية أخرى عمق بعض عناصر فلسفة خصمه جاسندي ، كما وسع روسو نطاق جوانب معينة من فكر بيرول وفينيلون (١) .

---

(١) أسس هيرودى سيشيل Hérault de Séchelles أخلاقا من الغرور الفردى . وضخم الماركيز دى ساد مفهومه القاسى حتى جعله مفهوما كليا ، وان عوضه من ناحية أخرى بأفكاره عن المساواة .

القرن التاسع عشر والقرن العشرون

عند « مين دى بيران » نبلغ قمة من قمم الفلسفة الفرنسية • ولقد تتبعنا تيارين يتجه أحدهما صوب كونديياك وكابانيس والايديولوجيين ؛ ويسير الآخر نحو فينيلون وروسو • وقد بدأ مئر دى بيران مقتربا من فكر كونديياك وكابانيس والايديولوجيين ، ولكنه اقترب أخيرا غاية القرب من فكر بسكال وفينيلون • فهو يقول : « ان فلاسفة القرن الثامن عشر لم يعرفوا الانسان » ، « التحليل يعمل على تبخير العاطفة » ، أما روسو فانه « يخاطب قلبى » ثم يأتى الرواقيون ، ويليهم لبينتس ، وفى نهايه حياته ، كان يقرأ ــ بوجه خاص ــ بسكال وفينيلون •

والحق ان القارىء يستطيع أن يهتدى الى عاطفة الوجود ــ منذ السطور الاولى من « اليوميات » ــ تلك العاطفة التى تحدثنا عنها بمناسبة الحديث عن روسو • « ان كل ما يمس الحواس يحمل الى

قلبي شيئا لا أدريه من العذوبة والأسى • فكم من عواطف مبهجة قد تعاقبت عليها ؟ ولو أنني استطعت أن أجعل هذه الحالة دائمة ، فأي شيء ينقص سعادتي ؟ »

ويرجع بيران الى مبادىء فلسـفة القرن الثـامن عشر لكي يستطيع أن ينقدها • فهو يعارض كونديياك الذى يرى أن كل شيء عقل ، حتى الغريزة ، كما يعارض روسو الذى يقول عنه دى بيران ان كل شيء بالنسبة اليه غريزة ،حتى العقل• والظاهرة التى تسمح له بكشف ثنائية (أو ازدواج) في داخل الحياة الحسية ، التى كانت تبدو شيئا بسيطا غاية البســاطة فى نظر لوك وكونديياك ــ هذه الظاهرة هى العادة • فالعادة تضعف الاحساسات ولكنها تشحذ الادراكات • وعن طريق العادة نتعلم أن نرى رؤية أفضل ، هذا اذا ضعفت احساسات النظر الأصلية ، ذلك لأن الجهاز الحركى هو الذى يمارس فاعليته فى الادراك ، ومن خلال هذا الجهاز تعمل الارادة •

والحق أن الاهتمام الذى أبدته الفلسفة الفرنسية فى القرن التاسع عشر بملاحظة العادة ، هو من السمات الغريبة لهذه الفلسفة فقد أسس عليها بيران ورافيسون ، بل بوترو وبرجسون ، شطرا كبيرا من فلسفاتهم •

ويرى مين دى بيران أن العادة تؤدى بنا الى شيء آخر غير العادة، هذا الشيء الآخر المختلف ، هو المجهود • والمجهود هو ما يسميه مين دى بيران بالواقعة الأولية للحس الباطن le fait primitif du sens intime ، ففى باطن ذلك الأنا الحقيقى الذى يتحقق فى المجهود ، نجد فكرتى العلة والجوهر • أما المذاهب القائلة بالأفكار الفطرية والاحساسات فانها تنحي جانبا المفاهيم الأولية أو تشوه طبيعتها، ذلك أن العلة والجوهر ليسا تجريدات ، وليسا أفكارا ، كما أنهما ليسا أشياء ، أو موضوعات من الخارج •

وتبين لنا ملاحظة العادة أنه ينبغي أن نحلل الفكر بطريقـــة تختلف تمام الاختلاف عن طريقـــة الايديولوجيين ، وإن كانوا هم أنفسهم ومعهم كابانيس قد مهدوا الطريق في هذه النقطة • فمن الواجب أن نميز في الفكر بين ما هو سلبي وما هو ايجابي •

فالايجابي ينقلنا الى ما وراء العضوى • ولقد كان كابانيس يقول : ان كل « مافينا عضوى • أما مين دى بيران فيقول : كلا ، هناك القوة فوق العضوية hyper-organique

ان فعل القوة فوق العضوية هو ما يوجد في أعماقنا ــ وبهذا المعنى كان هوبز على حق عندما قال لديكارت ان فكرة الجوهر فكرة مستعارة من المادة ، ونحن نستطيع على الاقل أن نطبق نقد هوبز على فكرة عن الجوهر غاية في السلبية • وبهذا المعنى أيضا يكون «كانت» على حق في معارضته لديكارت • ويقول مين دى بيران : « انني من أجل ذاتي » Je suis pour moi-même ولكنني لست في ذاتي en moi-même ، والخطأ الذى وقع فيه ديكارت كان هو خلطه بين هذين الأمرين •

والواقع أن فكرة الجوهر عند ديكارت ، وهي فكرة مفرطة في المادية ، هي التي تفسر لنا كيف أمكن الانتقال من فلسفته الى النزعة المادية ، تماما كما أن فكرة العلة عند ملبرانش وهيوم ــ تلك الفكرة التي كانت خيالية أكثر مما ينبغي ، ومصطبغة بصبغة ارادية وعقلية غير كافية ــ هي التي تفسر لنا اصطدامهما بمشكلة العلية • فقد ظن هيوم خطأ أنه ينبغي معرفة وســـائل تنفيـــذ شيء ما معرفة موضوعيـــة لكي نريد هذا الشيء • أما ملبرانش فقد أدرك ــ عن حق ــ أن الوعي لا يمكن أن يصير موضوعيا ، ولكنه أخطأ حين رأى في ذلك مظهرا للنقص في الوعي • وأما ليبنتس وكوندياك فقـــد وقعا ، على الرغم من تعارضهما الظاهرى الحاد ــ في نفس خطأ البحث

عن الهويات identités ، والرغبة في تأسيس علم جبر للاحساس وللقضية • فهل نقول ان « كانت » على صـــواب ؟ أجل ، انه على صواب في وقوفه ضد الافراط في النزعة الجوهرية عنـــد ديكارت وليبنتس واسبنوزا ، بيد أن مذهبه ، بصوره (صور الحساسية) ومقولاته ، ما برح مغرقا في التجريد •

لابد أن نتخلص اذن من أية فكرة مكانية عن الجوهر: «فالجوهر ــ مفهوما على أنه شيء سلبي ــ لا يوجد نمطه في الشعور ، كما أنه يفلت من وجهة النظر الباطنية • » ومهمة الفيلسوف هي أن يرى مم يتكون الشعور ، لا في مطلق الوجود الذى نفكر فيه ، ولـكن في مطلق الوجود المفكر •

فاذا تناولنا فكرة العلية رأينـــا أنه كما كان لديكارت ، وللبرانش بخاصة فكرة موضوعية أكثر مما ينبغى عن الجوهر ، فكذلك كان خطأ هيوم هو عدم اعترافه بما للشعور من ميزة فريدة هي ملاحظته لنفسه أثناء ممارسته لنشاطه • ولا شك في أننا لا نســـتطيع ، كمـــا يقول بيران ، « أن نكون صـــورة أو تمثلا représentation خارجيا للوسائل التى تستطيع بها النفس أن تؤثر في الجسم ، ولكن ألا يوجد شيء آخر الى جانب هـــذه المعـــرفة الموضوعية أو التمثلية ؟ ألا يوجد احساس بالوحدة والعلية ، أو ما يسميه هوايتهد عن حق « بالفعالية العلية » causal efficacy في مقابل « التلقائية البصرية » visual immediacy (أى المعرفة الموضوعية أو التمثلية) ؟ الحق أننا نظن أننا نستمع الى هوايتهد أو برجســـون ذاتهما عندما نقرأ بيران وهو يقـــول : ليس من الواجب أن يجـــول المرء بنظراته خـــارج ذاته ، أو أن يخاطب كل حاسة خارجية ، « وانما هناك نوع من الحـــدس الخارجي الذى يقوم بضرب من التجريد لكل علة فاعلة » ، هذا الحدس يهتم بالكم

لا بالموضوع ، ولا بالواقعة le fait • والواجب على عالم النفس الميتافيزيقى ـ على العكس من ذلك ـ أن يرتد ببصره الى الباطن • ففي المجال النفسي ، يتطابق الوجود والظاهر ، ولقد كان الخطأ الذى يؤخذ على هيوم هو أنه لم يفطن الى ذلك ، وأنه أضفى على تكرار الظواهر أهمية يفتقر اليها • فاذا رجعنا الى أنفسنا ، ألفينا أن هناك لحظة لا نستطيع فيها أن نقوم بمزيد من التحليل أو التفكيك ، وحينئذ نكون فى بساطة بازاء وجودنا •

والحق أن معظم الأفكار التى نسميها فطرية ـ كما أدرك ذلك ليبنتس ـ تأتى من الوقائع ، ولا أعنى بذلك فكرتى الجوهر أو العلية اللتين تحدثنا عنهما من فورنا فحسب ، بل أعنى أيضا أفكار الوحدة والهوية والوجود • أو لنقل ـ بعبارة أدق ـ ان الأفكار لا توجد فى جانب ، والوقائع فى جانب آخر • فبيران قد أنشأ نزعة تجريبية جديدة أكثر اتساعا ، تجد فيها أفكار العقل مكانا فى التجربة ـ مأخوذة بمعنى أشمل ، أو هو قد أنشأ ـ اذا شئنا ـ نزعة عقلية من نوع جديد تنبثق فيها الأفكار من الوقائع، النفسية والميتافيزيقية معا • وهكذا يناضل مين دى بيران دائما ضد الأنطولوجيين والتجريبين فى آن واحد •

ان الجهد والتوتر الدائم ، حاضر فينا على الدوام • وليس الجهد نفسه شيئا بسيطا ، اذ أنه فى جوهره علاقة ، وهنا نجد أنفسنا ازاء فكرة من أعمق أفكار مين دى بيران ، فالجهد علة لبعض النتائج الحادثة فى الجسم العضوى • وهناك طابع مباشر يتسم به التمييز بين الذات والحد le terme ، وكذلك يتسم به اتحادهما فى الوقت نفسه ، ولقد كان من العبث أن يتهكم « تين » على هذه اللغة فيما بعد : فها هنا رأى عميق وجديد . ان الجهد المراد voulu لا ينفصل عن المقاومة العضوية

والشعور بالأنا لا ينفصل عن الادراك الحسى المباشر للجسم بمعناه الصحيح .

بل ان بيران يلقى أضواء عجيبة على ظاهرة التمثل أو الاستيعاب appropriation التى يتؤم فيها ما فوق العضوى بتمثل (أو استيعاب) العضوى فى ذاته ، كما تتلاءم نفسنا حين يقظتها مع جسمنا ، ان صح هذا التعبير .

ومن ذلك ينتهى الى النتيجة الآتية : « ان كل المصاعب التى يصطدم بها العلم تأتى من أننا نريد دائما أن نتصور بطريقة مجردة ما يعطى لنا — على نحو أولى وضرورى — فى علاقة . وهذه العلاقات لا تنحل أبدا الى حدود منفصلة يمكن أن نتصور الواحد منها بأكمله دون الآخر . » والحق أننا لا نستطيع أن نعرفها الا بالشعور ، فمن المستحيل اذن أن نحل مشكلة اتحاد النفس والجسم حلا موضوعيا . وهنا يعود بيران الى نظرية ديكارت فى اتحاد النفس والجسم ، بما فيها من مفارقة وعمق .

وهكذا فان ميتافيزيقا « مين دى بيران » هى فى جوهرها ميتافيزيقا للوعى ، وهذا ماتدل عليه جملة كهذه : « أن عيبا واحدا يشوب فلسفة كوندياك وميتافيزيقا الألمان ، وأعنى به أنه ليس من الضرورى بالنسبة الى العقل أن يعرف نفسه لكى يوجد بوصفه عقلا . »

وعلى هذا لم يتبق أمام مين دى بيران سوى أن يتابع تأمله فى سراديب النفس ، مختلفا فى ذلك أشد الاختلاف — كما هو واضح — عن الفيلسوف كما تصوره كوندياك ، فهو : « هادىء ، مستغرق فى أعماق الوجود وأعماق الأنا » .

ويؤكد بيران — شأنه فى ذلك شأن باركلى وبرجسون — أخطار اللغة فيقول : ان قوالب اللغة تضلل فى كثير من الأحيان ،

وما من شاهد أبلغ دلالة على قصور اللغة من تلك الاقصوصة القصيرة التى يوردها فى يومياته عن لحظة مرت به فى أمسية ٢٥ نوفمبر سنة ١٨١٧ : « فى اليوم الخامس والعشرين أمضيت الأمسية عند الأب موريليه . ودارت مناقشة سيكلوجية ، وعلى حين غرة سألنى صديقى العزيز « ما الأنا ؟ » فلم أحر جوابا . اذ ينبغى أن يتخذ المرء لنفسه وجهة النظر الباطنة للوعى ، واذ يتمثل عندئذ تلك الوحدة التى تحكم على جميع الظواهر على حين تظل هى ثابتة دون تغيير ، فانه يدرك الأنا ، ولا نجد ما يدعو الى السؤال عن ماهيته . »

ويناظر التصور الذاتى للعلية فى المؤلفات الأخيرة لمين دى بيران على الاقل تصور ظاهرى phénoméniste للعلية فى العالم الخارجى ، ذلك انه « لما كان مبدأ العلية ذاتيا بطبيعته دائما ، فلا بد أن يترتب على ذلك انه لا يوجد الا بوصفه عنصرا متنافرا فى كل تجمعات الموضوعات ، او بالأحرى لا يستطيع ان يندرج بأية طريقة كانت فى تصنيفات الظواهر المماثلة ، ولا فى أى صورة من صور الحسابات العددية التى تعبر عن قوانينها » . ويبين مين دى بيران كيف ان البحث عن العلل فى الفزياء لا يختلف فى جوهره أبدا عن العملية التى نقوم فيها بتكوين الفئات des classes

ولقد استبق مين دى بيران الفلسفة الحديثة فى مسألة أخرى كان فيها متأثرا بأفكار روسو ، هى انه يؤكد — كما يؤكد شيلر وهوكنج وعلماء الاجتماع — ان الأنا لا يمكن ان يفصل عن « الأنوات » الأخرى . « ففى كل علاقة انثربولوجية ، لا يمكن أن يرد أى فاعل agent الى فرديته . وما يعرفه أو يشعر به نفسه ، يعرفه مع شخص آخر ، أو من أجل شخص آخر . » وثمة قوة نفسية متوسعة فى ، تجعلنى انا ومن يماثلنى شيئا واحدا . وثمة تعاطف بدائى ، معاصر للوجود الفردى .

وقد كان على مين دى بيران أن يتساءل عن الكيفية التي تتخذ بها الافكار التي نستعيرها من ملاحظة الأنا ـ كفكرة العلية وفكرة الجوهر ـ قيمة شاملة . وفي رأيه أن هذا نتيجة لما أطلق عليه اسم نسق المعتقدات الذى نتصل عن طريقه بالمطلق . وبما أسماه « كانت » أفكار العقل . ومن هنا أيضا كانت أخطاء الميتافيزيقيين الذين يخلطون بين الأنا الذى هو الذات النسبية القائمة بالمعرفة ، وبين النفس التى هى الموضوع المطلق للاعتقاد.

وهناك علاقة بيننا وبين الأنا الدائم فينا ، أو بيننا وبين أنفسنا . وقد كتب مين دى بيران عام ١٨١٧ قائلا : « ان مطلق وجودى الدائم حاضر بالنسبة الى دائما ، والا ما استطعت أن أحكم على ما يعترى وجودى الظاهرى من ضروب التغير . وحضور هذا المطلق الثابت هو ما ينبغي أن يحمل العزاء الينا . » ولكن ما هذا المطلق ؟ « من المحال أن نقول ما كنهه . فالله وحده هو الذى يشعر به ويراه . » بيد انني أعلم على الأقل أن لدى قرارا fond من الافكار هى ، وان تكن كأنها مكبوتة في هـذه اللحظة ، الا انها مع ذلك ليست أقل واقعية .

وبهذا النسق من المعتقدات نتمكن من تأكيد العالم الخارجي. ولكن بهذا النسق أيضا ـ نستطيع أن نؤكد كما رأينا لتونا ـ ما يسميه بيران بالأنا الباقى ، وبالتالى نتصل بالله : « الله ، الأنا ، الواجب : هذه هى المطلقات الثلاثة التى يرفعنا الشعور الدائب بها أو التأمل لها فوق مستوى الاحداث جميعا . » وهكذا تتكشف أمام أنظار بيران حقائق ثلاث معقولة ودائمة تناظر مسلمات كانت ، وينتهى الأمر بنزعته الكنتية الى نزعة صوفية ، والى تأكيد عال يستوعب بدوره نزعته ويدمجها في داخله ويتسامى بها .

وتناظر سيكلوجية الجهد هذه ، التى هى الفكرة الرئيسية

عند بيران ـ كما نتصورها عادة ـ أخلاق الجهد morale de l'effort فهو يقــول : « ينبغي أن نعرف ما هو حر فينـــا ، وما هو ارادى فينا ، ونرتبط به وحده ، » وهو يذكر في سنة ١٨١٧ أن الارادة كثيرا ما تركت جانبا • ويقول : « أن الانســـان الأخـــلاقى يتطلع الى ســــكينة النفس عن طريق انـــكار الجسد وكل الانفعـــالات العضـــوية • » ويؤكد فى سنة ١٨١٩ أن هناك أفعالا هى نتـــاج لقوتنا الخاصة • ونحن أحرار فى أفعالنا ، أحرار فى عواطفنا الى حد ما • وفى يونيو سنة ١٨٢٠ كتب أيضا يقول : « أن وجهه النظر الصوفية التى تقضى على القوة أو التى تضعها كلها فى الله تلغى الجوهر مع الأنا » •

ومهما يكن من امر فاننا نرى الى أى حد كان فلاسفه القرن السابع عشر على خطأ فى نظر بيران حين جعلوا من الارادة والرغبة شيئا واحدا ، او حين ادمجوا الاولى فى الثانية • وهذا ما يفسر المناقشة العجيبة التى دارت بين مين دى بيران واستنندال فى عام ١٨٢٢ (١) ، تلك المناقشة التي لم يلتفت اليها أحد حتى الآن « انكر اليوم شخص أعتقد أنه ذو نزعة روحية امكان وجود طاقة بلا انفعال ، ويبدو أنه قد ربط هاتين الفكرتين برباط وثيق • أما أنا فقد دافعت بقوة عن الراى القائل بأنه حيث يكون ثمة انفعال طاغ ، لا تكون هناك طاقة حقيقية على الرغـم من كل الدلائل التى تشير الى بذل أعظم قدر من القوة ••• فالطاقة الحقيقية تستخدم فى مغالبة الانفعالات ، لا فى الانقياد لها • »

هذا هو الجانب من مذهب بيران الذى يعد أكثر جوانب مذهبه شيوعا ، وذلك على الأقل فى أشد سماته سطحية • ولكننا رأينا فعلا كيف أنه يتجاوز بنظريته فى العلاقة ـ حتى فى ذلك

(١) أو لعلها مع شخص آخر يشابه تفكيره تفكير استنندال شبها قويا •

الشطر الكلاسيكى نسبيا من فلسفته ـ التأويلات التى فسرها بها أصحاب النزعة التلفيقية les éclectiques

وفضلا عن ذلك ، فمن هذا الجانب ينطوى على جانبين آخرين . فمن وراء الجهد والوعى توجد منطقة بأكملها ترتبط بها ، منطقة مظلمة ، فطن اليها ملبرانش حين تحدث عن أحوال النفس modalités de l'âme والواقع أن أحوال النفس هذه تمتزج باستمرار ـ عند مين دى بيران ـ بأحوال الجسم . وعن طريق التأثرات البسيطة ندرك تعايش الجسم مع النفس ادراكا مباشرا . ولا شك فى أن كل ما يفعله بيران فى هذا الصدد هو أن يتابع بعض التلميحات التى نجدها عند دستوت Destut وبونيه Bonnet وآنسييون Ancillon وبوفون Buffon وبوردو Bordeu وديدرو ، ولكنه يتابعها مع ذلك فى أصالة قوية . الا يكتشف فى نفسه تلك التأثرات البسيطة ويحللها بأقصى ما تقبله من تحليل .. فها هنا مجال كامل للحياة وواقعة أولية تامة فى نوعها . والى هذه الواقعة استرعى كوندياك الانتباه حين وصف تمثاله الذى استحال الى عطر وردة . بيد أنه لم يكتشف أن ذلك ما هو الا مجال من المجالات الموجودة داخل نفوسنا ، وهو مجال تندمج فيه ، مع ما هو خارجى عنا . وهذه الظواهر المتغيره للحساسية الداخلية يجدها الأنا وكأنها جاهزة تماما ، ويرتكز الشعور على أساس من هذا اللاشعور الأولى inconscient préalable . وهكذا توجد فينا أشياء كثيرة خارج حدود الملكة الادراكية الواعية .. أشياء تنتسب الى البساطة الطبيعية ، كما رآها مونتانى وروسو وكذلك ليبنتس .. أشياء خارج نطاق الأنا والشخصية . ففى هذا شىء أشبه بالاغتراب العقلى التلقائى ، وفى كل يوم يأتى النوم فيغوص بنا ـ من جديد فى ذلك المجال الذى يصعب تحديده ـ

مجال أشـد أحـوال الوجـود روغانا . أنها حالة من حالات الحساسية الحيـوانية يكون فيها الانسـان بسيطا ، وان يكن مزدوجا بوصفه انسانا .

فى تلك الحالات يختفى الزمان والمكان ، أو اذا كانا حاضرين ، فانما يكون ذلك على صورة مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التى ندركها عليها عادة . ويقول بيران ان المكان أشبه بالوجـه الذى لا ينفصل عن الحد اللاعضوى terme inorganique الذى تمارس عليه الارادة ، والزمان هو نفس الصـورة التى يوجد عليها الأنا حين يلاحظ نفسه أثناء الفعل . ويبدو أن ما اكتشفه مين دى بيران هنا هو المكان المعيش (*) l'espace vécu كما تصوره هوايتهـد ، والزمـان المعيش le temps vécu كما تصـوره برجسون فهو منذ عام ١٨١٣ يقول : « ان الامتداد المتشـكل المرئى المتحرك المتلون او المحسوس ليس هو الماهية الحقيقية لما نسميه الجسـم ، كما يعتقد العامة » .

ونتيجة لذلك فقد استطاع (أى بيران نفسه) أن ينشق مرة أخرى على المذاهب المثالية والمذاهب الحسية فى نفس الآن ، وذلك بأن جعلنا نشعر بهذا المتصل المقاوم الذى أعطى لنا ليبنتس أحيانا فكرة عنه ، والذى لا يمكن رده الى أحد نوعى المذاهب السابقين (أى المثالية والحسية) .

ان هناك لحظات تجد فيها الروح نفسها مختلطة بالجسم ، كما أن هناك حالات من الحساسية تعد غريبة على حساسيتنا الخاصة . « ان كل ما يحدث داخل الانسان ينتمى حقا الى الانسـان بأكمله ، أعنى الجهـاز العضـوى الحى الذى تشـيع

(*) تشيع ترجمة هذا المصطلح بكلمة « المعاش » ، وهى خطأ ، وصحتها «المعيش» .

فيه الحياة قوة خاصة . ولقد كان الخطأ الذى وقع فيه ديكارت هو انه فصل عن نفسه أو عن الشعور الذى لديه بفكره كل ما يتصل بالجسم . »

وترتبط هذه الملاحظات جميعا بالآراء السيكلوجية لمين دى بيران كما نكتشفها فى « اليوميات » . ذلك لأن فيلسوف الجهد قد وجد نفسه مضطرا الى هذا الاعتراف : « اننى أفتقر الى فكرة ثابتة ، والى هدف . » (٢٨ ابريل سنة ١٨١٨) و «أن كل مبادىء فعلى توجد خارجى » (٢٤ ينساير سنة ١٨٢١) . وعندئذ كان فيلسوف الأنا نادرا ما يشعر بأنه انا . «لقد كنت مرحا ... قرير النفس ، انسانا جديدا تمام الجدة .. ولا بد أن تترك لى هذه الأمسية بعض الذكريات ... فهى الأمسية الوحيدة الطيبة التى كنت فيها نفسى منذ مدة طويلة ... » (٢٨ أبريل سنة ١٨١٨ . والأغرب من ذلك أيضا ، أن يتكدر ــ وهو الذى يبدى كل هذا الاهتمام بالجهد ــ حين يشعر بأنه « فى حالة اجهاد » « لقد حيل بينى وبين كل شىء اذ أننى فى حالة اجهاد » (٧ مارس سنة ١٨١٨) . والحق أنه ينبغى أن نفهم ما يعنيه : فهو يعنى حالة الاجهاد الذى لم يتوجه النجاح . ولكن فلنلاحظ الفقرة التى كتبها فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٢٣ حيث يعود الى تناول هذه الفكرة والى تعميقها . فثمة حالة من السعادة لا ارادية تماما ، خالية من الجهد ، ومن أية عملية ايجابية ، ويشيع فيها احساس سلبى ، وحالة من الرضى تأتى نتيجة لسلسلة من الافعال التى نكدح من أجل الجمع بينها . والشىء الذى يبحث عنه بمزيد من اللهفة هو ومضات من المتعة والنشوة يتذوقها دون مجهود (٩ أكتوبر ١٨١٧) .

والواقع أن واضع نظرية المجهود أحس بوجود ما يقاوم المجهود أكثر من أى شخص آخر سواه ، وواضع نظرية النشاط

الإيجابى قد مارس بلا انقطاع فى نفسه تجربة السلبية . « ماذا فعلت لكى أضع نفسى فى تلك الحالة الجسمانية والمعنوية الطيبة التى كنت عليها فى الأيام السابقة ؟ وماذا فعلت حتى أضعتها ؟ » (٢٤ أكتوبر سنة ١٨٢٢) وقد لاحظ منــذ سنة ١٧٩٤ أنه : « لكى أحصل على ذلك الاحساس اللذيذ ، وعلى هذه السكينة الباطنة، أشعر أننى لا أملك حيال ذلك شيئا ، وأن نشاطى معدوم ، وانى سلبى تماما فى مشاعرى ، وانى لست أبدا ما أطمح أن أكونه » . وهو يقرر أن تلك اللحظات السعيدة ترتبط بحالة من حالات وجوده المستقلة تمام الاستقلال عن ارادته . « لقد وجدت دائما اننى كنت مســـوقا بمبدأ لم تكن لى ســـيطرة عليه قط . » ويذهب الى حد القول فى ١٨١٦ : « هذه التجـارب الباطنة المتأصلة تجعلنى أشك فيما اذا كان هناك تأثير حقيقى للارادة على الأفكار أو على الادراكات الداخلية ، أو فى أن الارادة حين تمارس على الكائن العضــوى لا تكون نتيجتها الوحيــدة هى كبت هذا التأثير العضوى ، وبالتالى ازاحة العقبة التى تقف فى وجه حدس الروح » وعلى هذا لا يكون للارادة سوى فعل سلبى . وهو يكتب عام ١٨١٨ قائلا : « ربما كان تكوينى أكثر ملائمة من تكوين أى شخص آخر لادراك خضوع الحالة الاخلاقية لحالة جسمية معينة ... فالجهــود التى تبذلها النفس لا تغير شــيئا من حالتها الأساسية فى الادراك الواعى أو فى الشعور . »

ولهــذا الرأى نتائج أخلاقية ، فقد كان يظن أول الأمر أن المشكلة هى قبل كل شىء اضعاف سيطرة الانطباعات التلقائية دون انقطاع . ولكنه بدأ منذ عام ١٨١٧ يفطن الى أنه اذا كان ما تقدمه الفلسفة الرواقية من عزاء ونصح يصلح للأقوياء ، فانه لا يمكن أن ينطوى على اى عون للمذنبين التعساء . وكتب سنة ١٨١٨ قائلا : الآن أدرك أنه من العبث السعى وراء السكينة بالجهود التى تبذلها الارادة .

لقد أدرك اذن أن ضروب النشوة التى يمكن أن يصل اليها ولحظات السعادة التي يمكن أن يمر بها ترتبط بضعفه . « ان ضعفى هو الذى يجعلنى أشعر ـ بصورة أفضل ـ بتأثير روح ليست هى روحى » . والواقع أن القرار السلبى للنفس الذى اكدناه من فورنا لا يمكن التغلب عليه الا بحالة سلبية أعلى . فوجود تلك الحالات الغامضة العنيدة التى تقاوم الارادة كما تقول بها الرواقية هو الذى يؤدى به الى ادراك حالات أعلى . فهناك فوق السلبية الأدنى ، وفوق الفاعلية (الايجابية) توجد منطقة ثالثة يمكن أن نسميها منطقة السلبية الأعلى passivité supérieure « هنا يمكن للمذاهب الفسيولوجية واللاهوتية ـ مهما بدا من تباعدها وتعارضها ـ أن تعود الى الانضمام فى فكرة واحدة هى فكرة قوة مستقلة عن ارادتنا ، قوة تعمل على تغييرنا على الرغم منا ، وتتوقف عليها سعادتنا وتعاستنا ، بل هى التي تصنع وتحقق فينا أو فى جسمنا كل ما تقرره الارادة » (١٨٢١) . هذه التعبيرات تعيد الى ذاكرتنا تفصيلات معينة من فلسفة ملبرانش . بيد أن مين دى بيران يعتقد ـ على خلاف ملبرانش ـ أن نزعات حساسيتى يمكن أن تصعد بى الى الله ، كما تستطيع القوة الالهية ـ من جهة أخرى ـ أن تتيح لى التغلب على بعض تلك النزعات .

واذا كان من العسير غاية العسر الاتصال من مدرج المجهود الواعى بالمدرج الأعلى ، فانه توجد على النفس من ذلك ـ اتصالات مباشرة بين المدرج الأدنى ـ الذى تنبهنا اليه من فورنا ـ وبين المدرج الأعلى الذى سنحاول استشفافه . وانا لنجد أولئك الذين يملكون موهبة التنويم المغناطيسى يعرفون أسرارا معينة تستطيع بها نفس معينة أن تتصل مباشرة بنفس أخرى ، وكذلك الحال عند الصوفية بوجه خاص . « بيد أن هذا كله ما برح غامضا » .

على أن الله هو السند الذى نرتكز عليه : « فالانسان فى حاجة الى سند خارج ذاته » . وعلى ذلك فان الهدف الذى يضعه مين دى بيران ، فيلسوف الوعى ، نصب عينيه هو ايجاد رابطة بين القوى الغامضة للوعى الأدنى infra-conscience « أن كل ما فى الانسان من خير وسمو ، يأتى من أعلى ، وليس من صنعه » . فمبدأ المجهود أو الوعى فى المجهود يصدر عن « قوة أخرى » (١٨٢٠) . وهو يقول فى عام ١٨٢١ : « ينبغى أن يضع المرء لنفسه هدفا ، ونقطة ارتكاز خارج ذاته ، وأعلى من ذلك لكى يستطيع القيام برد فعل على تغيراته الخاصة » (١٨٢١) . مثل هذه العبارات تبدو قريبة غاية القرب مما انتهى اليه فكر برجسون فى ختام حياته .

وهنا يلتقى أيضا بفكر ملبرانش : « فى هذا الصراع تبذل النفس مجهودا للرؤية ، ولكنها لا ترى ، وليست حرة فى أن ترى ، وانما هى حرة فى بذل المجهود فحسب » (١٨٢٣) .

وهو يتجه فى الوقت نفسه صوب ضرب من الواقعية الميتافيزيقية شبيه بواقعية ملبرانش أو بواقعية القديس أغسطين أو فينيلون : فاذا كان من الحق أن المجهود ليس الا سلبيا ، أعنى أنه ليس الا مجهودا نرفع العقبات « فلا بد أن تكون علة هذه الحدوس أو نتيجتها دائما شيئا واقعيا كالضوء » . « والأفكار أو التصورات العقلية الماثلة أمام الأنا ، يراها فى ضوء باطن فيه ولكنه ضوء لا يصنعه ، وانما يوجد فيه دون أن يكون هو ذاته » . وهذه النزعة الواقعية تحتل مكانا فى واقعية أعم . « فالأنا لا يصنع الضوء الحسى الذى يشاهده ، ولا يصنع الأصوات التى يسمعها ، وكذلك لا تصنع النفس الأفكار المتعلقة بالاشياء » (١٨٢٠) .

وهو يصف فى سنة ١٨٢٣ ـ على نحو أقوى من أى وقت

مضى ـ نشاط روحنا ونشاط الموضوع : « عندما ننقب فى باطن الحقيقة لكى نتغلغل فيها ، تنقب هى أيضا فى باطننا لكى تدخل فى حوزة نفسنا » .

وكما توجد لديه نظرية فى الأخلاق ، تقابل نظريته فى المجهود ، فكذلك توجد أخلاق اخرى تقابل نظريته فى اللامجهود non-effort . فهو يحاول أحيانا التوفيق بين الرواقية والمسيحية فيقول فى عام ١٨١٩ : « نحن نستخدم الأفعال التى توجد فينا والتى تعتمد على ارادتنا لكى نثير مشاعر لا تعتمد عليها مباشرة ، وهذه المشاعر المثارة تضفى بدورها على الافعال الارادية أو العقلية طاقة وثباتا لا يوجدان فيها » وكتب فى عام ١٨٢٠ قائلا : « قد يكون الطريق مختلفا عند كل من ماركس أوريليوس وفينيلون ، غير أن نزوع النفس الذى يريدان بلوغه واحد » .

ولكنه يتخلى تماما عن الرواقية فى أحيان أكثر . « ثمة شىء وراء الاستسلام résignation والصبر والسكينة ، هذا الشىء هو حب الألم ، والمسيحية هى وحدها التى يمكن أن تقودنا الى هذا الحب . » وهكذا تفتحت أمام عينى مين دى بيران منذ ذلك الحين آفاق جديدة فقال : « ينبغى أن يعتبر الأنا نفسه بالنسبة الى الله بمثابة ما يكونه هو ذاته بالنسبة الى الجسم » . فيجب أن يترك نفسه ليدخل فى حوزة الله ، وأن يشاهد فى نفسه مولد ما يطلق عليه بيران لفظا يذكرنا باستندال وأن كان يتخذ عند الاول معنى آخر ، وهذا اللفظ هو « المشاعر السامية » (١٨١٩) des sensations sublimes

هانحن أولاء قد بلغنا المدرج الصوفى ، وهنا يحدثنا بيران عن تلك العمليات التى تجرى فى أعماق النفس دون أن تدرى عنها شيئا .

فلأنا الذى كان بيران محلله وواضع نظريته ـ يحتل مكانه بين حدين : « وعلى هذا النحو تتلاقى الأضداد » مادامت أدنى درجة وأعلاها تتصفان بانعدام الأنا فى الحالة الاولى وانكاره لذاته فى الحالة الثانية . وفى ختام هذا العام نفسه (١٨١٨) نستمع الى هذه الصيحة المؤثرة : « ان حضرة الله تهيىء لنا دائما خروجا من انفسنا ، وهذا ما ينبغى علينا . ولكن كيف أوفق بين ذلك وبين نظريتى النفسية عن الأنا ؟ » وفى ديسمبر سنة ١٨٢١ ينتهى الى أن الحياة الثانية للانسان ، التى هى حياة الوعى والمجهود لا يبدو أنها تعطى له الا لكى يصعد الى هذه الحياة الثالثة . وحين يتحدث الينا بيران عن العبقرية ، عن الجنى الذى يغير النفس وينيرها بشعاع الألوهية ، لا نشعر اننا بعيدون جدا عن نوفاليس Novalis

والحق أن المرء ليلمس ثراء هذا التصور الانثروبولوجى الذى لا تنفصل فيه النفس عن جسدها أو عن أشباهها ، أو عن مجهودها الخاص ، أو عن الله .

كما نرى أيضا كيف يمتزج فى هذه الفلسفة تأثير كونديلاك بتأثير ليبنتس ، وتأثير القديس أغسطين وملبرانش ، وفينيلون بتأثير روسو ، وبونيه والرواقيين وكانت ، وكثير من المفكرين الذى هم أقل من ذلك شهرة مثل أنجل Engel وآنسيبون Ancillon

وقد سبق لنا ، ذات مرة ، أن ذكرنا اسم برجسون فى معرض الحديث عن بيران . وهذا شىء (لا غرابة) فيه على الاطلاق . فبيران ، مع مونتانى وآمييل وبروست ، من الكتاب الذين كانوا خير من أدرك ما تتسم به الحياة الباطنة من سيولة وكونها ، « سلسلة من اللحظات المتنافرة التى تخلو من كل ثبات ، وهو يشبهها بأمواج نهر : « اننى لا أستطيع الاحتفاظ بأية صورة ثابتة » (١٧٩٤) .

ولقد رأينا كيف عجز عن تعريف الأنا ، ذلك لأن المرء قد يستطيع أحيانا أن يرى الأنا ، ولكنه لا يستطيع تعريفه « لقد أتاني حدس قوى ببعض حقائق الوعى التى تفلت فى الحالة العادية من العقل الاستنباطي discursive والتى لا تستطيع الأقوال التعبير عنها ، أو تخفيها بدلا من أن تظهرها » (٢٨ يناير ١٨٢٣) . وكان قد كتب فى سنة ١٨١٦ قائلا : « توجد فى الوعى وفى أعماقه أحوال وعمليا تباطنة لا يستطيع أن يعرفها ، أو من المحال عليه أن يقدم لها تفسيرا لأنها قريبة منه كل القرب او لانها كامنة فى نسيجه ... فمن ذا الذى يعرف كل ما يقدر عليه التأمل المركز ، ومن أدرانا ، فقد يكون هناك عالم جديد باطن يمكن اكتشافه ذات يوم على يد مكتشف ميتافيزيقى من طراز كولمبس ، وهو يقول أيضا ان هذا العالم لا سبيل الى التعبير عنه فى جوهره ، وما أكثر درجات العمق ، ووجهات نظر الانسان الباطن ، التى لم يتعرض لها أحد بعد . وهو يقول أيضا ان الحدس الخاص للانسان هو وحده الذى يستطيع أن ينفذ الى باطنه (٢٨ أكتوبر سنة ١٨١٩) . وهو يعتقد أن لحدس النفس هذا صلات بالفريزة الحساسة تزيد على صلاته بجهود العقل الاستنباطى (أكتوبر سنة ١٨٢٣) . ففى هذا الحدس نعثر على الحقيقة . « اذا كنا فى حاجة الى الحقيقة قبل كل شيء فينبغى أن نلتمسها فى مظانها ، أعنى فى أقرب المنابع وأالـ .قها بنا » (يونيو سنة ١٨٢٣) . ولكى نعرف الحقيقة لا محيد أن نقوم بعزل هذا الصنف من الانسان الخارجى الذى يخلقه المجتمع فينا (٢٨ اكتوبر ١٨١٩) ، « فالحياة الاجتماعية هى التى تفسد كل شيء » (أكتوبر سنة ١٨٢٣) ، ولابد من أن ندع التأمل والتفكير المقالى جانبا . ولابد أيضا من أن ندع جانبا أعضاء الحس لأن هذه الأعضاء — كما قال ديكارت ، وكما قال برجسون أحيانا —

تؤذي العقل وتطمسه . وجميع الأشعة التى تأتى من الخارج لا تفيد ألا فى طمس النور الخاص الذى يحمله الانسان الباطن فى نفسه . ونستطيع هنا أيضا أن نؤكد مدى تعلق بيران بظواهر الإستشفاف télépathie ، وكيف يبحث بخاصة عن نقطة ارتكاز خارجة عنه وأعلى منه ، وكيف أراد تكرايس دراسة للبحث فى سبب المشاعر الصوفية ، فهذه الأخيرة بالنسبة اليه أعظم مشكلات علم الانسان وأصعبها . وأخيرا ، فان حياة التصوف فى نظره ـ كما هى فى نظر برجسون ، ليست حياة تأمل ، بل حياة فعل .

وربما استطعنا تفسير أوجه الشبه هذه (بين بيران وبرجسون) جزئيا عن طريق اشتراكهما فى التأثر بروسو ، مثلما نستطيع تفسير قدر معين من التقارب بين بيران وبين شوبنهور عن طريق اشتراكهما فى التأثر بفكر بيشا Bichat كذلك فان تأثير روسو هو الذى يستطيع أن يفسر أيضا تأكيد بيران للوجود existence الذى تحدثنا عنه منذ البداية . فالدهشة ازاء وجوده هى أساس تأمله (يوليو سنة ١٨٢٣) ، وهو يصف لنا أحيانا شعورين مختلفين بالوجود ، أحدهما حزين مؤلم ، والآخر سعيد ، وأحيانا أخرى يوصلنا الى شعور بالوجود يمكن أن يكون سعيدا بذاته على عكس مايذهب اليه شوبنهور (أبريل سنة ١٨١٥) . بيد أن الشعور الأليم بالوجود هو الذى يظهر فى أغلب الأحيان ، وعبثا يحاول أن يجد لونا من السعادة فى الشعور بالوجود ، فلا يجد سوى شعور مباشر بالوجود الأليم (١٧ مايو ١٨١٧ ، أبريل ١٨١٨) .

وأخيرا فسوف نستبقى من دى بيران ذلك التأكيد للعلاقة مباشرة مع الخارج ، وهو تأكيد قلما نجده لدى الفلاسفة الفرنسيين ، ولكننا حين نجده عند شخص كديدرو أو بيران

اوكونت فانه يجعل منهم أسلافا مستبقين لبعض من اطراف واهم الأفكار فى الفلسفة المعاصرة .

وفى رأينا أن ثمة اسمين تتمثل فيهما المبادىء المميزة لفكر القرن التاسع عشر ، وأعنى بهما اسمى مين دى بيران وكونت. فكونت هو الذى سيرتبط به الى حد ما فكر تين Taine ورينان Renan ، اما الأول فبه ترتبط تلك السلسلة المتألقة من الميتافيزيقيين الفرنسيين الذين يمكن القول انهم يبلغون قمتهم عند برجسون .

وليس من شك فى أن أعظم الفلاسفة فى مستهل القرن التاسع عشر هو مين دى بيران . ومع ذلك فهناك الى جانبه مجموعة من الفلاسفة يمثلون لحظة احتفظت فيها الفلسفة الفرنسية بحيويتها ، منهم آمبير Ampère الذى انتقد « الهوية المضحكة » لكى يكشف لنا ، على نحو أفضل ، عن الطابع المميز للحكم ، واكد — قبل رسل وبيرى Perry — استقلال العلاقات عن الحدود ، ووضع نظريته فى المبادىء العقلية ، وهى النظرية التى كان لها تأثيرها على « نسق المعتقدات » كما تصوره بيران. ومن هؤلاء الفلاسفة أيضا روايبه كولار Royer-Collard الذى وضع فى مقابل فلسفة الحس فلسفة الادراك الحسى والمبادىء العقلية ، وجوفروا Jouffroy الذى عرض علينا تأمله النبيل فى العقائد والمصير : وفيكتور كوزان ، وخاصة فيكتور كوزان الشاب الذى كان يراسل شلنج وهيجل اللذين يكنان له الاحترام ، وكوزان الرومانتيكى تلميذ هردر ، الذى كان يعتقد أن الانسانية ملهمة ، والذى مجد التلقائية الغامضة الأولية ، والذى رسم مسارا للتطور من المذاهب الحسية الى المثالية ، من المذاهب الشكية الى النزعة الصوفية . كما أن منهم فاشرو Vacherot الذى أعجب بنظرية الفيض عند مدرسة الاسكندرية .

***

لم يكن على مين دى بيران أن يناضل الايديولوجيين فحسب، وانما كان عليه أن يناضل التقليديين traditionnalistes أيضا : وهم جوزيف دى ميستر وبونالد (١) . وقد يعيب المرء على هؤلاء الآخرين تصورهم للعالم ، بيد أن هذا التصور بتأثيره على كونت وآخرين غيره ، مازال محتفظا حتى اليوم بأهميته . ونحن لا نستطيع أن نفهم تصور العالم الكامن الباطن المفارق لأشعار بودلير فهما تاما دون الرجوع الى دى ميستر . بل اننا لا نكون قد جانبنا الصواب اذا قلنا ان هؤلاء كان لهم تأثير على تصور دوركيم . كذلك فانهم يحتفظون – فى ذاتهم – بقيمتهم نتيجة لتأكيدهم لما هو متعال فى المجتمع الانسانى ، ولما يمكن ان يرد الى الأفراد الجزئيين ، ونتيجة لفكرتهم عن السلطة الاجتماعية التى تصورها دى ميستر من خلال جوانبها الدامية ، ونتيجة لنضالهم ضد التصور التجريبى المفرط فى بساطته للروح ، وللأهمية التى يضفونها على اللغة ، والتى هى وحى الهى . وفيهم يستمر التراث الذى رأيناه يتبدى فى القرن السابع عشر عند بوسويه .

ومن الطريف أن نذكر ان مفكرا آخر هو جوبينو – الرحالة والمؤرخ والروائى القدير – مارس تأثيره المشئوم فى جوانب معينة من فكرة السلطة ، وان تكن هذه الجوانب عابرة لحسن الحظ . ومن الممكن ربطه – هو نفسه – ببعض الأفكار التى دافع عنها بولانفييه Boulainvilliers فى القرن الثامن عشر .

***

ولقد كانت لدى لامنيه Lamennais – الذى كان فى أول

(١) ومع ذلك فان الافكار تتحول بعضها الى البعض باستمرار والنقائض تتحول الى نقائضها ، لتفكير مين دى بيران يرتبط ارتباطا وثيقا بتفكير الايديولوجيين كما أن ورثة دى بونلد كانوا هم الوضعيين .

الأمر قريبا من التصورات التسلطية autoritaires — ونرى جراترى Gratry ، آراء دينية أكثر مرونة ، وآراء اجتماعية أوسع افقا من آراء « ميسبتر » و « بونالد » . أما بالانش Ballanche فقد القى بنفسه فى غمار الخيال الدينى . كما ابتدع سان مارتان Saint-Martin مذهبا ثيوصوفيا . على حين كان بنيامين كونستان Benjamin Constant ينظر الى الدين على انه يتألف كله من مشاعر وانفعالات غامضة لا نستطيع ترجمتها الى مذهب .

ولقد بدأ فى ذلك الوقت ظهور حركة اجتماعية عظيمة . فقد تقدم فورييه Fourier بنظرية عن المجتمع قائمة على دراسة الانفعالات وتمجيدها ، ومازال تأثيره باقيا فى بعض العقول التى تعيش في العصر الحاضر . وشيد بيير ليرو Pierre Leroux مذهبا قائما على تضامن الأشخاص واتحادهم . وعرض برودون — الذى تأثر فى لحظات معينة تأثرا عميقا بهيجل — نظرية للديكالكتيك سيجد ماركس فيما بعد انه لابد أن يدخل فى صراع معها ، وقد شيد مذهبا عظيما قائما على مبدأ المحايثة l'immanence وتسيطر عليه فكرة العدالة ، العدالة الثورية ، التى تذكرنا فى الوقت نفسه باللوغوس عند هرقليطس (١) . ولقد كان بونالد مدافعا عن التعالى أكثر من أى شخص آخر . أما برودون فيمثل فلسفة المحايثة فى أعلى درجاتها .

ومن بين أعظم الروائيين الفرنسيين ، نجد « استندال »

---

(١) يمت منهجه فى التقابل antithèse بصلة القرابة الى منهج هرقليطس . ويمكن ان نضع برودون في مقابل كونت ، من حيث ان الاول كان يشعر شعورا أكثر حدة بتحول الاشياء وبالنظام الناشىء عن توازن تتم المحافظة عليه بواسطة قوتين متضادتين .. نظام يكون ناتجا عن التقدم ، ويعاد اقامته وهدمه باستمرار عن طريق التعامل المتناقض لهذه القوى نفسها .

مرتبط بالايديولوجيين وعن طريقهم يرتبط بكونديالك ، كما نجد « بلزاك » مرتبطا بالتقليديين traditionalistes واصحاب الرؤى visionnaires من أمثال سان ـ مارتان Saint-Martin وسويدنبورج Swedenborg وبعد «تين» Taine وزيثا لفكرى استندال وبلزاك فى آن واحد ، وهو يفسربدوره حركة البارناس (*) Le Parnasse الى حد ما ، كما يفسر بعض أشكال الرواية الفرنسية من فلوبير Flaubert الى بورجيه Bourget بل وبعض جوانب بروست Proust . ويعرض سانت ـ بيف Sainte-Beuve فى روايته « الشهوة » Volupté تصور العالم عند العالم البيولوجى لامارك . وعند « جورج صاند » George Sand نجد صدى الحركة الاجتماعية التى تحدثنا عنها لتونا .

* * *

واذا كان مين دى بيران قد أقام تصوره الميتافيزيقى على علم النفس ، فقد استبعد كونت علم النفس من تصنفيه للعلوم .

وانها لمأثرة من مآثر فرنسا أن أنجبت هذا الفيلسوف الذى يعتقد أنه يؤسس نظرياته المحافظة على تصور محكم للعلم ـ على خلاف دى ميستر وبونالد وبيرك .

واذا كانت فرنسا لم تنجب فيلسوفا كشلنج أو هيجل ، أو فيلسوفا كسبنسر على مستوى آخر ، فقد كانت لها قممها الفلسفية الشامخة فى القرن السابع عشر وهى تتمثل فى ديكارت وبسكال وملبرانش (وليس من شك أننا نستطيع أن نجد نظيرا لبسكال : مثل كيركجورد ، ونظيرا لمبرانش : مثل باركلى ، ولكننا

(*) اسم يطلق على مدرسة الشعراء الفرنسيين الذين كانوا ينشرون أشعارهم فى مجلة اسمها «بارناس» (١٨٥٢ ـ ١٨٩٣) ، ومن أشهرهم مالارميه ، وفرلين . وقد انتهى تطور هذه المدرسة آخر الامر الى المدرسة الرمزية فى الشعر الفرنسى . (المراجع)

لن نجد نظيرا لديكارت) ، بل لقد أنجبت في القرن الثـامن عشر ديدرو ، وفى القرن التاســـع عشر مين دى بيران وكونت ــ ناهيك ببرجسون .

واننا لنجد كثيرا من ملامح مذهب كونت وقد تشكلت من قبل فى مذهب سان ــ سيمون Saint-Simon فلديه نفس التصور لوحدة العلم ، ونفس، فكرة التقدم المستوحاة من الدكتور بوردان Burdin ، ونفس الازدراء للميتـافيزيقيين ورجال القـــانون ، ونفس الثقة برجال الصناعة ، ونفس التصور للأطوار العضوية، ونفس الرغبة فى الرجوع الى العصر الوسيط .

ولقد كان كونت خليفة لتراثين : احـــدهما تراث القرن الثامن عشر ، فهو وريث مدرسة ديدرو وهيوم العظيمة الخالدة التى تميز بحق القرن الثامن عشر اذ تربطه بالقرن السابق عن طريق فونتينل Fontenelle وبالقرن اللاحق عن طريق كوندورسيه Condorcet .. « كوندورسيه العظيم » الذى يعده كونت سلفه الأساسى ، والتراث الآخر هو التراث المضاد للقرن الثامن عشر، أعنى تراث بونالد وميستر ، فقد كان القرن الثامن عشر عصرا نقديا ولابد أن نصل الآن ــ وفقا لتعليم سان ــ سيمون ــ الى مرحلة عضوية .

صدم كونت بالطابع الفوضوى للعصر الذى يعيش فيه . فالحياة السياسية فيه قائمة على فكرة السيادة الشعبية ، وهى فكرة ميتافيزيقية بالمعنى الصـــحيح . والعالم السياسى تتنازعه ديموقراطية فوضوية وأرستقراطية رجعية . والعـلم يخلو من التنظيم ، والعلماء ضحايا ما يسميه التخصص المشتت dispersive وفضلا عن ذلك فما برحت الفكرة الميتافيزيقية عن العلة مسيطرة على عدد كبير من العلوم .

المشكلة بالنسبة اليه هى اعادة اقرار التضامن والاتصال ،

أعنى اعادة تحقيق تماسك النظم فى نهاية الأمر . فهدفه سياسى قبل كل شيء ، كهدف أفلاطون فى « الجمهورية » ، ولكنه يرى ــ شأنه فى ذلك شأن أفلاطون ــ انه لابد من أجل تحقيق الاستقرار السياسى ، من افساح مكان لعلم لم يوضع بعد ، وهذا العلم قد تنبأ به مونتسكيو : وأعنى به علم الوقائع الاجتماعية . وقد كان اكمال العلم بعلم الاجتماع ، واقامة المجتمع على العلم ، هما الهدفان اللذان اتجه الى تحقيقهما كونت ، بل هدفه الوحيد . فلو أن المجتمع تأسس على النحو الذى يقصده ، لأمكن قيام علم للوقائع الاجتماعية ، ولا يمكن اقامة مجتمع على النحو الذى ينشده الا اذا كان هناك علم للوقائع الاجتماعية . وهذه حلقة مفرغة ، ولكنها موفقة ، اذ أن الروح العلمية والروح الاجتماعية تنطوى كل منهما على الأخرى . فمن الممكن تحقيق الاثنين دفعة واحدة ، كل بواسطة الأخرى .

ولقد كان هناك ابتداء من القرن الرابع عشر ضرب من الفوضى يشيع فى السلطة الروحية ، ويمثل القرن الثامن عشر النقطة التى وصلت عندها فلسفة متهافتة بطبيعتها الى أشد حالات ضعفها ــ كما يمثل ذلك القرن تمردا للعقل ضد النظام والقلب ، وانتصارا للروح السلبية . وقد كان هدف كونت هو اعادة مكانة السلطة الروحية قبل كل شيء .

ولابد لذلك من الجمع بين فكرتى التقدم والنظام . مع أن القاعدة حتى ذلك الحين كانت هى أن يقف أنصار النظام ضد التقدم ، وانصار التقدم ضد النظام .

بيد اننا لو لاحظنا العقل الانسانى : من وجهة النظر الاستاتيكية والديناميكية (السكونية والحركية) على السواء ـ أثناء تأديته وظائفه ، وفى تعاقب حالاته ــ لاستطعنا أن نؤكد هذا الاتحاد (بين التقدم والنظام) .

فلو أننا لاحظناه أثناء تأديته لوظائفه ، لكان لدينا تصنيف العلوم التى يضع كونت عند قاعدتها الرياضيات ، التى هى وفقا لتصور الرياضيين ــ الفلاسفة فى القرن الثامن عشر ، أولى العلوم الطبيعية وهى فى الوقت نفسه أداة للمعرفة .

ويعد علم الفلك ــ من حيث ابتعاد موضوعات بحثه ، وتقديمه لمواقف مبسطة ــ تطبيقا للرياضيات . وبالتالى فهو العلم الثانى ، وما علينا الا أن نمضى فى هذا السبيل مرتبين العلوم طبقا لازدياد تعقيدها ، وتناقص عموميتها ، فيأتى بعد ذلك علم الفزياء ، ثم علم الكيمياء . ثم علم الكائنات العضوية (الفسيولوجيا) ، ثم علم الكائنات العضوية الاجتماعية (علم الاجتماع) .

ولا مكان ها هنا (فى هذا التصنيف) لعلم النفس ، الذى ينتقد كونت منهجه فى الملاحظة الباطنة انتقادا شديدا ، والذى يجرد الانسان تجريدا تعسفيا من بيئته الطبيعية والفسيولوجية والاجتماعية ، ذلك أن دراسة وظيفة ما ، دون دراسة عضوها أمر غير مشروع .

ويرى كونت أننا لا نستطيع أن نرد أى علم من هذه العلوم الى العلم الذى يسبقه . وهو يعرف النزعة المادية بأنها محاولة لرد الأعلى الى الأدنى ، وهذه سمة من السمات التى تسمح له بالتفرقة بين مذهبه ــ وهو المذهب الوضعى . وبين المادية . وحين يكتب قائلا ان فى الميكانيكا عنصرا غير قابل للتحليل ، فانه يسير فى الطريق الذى يؤدى الى فلسفة « اميل بوترو Emile Boutroux وهو يتصور ــ على الأقل فى مجال العلوم ــ نوعا من الطفرة émergence وبذلك يعد سلفا لصمويل الكسندر .

وللعلوم مناهج متباينة ، فلا بد مثلا أن تسود المشاهدة

فى الفزياء ، والتجربة فى الكيمياء ، والمقـــارنة أو التصنيف فى البيولوجيا ، والتسلسل فى علم الاجتماع . ولكن يجب أن نضيف الى ذلك أن هذه المناهج تتحد وتتعاون بعضها مع البعض الآخر .

ولا يستطيع كل علم أن يتطور الا من بعد العلم الذى يسبقه فى سلم العلوم أى أن هذا الترتيب ليس ترتيبا منطقيا فحسب . ولكنه أيضا ترتيب تاريخى ، ذلك لأنه اذا كانت الرياضـة والفلك علمين قديمين جدا ؛ فان الفزياء قد نمت فى القرن الثامن عشر والكيمياء فى أواخر القرن الثامن عشر على يد لافوازييه Lavoisier والبيولوجيا فى القرن التاسع عشر على يد بيشا Bichat وبروسيه Broussais ، أما علم الاجتماع فلم يكن من الممكن أن ينمو الا فيما بعد ، على يد أوجست كونت . فتفكيره يتخذ موقعه فى نفس اللحظة التى تكونت فيها الفسيولوجيا والتى صاغ فيها لابلاس ــ بأدق طريقة ممكنة ــ تصور الكون الذى ساد العالم الحديث بأسره .

وهذا الترتيب تربوى أيضا ، اذ أن على العقل الانسانى الفردى أن يحصل هذه العلوم بنفس الترتيب الذى تابعتها به الانسانية .

فاذا كانت العلوم قد تطورت وفقا لهذا الترتيب ، فهـذا معناه أن العلوم الأولى قد وصلت الى نموها الكامل بأسرع مما وصلت اليه العلوم الأخيرة . والواقع أنه فى العصر الذى كتب فيـه كونت ، كانت لاتزال هناك تصـــورات مجردة غامضة فى البيولوجيا (مثل فكرة وجود قوة حيـوية) ، وفى الكيمياء (مثل فكرة وحدة المادة ، وفكرة القرابة بين المواد ؛ والنزعة الذرية) .

وهذا معناه أيضا أن أنبل الظواهر تخضع دائما لأقلها مكانة، دون أن ترد اليها .

ويحتوى كل علم على جانب استاتيكى (سكونى) ، وعلى جانب ديناميكى (حركى) فى وقت واحد ، وبالنسبة الى علم الاجتماع يكون قوام الجانب الاستاتيكى هو تأكيد النظام الاجتماعى المؤسس على الدين والملكية والأسرة واللغة • وفى كل الأحوال يكون خضوع الديناميكى للاستاتيكى ، والتقدم للنظام ، علامة على العصور العضوية (organiques) ، وهكذا نرى أن هذا العنصر هو الذى يفسر الطابع المحافظ ، بل الرجعى فى فكر كونت •

ولكن علينا الآن أن نكمل هذا الرأى عن ترتيب المعارف وعن النظام الاجتماعى بما يقوله لنا كونت عن الفكرة المكملة ، وأعنى بها فكرة التقدم • فلا بد من الجمع بين تصنيف العلوم وبين القانون الديناميكى العظيم الذى وضعه كونت ، أعنى قانون المراحل الثلاث • ويقول كونت : ان ثمة رابطة بين قانون التصنيف الذى بحثناه وقانون التسلسل الذى سنبحثه • اذ من طبيعة العقل الانسانية ألا تذهب مباشرة الى الوضعية المثالية للعلم ، وانما هى تمر بمراحل ثلاث : اللاهوتية ، والميتافيزيقية ، والوضعية • وهذه المرحلة الأخيرة هى وحدها المرحلة العلمية • أما المرحلة اللاهوتية التى يفسر فيها الناس الأشياء جميعا بتدخل ارادات اعتباطية فهى المرحلة الأولى ، اذ أنها افتراض تلقائى ، وهى أبسط افتراض يمكن أن تتصوره العقول الانسانية فى تلك المرحلة . وهذه المرحلة التى تبدأ بالمرحلة الوثنية (الفتشية) تنتقل الى تعدد الآلهة (الشرك) ثم الى التوحيد الذى يقربنا الى المرحلة التالية بما فيه من وحدة شاملة ، ومن تجريد من نوع معين • والمرحلة اللاهوتية تطابق بوجه عام مرحلة البابوات والأباطرة والملوك من الناحية الاجتماعية • ثم تأتى بعد ذلك المرحلة الميتافيزيقية • ويقصد كونت بذلك حالة ذهنية تسودها تفسيرات تلجأ الى الخصائص الغيبية كالقوة التنويمية la vertu dormitive عند موليير ، أو الخوف من الفراغ عند بعض الفزيائيين المتخلفين فى

القرن السابع عشر • ونفس هذه الطريقة فى التفكير التى تتسم فى العلم بفكرة العلية ، وهى فكرة فردية يرى كونت أنها ميتافيزيقية، وبمقتضاها تنتج واقعة أخرى ــ نفس هذه الطريقة تنعكس فى تنظيم اجتماعى تسيطر عليه فكرة ميتافيزيقية وفردية بدورها ، وأعنى بها فكرة القانون •

ويتيح القانون الديناميكى للاحوال الثلاث التنهؤ بما ستكون عليه المرحلة الأخيرة ، وهى المرحلة الوضعية ، كما يتيح تعريف العلم الوضعى الذى ذكرنا مجالاته المختلفة من خلال تصنيف العلوم • ففى المرحلة الوضعية تتحكم فكرة الرابطة والقانون ، التى تحل محل فكرة العلة مثلما يحل مبدأ شروط الوجود conditions d'existence محل مبدأ الغائية •

فاذا عرف الانسان القوانين استطاع أن يؤثر فى الطبيعة ، وشعار النزعة الوضعية هو « المعرفة من أجل التنبؤ بغية السيطرة» بيد أن امكانية الفعل تتناقص كلما ازدادت امكانية التنبؤ : ففى الفلك تبلغ امكانية التنبؤ أقصى مداها ، على حين تكون امكانية الفعل فى البيولوجيا هى الأعظم ، أى أن قابلية النظام الواقعى للتعديل تزداد كلما تعلق الأمر بظواهر أشد تعقيدا •

هذه السمات تسمح لنا بتعريف الوضعية فى نظر كونت • فصفة الوضعية تطلق على الواقعى النافع المؤكد المحدد بدقة (على الاقل فى حدود معينة من الدقة) • وليس هذا هو كل شىء ، اذ يربط كونت فكرة الوضعية بفكرتين هامتين أخريين : فكرة العضوى وفكرة النسبى • اذ لا ينبغى قط أن ننظر الى العناصر بمعزل عن الكل • وهذا هو السبب الذى ينبغى من أجله أن تتوقف البيولوجيا ــ فى نظره ــ عند الانسجة tissus ، وعلم الاجتماع عند الأسرة ، وهذا أيضا هو السبب الذى من أجله كانت لكونت نظرة

محددة الى المجتمع فى مجموعه بوصفه غير قابل للرد الى الأفراد . ومن ناحية أخرى ، فان كل معرفة نسبية ، نسبية الى تركيبه العضوى (كما أدرك التجريبيون) ونسبية الى موقعنا فى التاريخ (كما سيدرك أنصار هيجل أيضا) •

ولنضف الى ذلك أن الوضعية نزعة واقعية • فهى تسلم بالفكرة التجريبية والاسكلائية القائلة انه لا يوجد فى العقل شىء لم يكن من قبل فى الحواس ، دون أن تنكر مع ذلك وجود الفروض ودور الميول الحسية داخل العلم نفسه ، وهى تتصور العالم الخارجى على أنه غذاء العالم الداخلى ومنبهه ومنظمه • وهذا العالم الأخير يجب أن يجعل نفسه المرآة التى تعكس النظام الخارجى بدقة •

وها نحن نرى أننا لم نصل حتى هذه اللحظة الى الحالة الوضعية الكاملة ، فثمة حزب رجعى rétrograde ، تتحكم فيه التصورات اللاهوتية ، وحزب ثورى تتحكم فيه التصورات الميتافيزيقية •

على أن كونت يتجه بالتدريج الى اخضاع ما هو حركى لما هو سكونى ، أى أنه يخضع التقدم للنظام • وهذه احدى الأفكار التى تتيح لنا تفسير الفلسفة الثانية لكونت ، فهذه الفلسفة تنشأ لديه بتأثير عوامل متعددة لا تقتصر على ذلك التصور الذى يخضع التقدم للنظام فحسب ، بل تشمل أيضا فكرة استحالة التركيب (synthèse) الموضوعى ، أعنى ارجاع العلوم الى العلوم الأدنى والأبسط ، أى الى الرياضيات ، ولما كان من الضرورى ايجاد مركب ، فان هذا المركب لن يعود ممكنا الا تحت سيطرة وجهة النظر الأعلى ، وهى وجهة نظر العلم الأخير ، أعنى علم الاجتماع ، أو علم الذات ، وفى هذه الحالة سيكون ذلك مركبا ذاتيا •

والواقع أن فكرة المركب الذاتي هذه هي التي تفسر اخضاع العلم للمجتمع ، وهذا الخضوع يؤدي بكونت الى فرض حدود غريبة على العلوم • فهو لا يعتقد انه من المفيد في علم الفلك دراسة النجوم الموغلة في البعد ، وبذلك يستبعد علم الفيزياء الفلكي l'astro-physique • وفي الفزياء يرى أنه لا ينبغي أن نذهب الى ما وراء درجة معينة من التقريب • والواقع أنه كان يقول — ولقد قال بالفعل — ان الافراط في الدقة لا يتمشى مع وجود القوانين ، وفي هذه النقطة كان تفكيره تنبؤيا الى حد ما • وهو لا يريد أبحاثا في تركيب المادة • كما يحمل من ناحية أخرى — على حساب الاحتمالات • وفي البيولوجيا كان ينزع الى تحريم التجربة ، والبحث الكمي ، ويريد أن يقصر الدراسات على الأنسجة والأعضاء • أما الخلية فكانت تبدو له كأنها ضرب من التجريد الميتافيزيقي • وفي علم الاجتماع لم يكن يريد بحثا في أصل المجتمعات •

وينبغي أن نضيف الى الأسباب التي قدمناها لهذه الفلسفة الأخيرة لكونت — الدور الذي يعزوه الى ما يسميه التأثير الملائكي لكلوتيلد دي فو Clotilde De Vaux تلك المرأة التي أحاط ذكراها بضرب من التقديس •

ففي هذه الفلسفة الأخيرة يستحدث كونت نوعا من العبادة الاجتماعية ، أودينا للموجود الأعظم ، ويعلن هذه الصيغة الثلاثية : الحب مبدأ ، والنظام أساسا ، والتقدم هدفا • فالقلب، الذي يتجسد في « الشغالة » (عند النحل Prolétaires) وفي النساء هو ما ينبغي أن يرشدنا قبل كل شيء • وعلى العقل أن يخضع له ، والواجب أن « تعيش للغير » •

ويتجه كونت شيئا فشيئا صوب النزعة المحافظة ، «فالنظام

المصطنع لا يمكن أن يكون قوامه سوى العلو بالنظام الطبيعى الى الكمال » • « وحريتنا الحقيقية تنتج عن خضوع شريف » • وهو فى نزعته التجريبية التنظيمية يزداد بالتدريج ميلا الى اخضاع الأحياء للأموات ، أعنى للتراث • والواقع أن نداءه للمحافظين ورسائله الى نابوليون الثالث الذى يرى فيه « ممثلا للمرحلة الديكتاتورية ، الفرنسية بحق » ، وفكرته القائلة ان سيادة المجالس النيابية قد انتهت الى الأبد •• هذا كله يسمح بالحكم على الطابع المتداعى الذى تتسم به فلسفته السياسية ، حتى لو اعتقدنا أنه يطالب بتحقيق أشكال سياسية جديدة •

ومن الطريف أن نقارن بين كونت وهيجل ، وذلك فى حدود معينة على الأقل • فكل منهما يرى أن الروح الانسانية كأنما تسير بطريقة ذات ايقاع ثلاثى ، وكل منهما يعد من فلاسفة المجتمع ومن فلاسفة التركيب ، وكل منهما يضعنا من جديد فى موقعنا التاريخى، وكل منهما يؤكد أن الفكرة المطلقة أو الشاملة وفقا لمصطلح الثانى، والأفكار وفقا لمصطلح الأول ، تقود العالم ، وكل منهما يعتقد على الرغم من نزعتهما النسبية أنه قد ختم بمذهبه تطور الانسانية كله (١) •

---

(١) قدم اميل بربيه فى كتابه «تاريخ الفلسفة» عناصر هذه المقارنة ، فكونت وهيجل يكافحان تجريدات النزعة الفردية ، أحدهما يناضل ضد ماهو صورى فى مذهب كانت وماهو غير محدد فى مذهب فشته ، أما الاخر فيناضل — متابعا فى ذلك سان سيمون — ضد ماهو انحلالى فى افكار القرن الثامن عشر الفرنسى • وهكذا نرى قانون التبادل alternance يتجلى بأوضح صوره ، وهو القانون الوحيد الذى يعترف له اميل بربيه بالقيمة بالنسبة الى نظام تعاقب المذاهب ، والذى ربما كان يعبر عن ماهية كل تفكير • وكل من هذين الفيلسوفين يفكر أيضا بطريقة ثلاثية او ثالوثية • بيد ان هاتين السمتين : معارضة النزعة الفردية والطريقة الثلاثية فى التفكير — ترتبطان بفكرة ، او الاحرى بموقف أشد عمقا : فكل منهما كان يشعر ، او المعتقد انه كان يشعر ، بانه فى =

ولقد كان تأثير كونت هائلا : ففي انجلترا أثر في جون ستيوارت مل ، و ج • هـ • لويس ، والروائية جورج اليوت ، وهربرت سبنسر ، وفي فرنسا أثر في بعض الرجعيين ، وفي علم الاجتماع الفرنسي في آن واحد ، وفي أمريكا اللاتينية أثر في عدد كبير من الأتباع • غير أن هذه الأسماء نفسها تكفي لبيان أن ذلك التأثير لم يكن في اتجاه واحد • فحتى قبل وفاة كونت ، كان من الممكن التمييز بين الوضعيين الذين يتابعونه حتى مذهبه الأخير ، وبين آخرين — من أمثال ليتريه — لم يشاءوا أن يحتفظوا من فلسفته الا بالشطر العلمي ، أعني الاعتقاد بأن العالم العقلي محدود ،

= المرحلة قبل الاخيرة من التاريخ ، وأنه يمهد للمرحلة الاخيرة أو يفتتحها، وهى الدين المطلق والفلسفة المطلقة بالنسبة الى أحدهما ، والفلسفة الوضعية ودين الانسانية بالنسبة الى الآخر • وهما ينسبان الى اللحظة التاريخية التى وجدا فيها مكانا مميزا ، لان هذه اللحظة هى بفضلهما لحظة مجيء الحق • وفى وسع المرء أن يقول ان نزعتهما النسبية تحد بغرورهما الناشيء عن اعتباره نفسيهما نبيين • وهذه سمة نصادفها فى كل مذاهب هذا العصر • =

وهذا مايفسر — بطريقة جزئية طريقة تفكير هيجل الثلاثية ، وقانون الاحوال الثلاثة عند كونت • فهما يشعران أنهما فى مفرق الطرق الحاسم الذى يتولد فيه العضوى من النقدى — وهو فكر عضوى جديد يختلف عن الفكر العضوى البدائى • وقد كانت المانيا المنقسمة التى الفى هيجل نفسه امامها فى شبابه، والعلم والمجتمع المشتتين اللذين وجد سان سيمون وكونت نفسيهما ازاءهما ، كانت هذه وتلك بالنسبة الى أرواحهم علامات على ضرورة قيام مركب synthèse ولقد وجد كل منهما فى استعادة ذكرى العصور العضوية والدول الموحدة تفسيرا لما يشعر به من حزن أو غضب ازاء حالة التشتت التى كانت سائدة فى عصره • وكل من كونت وهيجل ينهى مرحلة الانتقال بمركب ذاتى وموضوعى فى آن واحد • والواقع أنهما يوحدان بين الذات والموضوع ، ذلك لان «المركب الذاتى» عند كونت يصحبه تأكيد — حاضر لديه دائما — بأن الوعى لن يبعث النظام فى داخله الا اذا جعل من نفسه مرآة للخارج • كما أن فلسفة هيجل فلسفة للوعى ، ولكنه يثرى من جميع مكاسبه وتمرداته وتجاربه التى يقوم بها »

ونظرية العلم بوصفه مجموعة من العلاقات . ويمثل ليفى برول وبيلو اتجاها آخر ، اذ حاولا ابتداء من تفكير كونت ، أن يقيما علما للعادات الأخلاقية في حالة الأول ، ومذهبا أخلاقيا في حالة الثاني •

ونستطيع أن نعد الفزيائى ماخ ، والوضعيين المنطقيين ورثة لأحد اتجاهات فلسفة كونت ، بصورة جزئية على الأقل •

ومن الممكن أن نذكر العالم الفسيولوجى كلود برنار Claude Bernard والكيميائى برتلو Berthelot على أنهما يجسدان حركة العلم• فكلود برنار - على الرغم من عدائه للتفسيرات القائمة على القوة الحيوية ، وعدائه لفكرتي العلة الأولى والعلة الغائية - يؤمن بعدم قابلية الظواهر الحيوية للرد الى ظواهر أخرى ، كما كان يؤكد فى علم المناهج دور الفرض l'hypothèse .

ولقد تأثر « تين » بكونت ، ولكنه كان ينشد على الأخص - القيام بربط بين نزعة كونديلاك التجريبية ، ونزعة اسبنوزا وهيجل الواحدية المثالية monisme idéaliste • وكان يريد أن يبدأ من وقائع صغيرة جدا ، وأن يمضى في التحليل مثل كونديلاك ، لكى يصل مع ذلك الى تركيب واسع synthèse أوحى اليه هيجل بفكرته •

ويستمر علم النفس المستلهم عنده من كونديلاك وهيوم والايديولوجيين ، تحت مستوى علم النفس عندهم ، اذ نراه يرد الاحساسات الى كثرة من الذبذبات الأولية • وهو يحاول بطرق مصطنعة معقدة من الأخيلة ، ومن البدائل والتبسيطات ، ومن الهلوسات أن يبنى حياتنا النفسية التى تظل فى أعماقها تجميعا من الصور • وبذلك تصل الى الصيغة المشهورة : « الأنا نسيج متشعب من الصور » ، فليس الأنا سوى التولد المستمر المتجدد

لمجموعة بعينها من الصور المتميزة ، وهو سلسلة من الأحداث ، وينور «تين» على كل التجريدات الخاويه التى استخدمها تلاميذ مين دى بيران ، كأفكار القدرة والوجود والجوهر • وليس الأنا وحده هو الذى يتألف من سلسلة من الأحداث ، بل الأمر على هذا النحو أيضا بالنسبة الى العالم كله ، الذى يشبه ألعابا نارية تصعد ثم لا تلبث أن تهوى فى العدم • فالعالم عند تين ـ كما هو عند مل ـ ليس الا سلسلة من الاحساسات الممكنة ونزعته التجريبية انما هى ضرب من المثالية التجريبية •

وهو يريد ـ من ناحية أخرى ـ أن ينتقل الى قلب المنبع الكلى ، وأن يرى كيف ينبثق منه ، « عن طريق قنوات متميزة ومتشعبة السيل المتدفق الأزلى للأحداث ، والتتابع اللامتناهى للأشياء » • اذ كان يعتقد أنه « فى أعلى مكان من الأثير المضىء الذى لا سبيل الى بلوغه ـ تعلن البديهية الأزلية ، ويؤلف الترداد الممتد لهذه الصيغة المبدعة ، بتموجاته التى لا تنفد ـ هذا الكون الهائل» وهكذا تتطابق صيغة دالمبير مع « الفكرة » المطلقة عند هيجل •

وبهذا الجانب من مذهبه الذى يتبدى لنا فيه ذهنا استنباطيا، وان كان قد تمثل لنا من قبل ذهنا استقرائيا ، بهذا الجانب، ترتبط نظريته عن الخصائص العامة caractères généraux • وهنا نرى نزعة تين الاسمية nominalisme وقد تحولت الى نوع من الواقعية التى تذهب الى أن الأنواع والأفكار العامة موجودة فى الأشياء ، ويصبح الجزء الذى ظهر فى بداية الأمر على أنه مجرد اشتقاق ـ خاصية مولدة propriété génératrice كما لاحظ اميل بربيه بحق ـ وينتظم ما كان يبدو لأول وهلة مجرد سلسلة من الأحداث فى مجموعات مركزة من الخصائص • وعلى هذا النحو يفسر تين ـ بوصفه مؤرخا للأدب وللفن ـ لافونتين وراسين والنحت الاغريقى وشكسبير ، وميلتون على أساس الجنس ، والبيئة والعصر،

وبهذه العناصر نفسها يعرف الروح الشامبانية * l'esprit champenois والروح الكلاسيكية ، والروح الهلينية والروح الانجليزية •

فعلى الرغم من أنه ينزع الى رد الوقائع جميعا الى سلاسل ، فانه لا يستطيع أبدا أن يتخلص من ذلك الشعور الطاغى لديه بهذا « العالم الرائع المتحرك ، وهذه الفوضى الصاخبة من الأحداث المتقاطعة ، وهذه الحياة التى لا ينقطع تدفقها ، المتميزة بالتنـــوع والمرونة اللامتناهية » •

وهكذا يتصارع فى نفســـه ـ دون انقطاع ـ نزوع الى الصرامة ، وثروة عظيمة من الصور ، كما تتصـــارع فيه الروح الاستقرائية مع الروح الاستنباطية، ومع نوع الحدس ، لا بالخصائص المجردة فحسب ، بل بالخصائص المجردة منظورا اليها من خلال العينى •

وكان تأثيره فى الأدب عظيما : من فلوبير وليكونت دى ليل Leconte de Lisle الى باريز Barrès وبروست ، كما كان تأثيره فى الفلسفة عظيما ، وذلك على الأقل بوصفه تأثيرا عكسيا ، اذ أن من العــوامل التى أدت الى ظهور البرجســونية أنها كانت رد فعل على تين • وينبغى أن نضيف الى هذه النقطة أن فكر «تين» يتيح لنا فى بعض الفقرات أن نتنبأ ـ على نحو لا يخلو من مفارقة ـ بما سيظهر لدى خصومه المقبلين من تأكيد لفكرة الاتصال ، فقد كان تين يقول ان الأنا شىء واحد متصل « فنحن لا نفصل الأحداث بعضها عن البعض الآخر الا لتيسير الدراسة فحسب. ولكن الواقع أن الكل يسبق تقسيمه •• وليس الأنا الا شريحة مقطوعـــة من

(*) نسبة الى الى شامبانيا ، وهى منطقة فى فرنسا شرقى باريس •

النسيج الكلى » • « وما الواقعة سوى شريحة اعتباطية تقتطعهـا حواس أو يقتطعها وعي من النسيج اللامتناهى المتصل للوجود » •

وقد استمر علم الاجتماع بعد أوجست كونت متخذا أشكالا متباينة ، فارتبط باتجاه « ليبلاى Le Play علماء اجتماع تقليديون، بينما أقام تارد Tarde علم نفس على فكرة الأفعال المتبادلة بين الأفراد ، وأكد «اسبيناس» ثم «دوركيم» و «ليفى برول» بخاصة وهما من ورثة كونت المباشرين ـ أهمية الوعي الاجتماعى من حيث أنه متميز عن وعي الأفراد كل على حدة • وتقترن ملاحظات دوركيم بحب وخوف دينيين ازاء روح المجتمع ، كما تقترن بميكانزم المجتمع عنده فـكرة علو المجمـوع trasncendance de l'ensemble أما ليفى ـ برول فقد كان يحاول أن يجعل تصـورات دوركيم أكثر مرونة ، بل كان يناقضها أحيانا ، وأقام نظرية للوعى البدائى على تصـور المشـاركة la participation ؛ وهى نظرية تقول بتميز العقليـة ، قبل المنطقيـة pré-loqigue عن عقليتنـا المنطقية تميزا عميقا • أما موس Mauss فقد أعاد تركيب الأطر السحرية التى تتحرك فيها المجتمعات القديمة بقوة العلم والتعاطف الحدسيين ، وشيد جرفتش Gurvitch علم اجتماع تتحد فيه فكرة كثرة الجماعات بفكرة تعدد التركيبات والمستويات فى تأكيد للوحدات المتحركة العينية التى هى فى الوقت ذاته ضروب من الوعي الجماعى المباشر •

بعد « تين » استمر علم النفس عند ريبو Ribot وبيير جانيه Pierre Janet وجورج دوما Georges Dumas • وقد قام هؤلاء بتحديد معالم علم نفس تجريبى ، ويقترب الأول على وجـه الخصوص بنظريته عن أنواع السلوك من « السلوكية » الأمريكية• ويمكن أن يعد بينيه Binet من جهـة أخرى واحـدا من مؤسسى علم النفس الذى يستخدم الاستقصاءات enquêtes • أما ف •

بولان F. Paulhan فانه يضع تخطيطا اجماليا لعلم نفس أقرب الى الملاحظة الباطنية •

وقد سيطر على القرن الثامن عشر الصراع الناشب بين أحزاب ثلاثة : حزب الموسوعيين المعتدلين الذين يتحدث ڤولتير باسمهم ، وحزب الموسوعيين الماديين ، وحزب جان جاك روسو • واستطاعت الوضعية أن تستخلص ـ بمعنى ما ـ الحقائق المتضمنة في النزعة الفولتيرية ، وفي النزعة المادية ، وفي النظريات التى يقول بها صاحب مذهب الألوهية الطبيعية ، والنظريات التى يدعو اليها الملحد • وبفضل هذه النزعة الوضعية حدث تقدم عظيم صوب الوضوح ، ومن الصحيح أن بعض الأفكار الرجعية في المجال الاجتماعى ـ قد منعت كونت على ما يبدو من صياغة نظرية مقبولة •

ويمكن تعريف الاتجاهات الأخرى على أساس موقفها من الوضعية سواء أكانت تنزع الى التخفيف من حدتها ، كما هى الحال عند رينان أو كورنو ، أو تهاجمها هجوما مباشرا ، كما هى الحال عند الميتافيزيقيين الروحيين •

فلقد أبرز رينان العنصر التاريخي للأشياء تحت تأثير دراساته التاريخية ـ التى كان فيها بدورها متأثرا ـ جزئيا ـ بالرومانتيكية الألمانية ، وهو يرى أن التاريخ انتقال من حال الى حال ، وماهية الأشياء هى الصيرورة ، أو الزمان • وهو يقول ان النفس هى الصيرورة الفردية ، مثلما أن الله هو الصيرورة الكونية •

وكان كونت يقول ان الدقة المفرطة تقضى على القوانين ، وهذا ما يتوله رينان أيضا ، وان يكن ذلك فى اتجاه آخر مختلف تماما ، فقد نصب نفسه مدافعا عن عدم الدقة وعدم الاتساق ، فهو يطالب ـ كما طالب فيرلين فيما بعد ـ بالفوارق الدقيقة ،

وبالرهافة « فى الآراء واللمحات ، والأيام والتمهيدات ، والملامح ، والمظاهر » • وكتب قائلا : «الغامض هو الحقيقى ، الا فى الهندسة» وما خطوط العالم الكبيرة سوى تقريب ، وليست الحقيقة الا توفيقا بين عدد لا متناه من الأشياء • وصيرورة العالم ما هى الا شبكة واسعة تمتزج فيها آلاف العلل وتتناقض ، ولا تبدو فيها الحصيلة النهائية أبدا متفقة اتفاقا كاملا مع القوانين العامة التى حاولنا استنباطها منها • وهو يلتقى بفكر كورنو حين يقول : « لا تكون القوانين صادقة الا فى حالة وسطى معينة : أما الحالة الحاضرة فليست الا حالة جزئية ، فلا وجود الا لحالات فردية » •

ولقد كان رينان عالما عظيما ، ولكنه لهذا السبب لا يؤمن بالطابع المطلق للعلم • ومع ذلك فمن الصحيح أنه يؤمن بالعلم أكثر من ايمانه بالمعجزات ، ويتحكم فى فكره ، الذى يختلف اختلافا تاما عن فكرى كونت وتين ـ مفهوما اللامتناهى والمتصل ، بينما يتحكم فى فكرهما المثل الأعلى للرياضيين والفزيائيين ، على الرغم من كل تلك الأهمية التى يضفيانها على التاريخ • ففكر رينان تسيطر عليه العلوم التاريخية • وبفضل التاريخ ، وعلم اللغات، وبفضل علم الأديان ، كان يريد أن يبلغ ما هو بدائى ، تلقائى ، غريزى • وقد قارن د • باردى D. Parodi فى دراسة متعمقة بين التعريف البرجسونى للحدس وبين عبارة مثل هذه : « قليل من التفكير قد يقتل الغريزة ، أما التفكير الكامل ، فقد يعيد الحياة الى عجائبها (عجائب الغريزة) بدرجة أعلى من الوضوح والتحديد • » اذ ينبغى على المؤرخ أن يستخدم أساسا ملكاته فى التعاطف • وعليه أن يكون متعاطفا « تعاطفا عميقا » مع ما يدرسه • وهكذا يتم بعث الماضى ـ كما تصوره ميشليه Michelet وكينيه Quinet بضرب من الحدس •

***

« ان ظواهر الوعي الغامض هي المجال الخاص بالله » في مثل هذه الجملة نشاهد الطريق الذى يسـلكه التأمل ، مبتدئا من الرومانتيكية . ومنتهيا الى موضع قريب كل القرب من برجسون. وحين يكتب رينان قائلا : « الاسـتقلال الذاتي الكامل ، الابداع الباطن ، الحياة ... هذا هو قانون الانسانية » نرى كيف تبدو هذه الجملة وكأنها تحتل موقعا بين برجسون مؤلف « التطور الخالق » وبرجسون مؤلف « منبعا الدين والأخلاق » فقد كان لدى رينان دائما احساس بقوة هي فى نظره قوة محايثة باطنة فى الانسـانية تدفعها صوب وعي يتزايد باستمرار • وهذه القوة تعبر عن نفسها في أفراد أكثر مما تعبر عن نفسها فى مجموعات • وهذه نقطة من النقط التي يتميز بها عن هيجل •

ولما كان رينان موزعا بين العلم الذى يريده مبددا للأوهام ، وبين الحاجة أو الحنين الى تلك الأوهام التى يحطمها ، فقد احتفظ فى نفسه بالشعور الديني ، بيد أنه شعور دينى مستقل عن كل شكل • وفي هذه النقطة يمكن أن نربط بفكره فكر واحد من كبار خلفائه هو « الفرد لوازى » Alfred Loisy •

***

أما نقد العلوم كما يتصوره كورنو فيؤكد فكرتي الاحتمال probabilité والانفصال discontinuité • فالاحتمال هو وسيلتنا للتعامل مع الواقع ، وهو أشبه ما يكون ببرهان ، أما الانفصـال فبين مجـالات الواقع ، غير أن الاحتمـال يقـوم على نوع من النظام الداخلى فى الأشياء ، والانفصال ليس انفصالا لا نظام فيه• فعن طريق الاحتمال يسـتطيع العقل أن يتقدم شيئا فشيئا فى معرفة الواقعى دون أن يرده الى نفسه (أى الى العقل) • بيـد أن هناك دائما مجالين يفلتان منه : مجال الحياة ، ومجال الحقـائق الذهنية •

واذا كان كورنو على اتفاق مع كونت حـول بعض النقاط ، واذا كان كل منهما يؤكد انفصال مجالات المعرفة ، فانه يختلف معه حين يعزو الى فكرة الإحتمال مثل هذا الدور الكبير، وحين يؤكد عدم قابلية الحيـاة لأن ترد الى شيء سـواها • ومن المؤكد أن نقد العلوم الذى قام به كورنو أشد مرونة ـ وان لم يكن أعمق ـ من نقد كونت •

ومن الممكن أن نقارب بين دوران دى جروه Durand de Gros وبين كورنو عن طريق تصور الأول لدراسة الحياة بوصفها مكونة من مراكز من الوعى متعددة •

***

فاذا أردنا أن نتعقب تطور فلسفة مين دى بيران ، وجدنا هذا التطور عند رافيسون Ravaison ولاشلييه Lachelier وبوترو Boutroux • وهو عند الأول يمتزج بتأثير شلنج ، وعند الآخرين يتحد بتأثير مفكرين آخرين وخاصة بتأثير ليبنتس وكانت، وهذا الطريق هو الذى يمكن أن يؤدى بنـا مبـاشرة الى فلسفة برجسـون ، على حين أن مفكرين آخرين متأثرين بكانت أكثر من تأثرهما بمين بيران ـ هما فوييه Fouillée ورنوفييه Renouvier يبقيان بمعزل عن هذا التيار ، ويتناقض تأثيرهمـا أو يضيع ، أو يستمر ـ فى حالة ثانيهما ـ عبر المحيط ، فى تفكير فيلسوف كوليم جيمس •

تكونت فلسفة رافيسون بتأثير عوامل متعددة ، فهو يستبقى من الفلسفة الأرسطية التى يدرسها بوصفه مفسرا شاعريا ، بقدما مايدرسها بوصفه مؤرخا وفقيها ، بفكرة ترتيب تصاعدى يشيع فيه الانسجام ، وبفـكر يعمـل عن طريق الجـذب كما يحتفظ منهـا بالاحساس بالفردية • ومن شلنج ، يحتفظ بفكرة الحدس العقلى وبالعناصر الجمالية التى غذت هذه الفلسـفة الرومانتيكية • أما ليبنتس وبيران فقد أمداه بتصورهما الديناميكى للمجهود ، وهو

يحتفظ من دى ستال De Stahl ومدرسة مونبلييه Montpellier بوجهة النظر الحيوية vitaliste الى الأشياء •

ومن وراء هذه المؤثرات جميعا ، هناك تأثير كبار النحاتين اليونانيين وتاثير ليوناردو دافنشي• فأين نستطيع أن نفهم التصور الأرسطى للصورة ، وفكرة ليبنتس عن التمثل بوصفه كثرة تشاهد فى الوحدة ، وفلسفة شلنج كلها ان لم يكن ذلك فى الفن؟ ويدرس رافيسون فكرة الرشاقة grace ذلك النوع من الموهبة الحسية التى تتجلى فى الأعمال الفنية الكبرى ، والتى تجعل من النفوس المتمثلة نفوسا محبوبة لأنها تبدو محبة • فهو يحاول ، مسترشدا بدراسة الفن ودراسة الحياة أن يدرك من وراء الاشياء حركة اله محتجب ، ومن وراء تعرجات الأشياء الحية ، الصيغة الخفية التى تجسدها وتظهرها ماديتها • ولما كان تمثال من المرمر يتيح لنا ادراك هذه الوحدة الروحية ، فان رافيسون يقول لنا انه من مثل هذا التأمل يمكن أن تنبثق أمام عينى الفيلسوف الصادق حقيقة مركزة تركيزا أشد مما قد يجده بصورة مشتتة فى بحث فلسفى بأكمله • فلا وجود لجوهر ميت ، وانما هناك بالأحرى نشاط وفاعلية ، وهو يرى أن الأنواع الحية تنزع ــ بوسائل مختلفة ــ صوب أغراض واحدة ، ويشبه الكون بلحن هائل ، ولهذا ينبغى أن نبحث من وراء المظاهر عن « الأغنية التى تصنع الصور » •

وثمة ظاهرة قد أعطته مفتاح الظواهر جميعا : أليست العادة habitude عاملا على التشتت والتخريج extériorisation ؟ ألسنا بواسطتها ندرك فى أنفسنا ذلك النوع من الهبوط والتراخى الذى يتألف منه الكون على حد قول الأفلاطونيين المحدثين ؟ واذا كان الأمر على هذا النحو ، فينبغى أن نصعد فيما وراء العادة لنلتمس الوحدة الروحية الكامنة فى أعماق الأشياء ، ولكن ، لا بد أن نلجأ الى العادة لكى نفسر كيف تتجه تلك الوحدة صوب

التجســـيد المادى la matérialité وعندئذ تبدو المادة عقبة حين لا يتم التحكم فيها ، و «الاجسام المحسوسة تثقل حركتنا» • ويقول لنا رافيسون في جملة شهيرة رددها برجسون : « ان مادية الأشياء تضع فينا النسيان » •

ويستكمل رافيسون فلسـفته التى يعرفها بأنهـا واقعيـة روحية ، بنظرية فى الحماسة والبطولة ، فعن طريق هاتين الصفتين نبلغ على نحو أفضل قلب الواقع « أعنى تلك النفس المتحركة ، روح النار والنور » •

أما بحثه الذى يواصل به بحث شلنج فى الحدس العقلى الذى يعرفه بأنه رؤية عينيــة وفردية للروح ــ فيقربنا كل القرب من فلسفة برجسون الذى طاب له أن يشيد بفضل رافيسون فى خطاب ألقاه أمام آكاديمية العلوم الأخلاقية •

رأينا أن هناك سمات كثيرة من فلسفة رينان ، بل وصفة من صفات فلسفة « تين » ــ وهو أمر أشد مفارقة ــ كانت تتيح لنـا التنبؤ بفلسفة برجسون • ومع ذلك ، فقد امتزج دائما بفلسـفة تين عنصر ينتسب الى القرن الثامن عشر ، وامتزج بفلسفة الاثنين معا عنصر نابع من هيجل • وقد كان المفكر الذى درسناه لتونا ــ وأعنى به رافيسون ــ خاضعا لسيطرة فكر شلنج • ولقد كان لابد للفلسفة الفرنسية من أن تتحرر من الافتتان بهذين الفيلسوفين العظيمين ، ولا سيما هيجل ، اذا أرادت أن تصبح مذهبا للفعل والحرية الفرديين •

وعلى هذا ، كان لابد للمفكرين الفرنسـيين أن ينقلبوا ضد كونت وهيجل فى آن معا • ولقد كان ذلك صراعا مزدوجا ، غير أن من السهل جدا تصوره ، فرغم اختلاف هذين المفكرين حـول نقـاط معينـة : اذ يؤكد الأول التطور ، بينما ينكره الثانى الى

حد ما ، فان هناك سمات كثيرة مشتركة بينهما ، اذ أن الاثنين معا يخضعان الفرد « للموجود الأعظم » الذى هو فكرة فى حالة الأول ، وللفكرة المطلقة Idée منظورا اليها على أنهما موجود أعظم فى حالة الثانى ٠

وفى هذه اللحظة بالذات ، يظهر تأثير كانت على الفلسفة الفرنسية فى أقوى صوره ، وقد أفاد هذا التأثير أعظم الفائدة فى تحرير تلك الفلسفة من سيطرة كونت وهيجل ، ولكننا سنرى لماذا لم يكن هذا التأثير موفقا تماما عند فوييه Fouillée ورنوفييه Renouvier على الرغم مما أتاح لكل منهما الحصول عليه من نتائج شائقة ـ وان تكن موضع جدل ٠

واذ يدرك فوييه أن عالم الظواهر ـ وفقا لتصور كانت ـ هو عالم الحتمية ، واذ يريد مع ذلك الابقاء على فكرة الحرية ـ فانه يلجأ الى نظرية الأفكار بوصفها قوى idées-forces ٠ وهذا معناه أن يجعل من مسلمات postulats « كانت » دوافع للفعل ، تصبح حقيقية لأننا نتصرف طبقا لها ٠ ومن المؤكد أن هناك شيئا صادقا من الناحية النفسية فى هذه النظرية ، ولكن ، هل هى مقبولة من الناحية الأخلاقية ؟ أم أنها معرضة لأن تصبح نظرية للوهم قريبة الشبه من نظرية جيل دى جولتييه Jules de Gaultier ٠

ومن ناحية أخرى ، كان فوييه يؤيد المذهب الروحى تأييدا بليغا متألقا ٠

ويطور ـ إبنه بالتبنى ـ جيو Guyau ـ نظريته فى الافكار بوصفها قوى idées-forces ـ بمزيد من الحماسة ٠ فهى عنده تعبير عن حاجة الى الأريحية ، بل عن الحاجة الى توسيع الحياة ، والى التعاطف الشامل ، وهو يتوصل الى مفهوم للحياة ، مماثل لتصور رافيسون ، ولكن ربما كان أكثر دينامية ٠

وقد كان لهذا الميتافيزيقي – الذى مات فى شرخ الشباب – الفضل فى أن يقترب كل القرب فى بحثه عن الزمان ، من بعض نتائج برجسون ، وأن يكون من جهة أخرى ، قريبا غاية القرب – من بعض أفكار نيتشه العميقة ، عن السخاء ، وعن القوة المتوسعة expansive وعراعة الحياة .

ومن الممكن تفسير فلسفة رينوفييه – فى شطر كبير منها ، بعد مرحلة كان واقعا فيها تحت سلطان الهيجيلية – من خلال تأملاته فى أفكار هيوم وكانت • فهو من أصحاب النزعة الظواهرية phénoméniste ، وهو من أتباع كانت ، ولكن دون اعتقاد فى الأشياء ذاتها noumènes ، وهو كنتي أيضا دون تأكيد للوجه السلبى من نقائض كانت antinomies • فلا بد من الاختيار ، ويرى رينوفييه أننا اذا أردنا أن نختار على نحو يتفق مع قوانين المنطق ، ومع ما يسميه قانون العدد بوجه خاص – ومع القانون الأخلاقي فى الوقت نفسه ، فلا بد أن نختار الجانب الايجابى من هذه النقائض les thèses • فها نحن أولاء ازاء عالم متناه فى المكان والزمان ، مؤلف من عناصر لا سبيل الى ردها ، وفى هذا العالم نشاط حر هو نشاطنا ، يستهل سلاسل جديدة من الأفعال، كما أن فيه الها خالقا • ولقد ورث رينوفييه عقيدة المتناهى هذه من مصادر منها صديقه لوى مينار Louis Ménard الذى يؤمن بتعدد الآلهة ، كما ورث عقيدة الحركة عن صديقه ليكييه Lequier.

وانا لنجد فى الشذرات التى كتبها « جول ليكييه » صفحات من أجمل ما خطته الفلسفة الفرنسية ، ومن أشدها درامية •

« يرى نفسه واقعا فى هوة ، والهوة تبتلعه » • و « كما أن الهوة تدعو الهوة ، فكذلك اليأس يستدعى اليأس » ، وهذه أقوال تضعه فعلا الى جوار بسكال وكيركجورد •

ولقد كان العنصر الدرامي عند ليكييه هو بحثه عن الحرية . فكيف يمكن أن تكون سلسلتان من الأحداث ممكنتين على حد سواء فى لحظة معينة ؟ وكيف يمكن أن يكون الانسان حرا اذا كان الإله موجودا ؟

ان ليكييه يعارض الصيرورة الهيجلية ، فهو يدعو الى « الفعل ، لا الصيرورة وانما الفعل ، وبالفعل يصنع الانسان نفسه » ، ولقد كان التأكيد الذى تمسك به ليكييه هو جعل الشيء موجودا ، وحدوث الفعل المنبثق عنى ـ حدوثه الى الأبد .. وهو يقول معارضا هيجل : « ان حب الحياة يزدرى كل تلك الأقوال ». ويتحول ليكييه صوب « الانا الحى le moi vivant » وعندئذ يشعر بحريته : « اننى أشعر بحريتى دون أن تكون لى بها أية معرفة » ، فالحرية هى المفارقة le paradoxe

ان الحرية نور وظل .. ظل « يتجاوز بصورة ـ لا سبيل الى تصديقها ـ حدوده الخاصة » ، فيمتد حتى يصل الى الله ، فيكون بقعة فى المطلق تحطم المطلق . « الانسان يتدبر ، والرب ينتظر » والله ينسحب لكى يضمن بحكمته اللامتناهية ـ استقلال الانسان.

وعن طريق الحرية ، أستطيع أن أنتقل من الأخلاق الى الدين، ولقد كان ابراهيم ـ فى نظره كما كان فى نظر كيركجورد ـ علامة على هذا التحول المفاجيء : « أواه يا له من انقلاب فى الأمور الانسانية والالهية جميعا » .

وها أنذا أصل الى الايمان ، وأرتفع عن الحياة العادية ، وعن الأخلاق . « الايمان انتصار .. ولا بد للانتصار العظيم ، من كفاح عظيم » وهو بالفعل انتصار عظيم لأن الايمان مبدع للمعجزات .

فيالها من صيغة رائعة تلك التى يقدمها ليكييه الى أحدث

الفلسفات حين يبين لنا أن للوجود الانسانى « استقلالا من وراء اعتماده ، واعتمادا من وراء اســتقلاله » متخذا لنفســه قاعدة من « اخلاص المرء لطبيعته » !•

ويؤمن ليكييه ايمانا راسخا بالله ، ولكنه يريد ــ أحيانا على الأقل ــ أن يرفض معونته التى لا تقــدم اليه دائمــا على أية حال « فالله يتركه لتأمله المتوحد » •

هــذه الحــرية التى هى شرط الأخلاق ــ هى أيضــا شرط المعــرفة فى نظر رينوفييه ، فلكى نســتطيع التمييز بين الحــق والباطل ، فلا بد أن يكونا متصفين بهاتين الصفتين ، بمعزل عن العلل التى تنتجهما ، ولا بد اذن أن يكونا مستقلين عن هذه العلل.

ينبغى اذن أن نختار •• أن نختار الحرية ــ فى حرية ، وأن نختار من نقائض كانت جانبها الايجابى Les thèses ، وأن نشيد فلسفة الشخص فى مقابل فلســفات اللامتناهى والجــوهر الوحيد ، تلك الفلسفات التى يسميها رينوفييه فلسفة الشىء ، سواء أكانت هى الواحدية المادية أم واحدية اسبنوزا •

وفى عالم رينوفييه ، نجد الامكانية ، وهناك الحرية ، ونجد الشر ، ونجد عدالة تنتظر من يحققها ، ولكن لا وجود لشىء قدرى محتوم fatal • والتقدم ليس أكيدا كما هو فى عالم هيجل ، وانما نشعر بالمخاطرة خيثما توجهنا •

وتحت تأثير مــــونادولوجيـــا ليبنتس (أى مذهب الذرات الروحية) أخذ رينوفييه يؤكد شيئا فشيئا الاتجاهات الميتافيزيقية فى فلسفته ، ولكن مع احتفاظه بتلك الآراء الأساسية •

وهناك فلاسفة ــ مثل برونشفج Brunschvicg وبرجسون ــ لا يستطيعون التسليم بأن فوييه عندما التجأ الى القوة بوصفها

فكرة ، ورنوفييه عندما جزأ العالم وتخيل عالما أكثر انفصالا discontinu قد حلا مسألة الحرية • ومع ذلك فقد مارس رينوفييه تأثيرا مزدوجا لم يكن تافها • ففي فرنسا — من جهة — نجد أن هاملان ، حين وحد بينه وبين عدوه هيجل ، أراد أن يشيد بفضله نسقا من المقولات يمكن أن ينافس نسق هيجل ، وينتهي مع ذلك الى فكرة الشخصية والحرية ، وفي أمريكا — من جهة أخرى ، نجد أن وليم جيمس ، حين دفع به في اتجاهه المضاد للهيجيلية الى أبعد مدى ممكن ، قد أنشأ بفضله مذهبه التعددى pluralisme وتقبل جوانب معينة من فكرة العلاقات في مذهبه التجريبى المتطرف ، ثم حاول بعد ذلك التوحيد بين رينوفييه وبرجسون •

فاذا نظرنا الى فلسفة القرن التاسع عشر بوصفها صراعا هائلا بين النزعة الهيجيلية والنزعة المضادة للهيجلية ، رأينا أن ليكييه ورينوفييه يحتلان فيها مكانا الى جانب كيركجورد — الذى يشبهه ليكييه في سمات عديدة — والى جانب وليم جيمس •

ويختلف لاشلييه Lachelier عن رافيسون قبل كل شيء في أن الانفصال بين الروح والطبيعة أقوى عنده مما هو عند رافيسون • فهو يحاول العودة بشلنج صوب فشته وكانت وبيران ، ويقال ان كتاب « نقد العقل الخالص » كان مفتوحا على مكتبه دائما على تلك الفقرة الشهيرة « الكوجيتو (أنا أفكر) تصاحب كل تمثلاتي » •

ففلسفته هي فلسفة الانعكاس على الذات ، وهو يناضل ضد النزعة التجريبية ، وضد النزعة التلفيقية l'éclectisme في الوقت نفسه ، ويبين أن النزعة التجريبية لا يمكن أن تقدم الينا سوى وقائع لا روابط بينها • فالامتداد نفسه يفترض الفكر • ولكنه يمتد بتفكير « كانت » بمعنى أنه يضع « نقد ملكة الحكم » على نفس

مستوى كتابى « النقد » الآخرين (١) ، ويذهب الى أن قانون العلية لا تكون له قيمته الا اذا أكمل بقانون الغائية ، وذلك من وجهة نظر مزدوجة : فالغائية هى التى تحول حكم العلية من حكم شرطى ، كما هو فى ماهيته ــ الى حكم حملى catégorique لأنها هى بحق أساس ما فى العالم من انتظام régularité du monde وهى أيضا التى تكون الأنواع • وهكذا فمن الغائية يتولد الواقع ، أو يتولد منها الواقع من حيث أنه مؤلف من فئات وكائنات عضوية •

وفى مقال كتبه لاشلييه بعنوان « علم النفس والميتافيزيقا » يقدم على محاولة استنباط العالم كله من فكرة الوجود ، وهو استنباط غير مرض بحق ، وان يكن الهدف الذى يسعى اليه هذا الاستنباط ، وهو العينى ، المتماسك الحر ، قد تم تحديده بقوة على أقل تقدير •

والواقع أن قيمة لاشلييه ، انما تنحصر بوجه خاص فى ذلك الشعور الذى كان لديه عما يشيع فى الطبيعة من قوة : قوة الأشجار ، والسيول •

ولكنه لم يكن يريد أن يحط من روحه ــ وفى هذه النقطة يعد برونشفج وريثا له ، ــ الى مستوى البحث عن علل ظواهر أدنى منها (أى من الروح) ، فى المجال الغامض للحياة والطبيعة ، اذ لا يمكن أن تكون للروح علة أخرى سوى نفسها •

وكانت قوته الثانية هى ايمانه القائم على نوع من البرهان العقلى ، وهو ايمان فردى تماما • ولا يستطيع اولئك الذين حضروا تلك الجلسة أن ينسوا أبدا موقفه عندما وضع فى مقابل المجتمع الذى كان يؤسه دوركيم اله الفرد المفكر ، اله المتوحد الذى لا يعود

---

(١) اى نقد العقل الخالص ونقد العقل العملى •

الها للمدينة (لمجموع الناس) ولكنه يظل مع ذلك الها يتصف بالفضل ، وهو فى الوقت نفسه تفكير صارم في الفكر .

وينبغى أن نذكر الى جانب ليكيه ورينوفييه واحدا من أكبر أعداء هيجل ، هو اميل بوترو Emile Boutroux .

ولقد وجدنا كونت وكورنو ولاشلييه يعملون على قطع الاتصال (أو فصم الروابط) بين المجالات المختلفة من الواقع والمعرفة ، وهذه هى الفكرة التى ستسيطر على فلسفة اميل بوترو .

فمنذ أن ترجم بوترو كتاب « فلسفة الاغريق » لتسيللر Zeller وقف معارضا للتصور الهيجلى للتاريخ حيث يتابع كل شيء كأنه استنباط لتصوراته . وفى رسالته : « عرضية قوانين الطبيعة» De la contingence des lois de la nature يؤكد الطابع العرضى للقوانين بمعنى ذى ثلاث شعب : الأولى (أى الشعبة) هى أن مجال كل علم غير قابل للرد الى المجال السابق ، كما رأى كونت ، والثانية هى أن كل علم يتألف بواسطة الفروض ، والثالثة هى أن القوانين لا تصدق الا على الحالات فى مجموعها (فى عمومها) لا على الحالات الفردية ، فالعلم دائما حل وسط ، وفضلا عن ذلك فانه كلما بدت الأشياء في صورة دقيقة محددة ، قل طابع الضرورة فيها ، فاذا كان الأمر على هذا النحو استطعنا أن نجد مكانا للحرية . والواقع أننا كلما صعدنا فى سلم العلم ، من المنطق والرياضيات حتى علم النفس ، وجدنا مزيدا من الحرية . أما التجانس والدوام فلا وجود لهما قط الا على سطح الأشياء .

وعند بوترو نجد نفس الفكرة التى نجدها عند رافيسون : فكرة أن ملاحظة العادة تبين لنا كيف أن ما هو آلى يصنع ابتداء من الحى . ولهذا ينبغى أن نجد من وراء الآلى ، والعادة ، والكمى

- ينبغى أن نجد الدينامى (الحركى) والحر والكيفى • وهكذا نجد أنفسنا على الطريق الذى يؤدى الى البرجسونية • فالحيوى لا يرد الى ماهو آلى ، أو حتى الى الغائية ، مثلما أن الغريزى لا يرد الى العقلى •

والشغل الشاغل لبوترو هو أن يحافظ على الفردى وعلى الحر ، وعلى كل عنصر مرن فى العالم ، دون أن يعتقد بهذا أنه قد خان النزعة العقلية ، فكل الفلاسفة العظام قد وضعوا فوق العقل الاستنباطى ملكة أعلى سواء أكان اسمها التعقل noésis عند أفلاطون ، أو الحدس عند ديكارت ، أو القلب عند بسكال (الذى كان بوترو يكن له حبا خاصا) أو العقل الكافى عند ليبنتس ، أو العقل العملى عند كانت ، أو حتى ارادة الاعتقاد عند صديقه وليم جيمس ، فنحن نصل فى كل الأحوال الى اندماج ، ومصالحة ومداولة بين المثل والمغاير •

وتكتمل فلسفة بوترو فى نظريته عن الدين • على أن هذه الفلسفة تصل عند بعض تلاميذه مثل تشايد Chide الى نظرة فوضوية ، أو بالأحرى لا دينية الى الكون •

والى جانب اميل بوترو نستطيع أن نضع الرياضى الكبير هنرى بوانكاريه Henri Poincaré الذى يبين كيف تتميز الرياضيات بمبدئها الاستقرائى عن الاعتبارات المنطقية البحت ، والذى يؤكد أهمية نشاط الانسان فى تكوين فكرة المكان ، ويوضح كيف أن القوانين لا تصدق الا بطريقة احصائية ، وكيف أن العالم يمكن أن يستخدم طرائق مختلفة للتفسير فى آن واحد ، وفيما يتعلق بهذه النقطة الاخيرة بين ماكسويل Maxwell الطريق الذى اتبعه دى بروى de Broglie فيما بعد ، كما يبين لنا أيضا كيف أن العلم نسبى بالقياس الى موقف الانسان ، وهو أخيرا يؤكد أهمية

الطابع الجمالى الذى يمكن أن يرشد العالم فى اختيار فروضه ودور اللاشعور في الاختراع العلمي •

وشيئا فشيئا يتخذ نقد العلوم مكانا أكثر أهمية في الفلسفة الفرنسية • ففي استطاعتنا أن نضيف الى اسماء لالاند Lalande وهانكان Hannequin اسماء علماء من أمثال دوهم Duhem الذى أوضح عنصر التركيب الانسانى فى العلم ، ولوءا Le Roy الذى سيتبع تعاليم برجسون ، وسيعمل على زيادة هذه التعاليم دقة في نقاط معينة ، مبينا كيف أن العلم اقتطاع découpage واقعى du réel • وقد أسهم عمل هؤلاء العلماء فى ايضاح مدى جمود فكرة المذهب الوضعي عن العلم • بيد أن اميل مايرسون ينقد المذهب الوضعي من وجهة نظر أخرى في كتابيه « الهوية والواقع » Identité et Réalité و « مسار الفكر » Cheminement de la pensée ، ولكنه يضع في مقابل كونت نظرية فى العلم تتميز بأنها أكثر استاتيكية (سكونية) بل نستطيع أن نقول انها بمعنى مانظرية أشد تبسيطا ، مادامت تقتصر على أن تكون بحثا عن الهوية تحت صورة العلة ، دون أن تكون بحثا عن قوانين • ويعتقد مايرسون أن العلم لا يستطيع أن يهتدى الى هذه الهوية ، ومن هنا كانت نظرته التشاؤمية الى النشاط الانسانى فى (مجال) العلم • وكان من الممكن تجنب هذه النظرة لو كان قد اتبع في هذه النقطة اشارات « كونت » الذى يعد أشد اخلاصا للروح العلمية الحقيقية ، بعد تخفيف حدتها ، كما حاول ذلك بوانكاريه وميلو Milhaud •

وفى مؤلفات برونشفج الغزيرة نجد تصورا أكثر حرية الى حد بعيد لحياة الروح اذ يذهب الى أن الفلسفة ـ فى جوهرها ـ تأمل للروح الانسانية من حيث أنها تعبر عن نفسها فى الرياضيات والفزياء والأخلاق • ففى تتبعه لمراحل الفكر الرياضى ، والتجربة

الفيزيائية وتجربة الضمير الأخلاقى ، نجده يكشف لنا عن الروح وكأنها تضم الكون فى شبكة من العلاقات تزداد اتساعا على الدوام، بحيث لا يبقى من مبدأ العلية فى نهاية الأمر سوى تأكيد وحدة الكون فحسب ، كما يكشف أيضا عن الروح على أنها قوة باطنة للتشريع • ففى كل مجال يتطابق الوعى النظرى والوعى العلمى بوصفهما تعبيرين عن ارادة للنظام والشمول • وما يوجد فى مبدأ التعميم الفيزيائى وفى مبدأ الأريحية الأخلاقية على السواء ، هو الروح التى لا يمكن أن تشتق مما هو دونها ، والتى لا عمل لها الا أن تتمثل نفسها وأن تمضى باستمرار الى الأمام والى ما وراء ، دون أن يؤلف هذا « الماوراء » علوا أبدا •

وعلى هذا النحـــو يعتقد برونشفج أنه خليفة جول لاشلييه Jules Lachelier • ونستطيع أيضا أن نربط به لانيو Lagneau الذى يجعلنا ندرك عن طريق تحليل للادراك الحسى وجود نشـــاط أعلى للروح حتى فى أقل وظائفها سموا ، ويحاول أن يعود بنا ، عن طريق هذا التحليل ، الى نتـــائج اسـبنوزا • ويرتبط بتأمل لانيو هذا تأمل آلان Alain الذى يعد فى كثير من الاحيان غاية فى الثراء والدقة •

وهكذا تتضح لنا الأشكال المختلفـــة التى تتخـــذها النزعة العقليـــة le rationalisme • فهذه النزعة لا توجد فقط فى فلسفة هاملان وخلفائه ، (وهى فلسفة علاقة تتبدى مع ذلك فى كثير من الأحيان فى صورة مفرطة فى التجريد ، وان كانت تنتهى فى آخر الأمر بتركيب يجمع بين الحرية والشخصية) وانما نجدها أيضا فى فلسفتى لانيو ، وبرونشفج الذى يضع فى مقابل المذهب العقلى التصورى (التجريدى) مذهبا عقليا للروح •

وعلى حين يريد هـــاملان أن يوفق بين هيجـــل ورينوفييه ، يريد برونشفج أن يبتعد عن هذين الفيلسوفين على السواء ، فهو يفضل عقلا أشد مرونة يتتبع منحناه فى مجرى التاريخ ، وهو فى

تأملاته فى العلم يصل من جديد الى الفعل التركيبى L'action synthétique للروح، والى النوع الثالث للمعرفة(١) عند اسبنوزا • وهو يثبت أن كل مذهب (باستثناء مذهب اسبنوزا الذى يتعلق به أكثر من تعلقه بأى مذهب آخر) ينطوى على عنصرين أحدهما وحده هو الصحيح ، على حين أن الآخر ليس سوى عبء ثقيل على حياة الروح واضعاف لها •

ويستمر تفكير برونشفج ، بصورة متحررة ، عند جاستون باشلار ففى نظره أن العلم يكشف لنا عن عالم مصنوع فى جوهره من علاقات عابرة ، أى أن نزعته العقلية هى نزعة فوق العقليـة surrationalisme • وهو يستطيع ـ كما يقول هو نفسه ـ أن يقوم بتعليم العلم ، ومعه أيضا الحلم ـ على قدر ما يمكن تعليمه •

والى جانب ميلو Milhaud وبرونشـــفج ينبغى أن نذكر ف • روه F. Rauh الذى قدم خطوط مذهب تجـريبى جـذرى يمكن أن نقارنه فى عدة نقاط بمذهب وليم جيمس • فهو يتصور العالم مصنوعا من الوجودات ، بل من ماهيات هى فى آن واحد متحدة ولا سبيل الى ردها الى شىء آخر ، وتقول لنا نظريته فى التجربة الأخلاقية كيف ينبغى تحقيق كل فكرة عن طريق احتكاكها بالوقائع ، وبالعقول المختصـــة compétents • والواقع أن هذا المفكر الذى كان هداما ، وكان فى الوقت نفسه بناء ، على عكس ما يبدو عليه ـ يستحق مكانا خاصـا بين أولئك الذين يمكن أن نسميهم طلائع فلسفة المستقبل •

ومن الممـكن أن يزودنا تأمل النقائض الكنتيـة بخيط هاد

(١) المقصود به النوع الحدسى من المعرفة الذى لايسير خطوة خطوة فى الاستدلال • (المترجم)

يرشدنا فى متاهة الفلسفة الفرنسية المعاصرة • فرنوفييه يختار الوجه الايجابى للنقائض les thèses أعنى أن العالم فى نظره متناه فى الزمان وفى المكان ، وينطوى على أفعال حرة ، وفيه اله خالق متعال • أما برونشفج فيختار وجهها السلبى antithèses. بينما يرفض برجسون الوجهين الايجابى والسلبى معا •

***

أهدى برجسون كتابه « المعطيات المباشرة » Données immédiates الى جول لاشلييه ، فوضع بذلك اسم هذا الكنتى فى مستهل هذا الكتاب المضاد لكانت • وهو ان كان قد فعل ذلك فلأنه يوقر هذا الاستاذ العظيم الذى كان لاشلييه ، وربما لأنه تذكر أيضا بعض عبارات لاشلييه عن التتابع اللحنى للوعى ، وعن القوانين المرنة ، وعن التضاد بين سطح الاشياء وبين عمقها •

وحين شرع برجسون فى التفلسف ، كان هناك تلاميذ كونت وتين وجون ستيوارت مل وسبنسر من جهة ، وتلاميذ كانت من جهة أخرى • ووراء الأولين يمكن أن نتبين معالم تراث يرجع بنا الى كوندياك وهيوم وهوبز ، ووراء الآخرين نجد أيضا ، تراثا كاملا يرجع بنا الى ليبنتس وديكارت وأفلاطون ، بيد أن كانت قد أحدث بكل تأكيد نوعا من الثورة داخل هذا التراث نفسه ، ما دام قد تخلى للذهن عن شطر من الواقع ــ وهو الشطر الوحيد الذى نسيطر عليه بواسطة العلم ، محتفظا للعقل ــ كما عرفه بعالم لا سبيل الى معرفته • فى هذا العالم الذى لايعرف ، وحده ، نكون أحرارا •• حرية تكاد تكون رغم أنوفنا • وهكذا لم يحدث قط أن دفع الانفصال الافلاطونى الى أبعد من ذلك ، ولكن مع هذا الوجه الذى يشكل مفارقة بالنسبة الىمفكر أفلاطونى ــ وأعنى به أن ماهو معروف لنا (بواسطة معرفة مشوهة فى الواقع) هو العالم المحسوس ، وما هو مجهول لنا ، بل ما هو غير معقول فى نظرنا

بمعنى ما ، وذلك على الأقل من زاوية المعرفة النظرية ، هو ماأسماه أفلاطون بالعالم المعقول •

وكان هنرى برجسون قد رفض الكنتية منذ أعوامه التى قضاها فى مدرسة المعلمين العليا ، ولكنه بهذا الرفض نفسه اعتقد فى بداية الأمر انه موغم على قبول مذهب سبنسر • ومع ذلك فقد أتت لحظة لم يعد هذا المذهب مقنعا له ، ذلك أن تركيب الكائنات والاحساسات والكون كله ، من عناصر ، جعل العالم يبدو على أنه لعبة ورق هائلة ، وأوحى اليه بأن المشكلة يمكن أن تحل دفعة واحدة ، وبأن الزمان لا دخل له فيها • والتفت برجسون صوب نفسه ، وهذه هى الخطوة التى اتخذها جميع الثوريين العظام فى الفلسفة ، سواء منهم سقراط وديكارت ، وكانت وبرجسون • ولكنه حين تأمل نفسه ، لم يتأمل الأفكار أو الأنا المفكر ، ولم يكتشف الأشكال أو التصورات المجردة concepts وانما وجد سيولة مستمرة كتلك التى اكتشفها وليم جيمس •• وجد لحنا داخليا متصلا ، فحين أسمع الكلمات التى تتركب منها جملة ما ، هل أسمع هذه الكلمات منفصلة ؟ كلا ، وانما أسمعها فى الجملة وبواسطة الجملة • وحين استمع الى لحن ، لا أسمع النغمة التى تحدث فى هذه اللحظة فحسب ، لأن اللحظة شيء مجرد لا وجود له ؛ وانما اسمع أيضا النغمة السابقة والنغمة اللاحقة ، النغمة السابقة متجهة اليها ، والنغمة التالية التى تتجه هى اليها • بل إن الجملة ذاتها لا تنفصل عن الجمل السابقة وعن الجمل اللاحقة ، كما لا تنفصل أجزاء اللحن عن تلك التى سبقتها وتلك التى تليها • وهكذا نستطيع أن نرى فعلا أن حياتنا الواعية انما هى لحن كبير مستمر يبدأ عند ولادتنا وينتهى بموتنا • والواقع أن برجسون ـ الذى كان موسيقيا بعمق ـ كان مولعا بهذه المقارنات الموسيقية ••

وهكذا ، فان المدة الحقيقية ليست هى الزمان الذى يدمغه المكان والمجتمع بطابعهما ـ ذلك الزمان الذى نقرؤه فى المكان حين ننظر الى ساعات أيدينا وساعات الحائط ، بل هو بالأحرى زمان الصبر ونفاد الصبر ، زمان الندم والأمل ٠٠ زمان جميع المشاعر التى تتعاقب فى أعماقنا دون أن نستطيع أن نقـول أحيـانا متى ينتهى أحـــدها ويبـــدأ الآخـــر ، فهو ذلك اللاتجانس الكيفى Hétérogénéité qualitative الذى لا علاقة له بالعدد ، ولكن اذا كان الأمر على هذا النحـــو ، فاننا لا نتخلص فقط من الفزياء النفسية psychophysique التى تحاول قياس حالات الوعى اذ أن الشدة هى نفسها مقياس ، والقيـــاس لايمكن تطبيقه هنا الا بصعوبة ، وانما نتخلص أيضا من الحتمية déterminisme اذ أنه لما كان الأنا فى كل لحظة وحدة واندماجا فى جوهره ، فان الحتمية تميز وتحصى دوافع تعتقد أنها قادرة على عزلها من تيار الأناء ، وعلى حين أن كل لحظة تتحد باللحظة السابقة اتحادا عميقا ، فان الحتمية تقول انها محددة باللحظة الســابقة ٠ كلا ، انها هى والسابقة شيء واحد ، وهما معــا الأنا بأكمله الذى لا ينقسم الى لحظات منفصلة ، ولا ينقسم الى دوافــع منفصلة ، بل يجرى كما يجرى النهر وينضج كما تنضج الثمرة ، ويسرى كما يسرى اللحن٠

واذا كان أصـــحاب النزعة الحتمية والنزعة الترابطيـــة ينكرون الحرية ، فذلك لأنهم يحللون الوعى ـ بطريقة مزدوجة ـ فى الزمان (الذى يصبح فى نظرهم نوعا من المكان ماداموا ينظرون اليه على أنه لحظات يوضع بعضها بجوار البعض)وفى المكان ، ذلك الضرب من المكان الذهنى الذى يخلقونه ، والذى يرصـون فيه حالات الوعى ٠ واذا كان الكنتيون يقصرون الحرية على عالم الأشــــياء فى ذاتها (النومين) فذلك لأنهم يتفقون مع

الحتميين والترابطيين حـول عالم الظواهر ، ولايسـتطيعون بالتالي أن يستردوا الحرية في عالم آخر ، خارج عن الزمان. وهكذا يأبى الجانبان معا الحرية على الانسان لأنهما يتصوران الزمان تصورا زائفا ، ولايفطنان الى أنه لاينبغى وضع الزمان والمكان على مستوى واحد ، ذلك لأن المكان فى مجموعه — هو ما قاله عنه كانت — أى هو صورة من صور العقل الانسـانى الذى يسقطها على العالم . بيد أن الزمان الحقيقى شيء يختلف عن ذلك كل الاختلاف . انه جوهر الأنا ، بل سـيقول عنـه برجسون فيما بعد انه جوهر الاشياء نفسها ، وجوهر الوجود، فبواسطته ، نكون — فى أنفسـنا — متصلين بالواقع الأساسى . وهذه هى القضية الأساسية فى البرجسونية وتأكيدها الأول.

وعلى هذا النحو نتخلص من ذلك النوع من النزعة الايلية éléatisme الـكامنة فى الفـكر الانسـانى . فليسـت مغالطات زينون (الايلى) مغالطات الا لأنها تخلط بين انطـلاق السـهم الذى لاسبيل الى تحليله وبين المراكز التى يبدو أنه يحتلها فى المكان الوهمى الذى يفترضه العقل الانسـانى من ورائه . واذن فكل حركة غير قابلة للتحليل indécomposable .

وحينئذ يصير الجديد ممكنا مرة أخرى ، ويستعيد العالم طابع الجدة فيه ، ونبتعد بذلك عن عالم لابلاس وتين وسبنسر، حيث ينطوى الماضى — من حيث المبدأ — على المستقبل .

والواقع أن المستقبل مختلف عن الماضى اختلافا جوهريا، وهذه طريقة أخرى لقولنـا : ان المدة لا ترد الى المكان المجرد . وما هو بسبيله الى أن يكون se faisant لا يمكن أن يفسر تفسيرا تاما بما كان وانتهى tout-fait ، والا كان بدوره شيئا منتهيا .

والحجة التى يسوقها برجسون لتأييد الحرية تقوم على أننا لانستطيع أن نعبر بطريقة موضوعية عما لايوجد الا بوصفه شيئا معيشا vécu ، وعلى أننا لا نستطيع أن نصل الى جوهر الفعل الحر الا اذا اتخذنا لأنفسنا وجهة نظر الفرد فى اللحظة التى يشرع فيها فى القيام بفعله دون أن يكون على يقين من قراره الخاص .

وهكذا يكشف لنا برجسون ، من وراء الأنا السطحى الذى يمكن التنبؤ بقراراته ، عن «أنا» عميق تتحد فيه المشاعر والأفكار جميعا اتحادا لا انفصام له .

ولا يبقى أمام برجسون — فى المؤلفات التى أعقبت كتابه « المعطيات المباشرة » الا أن يزداد وعيا بالطابع الكونى الحقيقى للمدة ، لا بطابعها النفسى فحسب ، اذ لم يكن فى كتابه « المعطيات المباشرة » يتصور المدة فى أغلب الأحيان الا على أنها تركيب للادراك الذاتى aperception على طريقة كانت.

وثمة نقطة ثانية مكملة للأولى كان لابد أن تضاف بشأنها تحسينات (أو لمسات جديدة) الى نتائج « المعطيات المباشرة » وأعنى بها الانكار الضمنى لكل مكان نشعر به ، ولكل مكان كيفى، على الأقل فى لحظات معينة . الا نستطيع القول — كما ذهب بعض الخصوم بالفعل — أن برجسون قد وضع المكان الكمى فى مقابل الزمان الكيفى ، مع أن هناك مكانا كيفا يناظر الزمان الكيفى؟ الحق أن فقرات معينة من كتابه « المعطيات المباشرة » تدل على أن برجسون قد فطن بالفعل الى هذا المكان الكيفى ، وأنه قد وجد اثره فى التمثل الذى لا شك أن الحيوانات والبدائيين والأطفال يكونونه عن العالم الخارجى .

فى هاتين النقطتين ، كان لزاما عليه أن يمضى قدما ليزداد اقترابا من المعطى le donné

وعند هذا الموضع ينبغى ان نسترعى الانتباه ألى ماتنطوى عليه هذه المحاولة من مفارقة ، فبرجسون يبحث عن المعطى • وهذا معناه أن المعطى لا يعطى لوعى يظل على السطح بالنسبة الى ذاته ، وأنه لابد أن نبذل مجهودا لكى نمضى صوب المباشر • واذن فالمباشر ليس مباشرا ، أو هو بالأحرى ليس مباشرا الا اذا حطمنا فى هذا الجهد الذى نبذله ، فى الوصول اليه ، الحواجز التى تحول دون رؤيته •

وينبغى قبل أن نترك كتاب « المعطيات المباشرة » أن نشير أيضا الى بعض الصعوبات المتعلقة بموضوع الحرية • فالحتميون يقولون دائما ، معبرين عن المفهوم البرجسونى من خلال لغتهم ان هذه الحرية ليست الا تحددا لشيء بذاته • وكان عبارة « تحدد يكذا ..» détermination لا تنطوى بدورها ضمنا على ذلك الانفصال بين اللحظات ، الذى يريد برجسون تجاوزه • وهم دائما يقولون : ان برجسون ، بدلا من أن يؤكد الحرية ، يؤكد أن المشكلة قد اسيء وضعها ، وأنه لا حل لها فى الحقيقة • ولا شك أن لهذه الملاحظة الأخيرة نصيبا كبيرا من الصواب ، فمشكلة الحرية تنتزع ــ بطريقة أخرى غير طريقة كانت ــ من مجال العلم لكى توضع فى مجال الاعتقاد والفعل .• ومحاولة البرهان على الحرية ، بل محاولة صياغتها ، أو بعبارة موجزة ــ الكلام عن الحرية ، هو بالضرورة اعطاء الحجة للخصم • فالحرية ليست مذهبا ، ولكنها طريقة حياة •

ان البرجسونية ــ كما يعبر عنها كتاب « المعطيات المباشرة » ــ جزء من حركة عقلية وجمالية (استيطيقية) هائلة وجدت لها تعبيرا فى فن التصوير الانطباعى ، وفى الشعر الرمزى ، وستجد تعبيرا عنها فيما بعد فى موسيقى ديبوسى • ولقد كان برجسون يريد أن يعيد الأنا الى ذاته « كما يعود فى الحلم » ، ويريد أن

يضعه ازاء « الانطباعات » ، والجو الموسيقى الذى يشيع فى فلسفته هو نفسه الذى يشيع فى قصائد الرمزيين .

ولكنه لم يلبث أن تجاوز هذه الحركة على الرغم من اتساعها. فمن الخطأ الاعتقاد بأنه لم يكن يطالب من الانسان ، كما كان يطلب بعض الشعراء الرمزيين — الا أن يترك زمام نفسه للانطباعات والاحلام فحسب . فالفصل الخاص بالحرية يذكرنا بأننا فى الحياة ، وبأنه لا ينبغى علينا أن نظل عاكفين على اللحن الداخلى، كما كانت نزعة برجسون الفردية البدائية تميل به فى أول الأمر الى مثل هذا الاعتقاد . وهذا الفصل يذكرنا ايضا بأن الانسان الحقيقى هو الذى يبدع نفسه وهو الذى يقوم بعملية خلق ذاته بذاته . كذلك فاننا نستطيع أن نتتبع فى سياق الكتاب كله « جهدا قويا من التأمل الفكرى » يختلف اختلافا بينا عن احلام اليقظة .

ومنذ هذا الكتاب الأول بدا أن برجسون هو أول فيلسوف — منذ هرقليطس — اخذ الزمان مأخذ الجد ، على حد تعبير الفيلسوف الانجليزى العميق صمويل الكسندر S. Alexander وهؤلاء الذين يتبعون اليوم سبل هوايتهد وهوسرل وهيدجر ويعكفون على دراسة طبيعة الزمان ما زالوا يستطيعون أن يتعلموا أشياء كثيرة من برجسون .

ولقد كان برجسون ، فى كل مرة يقوم فيها بكتابة أحد مؤلفاته العظيمة ، يبدأ من افكار خاصة تماما ، ويحرص على دراسة المشكلة وكأنه لا يعرف عنها شيئا من قبل . فلا عجب اذن أن كانت نتائجه تبدو لأول وهلة غير متطابقة فيما بينها كل التطابق . ولكنه يعتقد أن الحقيقة توجد عند نقطة التقاء هذه اللحظات المختلفة التى نصل الى كل منها بفكرة خاصة جدا عن المشكلات المحددة .

ففى كتاب « المعطيات المباشرة » كنا ازاء مدة يشعر بهـا الوعى ، تبدو منفصلة عن الحياة المادية وعن الفعل ، وكنا فيه نستسلم للاحلام (وخاصة فى الفصل الثانى) . ولكن ألا مجال ها هنا لكى ندرك ، من جهة ، أهمية الرأى المادى الذى ينكر امكان وجود حياة واعية منفصلة عن الحياة العضوية على هذا النحو ، ونبحث ، من جهة أخرى ، فيما اذا كان من الواجب التخلى عن الحلم من أجل الفعل الذى مهد له الفصـل الأخير من الكتاب السابق ؟ وأن كتاب « المادة والذاكرة » Matière et Mémoire يستجيب لهذين المطلبين ، اللذين لم يثر برجسون ثانيهما بوضوح الا فى الكتاب الذى أعقبه . فالماديون الذين يستندون الى وقائع الذاكرة يزعمون أنهم يستمدون الوعى من المخ . ولكن برجسون يهاجمهم على أرضهم نفسها مبينا أن المخ ليس أصل الذاكرة ، وانما هو بالأحرى ما يوجه مجراها فى علاقاتها بالواقع ، وهو ـ من جهة أخرى ـ مايكبت شطرا منها ، ويقمعه فى مجال اللاشعور ..
من جهة أخرى ـ مايكبت شطرا منها، ويقمعه فى مجال اللاشعور..
فالمخ هو جهاز للتعبير expression والكبت répression ولكنه ليس أصل الذاكرة بحال من الاحوال .

وعلى هذا النحو يمكن أن يفسر المخ شـكلا من الشـكلين الكبيرين للذاكرة .. وهذا الشكل ليس هو الذاكرة فى الواقع ؛ وانما الأصح انه شكل من أشكال العادة ، أو « ذاكرة العـادة » التى نصعد بواسطتها من الميكانيزمات الى داخل أنفسنا ، بدرجات متفاوتة من البطء . ولكن لا يستطيع أن يفسر الشكل الآخر ، الشكل الحقيقى للذاكرة، وهو ذاكرة الاستعادة la mémoire-souvenir التى يتفق جوهرها مع جوهر حياتنا النفسية ، وينطبع بواسطتها الادراك الحسى أو الشـعور فى ذاكرتنـا ، فى نفس الوقت الذى يتتابعان فيه فى وعينا ، بحيث تكون الحياة النفسية هى هـذا

التعايش فينا بين الحاضر والماضي ، وان يكن ذلك ماضيا يكبت عادة تحت تأثير الجسم والفعل .

ونستطيع أن نقول : اننا من حيث المبدأ ، نتذكر كل شيء . وهنا نرى سمة أساسية من سمات المنهج البرجسونى فى حل المشكلات . فما يتطلب التفسير ليس هو التذكر بل هو النسيان . والايجابى هو الذى يعطى فى هذه الرؤية الايجابية الخصبة ، وهو لا يحتاج الى أن يشيد ، ذلك أن الماضى هنا انما هو معطى مباشر مثلما كان التدفق «l'écoulement» فى « المعطيات المباشرة » أى أن مجموع الذكريات يعطى لنا دفعة واحدة (وان لم يكن من الممكن بمعنى آخر أن يعطى لنا — وانما يبقى دائما فى حالة امكان) — وهذا معناه أننا نضع أنفسنا دفعة واحدة فى الماضى . ولا حاجة بنا مطلقا للميكانزمات المعقدة التى كان يلجأ اليها شخص مثل تين لتفسير اعادة بناء الماضى ابتداء من الحاضر . فالماضى يتكون فينا باستمرار ، وعن طريق الاستعادة نأخذ مكاننا فيه ، هذا اذا سمحنا لأنفسنا أن نقتبس استعارة مكانية لوصف واقعة تند عن المكان .

وهكذا نرى كيف اتسع المباشر حتى استوعب ماضينا كله . وقد كانت هذه فكرة متضمنة فى الاتجاه الذى سلكه كتاب « المعطيات المباشرة » مادمنا لا نستطيع أن نفصل بين الماضى والحاضر ، ومادام من غير الممكن — اذا كان لابد للاستعادة من أن تولد — أن نجد أن لحظة أخرى لميلادها سوى نفس اللحظة التى يعاش فيها الادراك الحسى والشعور .

ولكننا نرى أيضا كيف يضاف الى الزمان بعد جديد على نحو ما . فبينما كان الزمان فى كتاب « المعطيات المباشرة » مؤسسا فى الحاضر ، نجده هنا (أى فى كتاب «المادة والذاكرة») ينفصل عنه ، ويحيا فى شيء أشبه ببعد خاص به ، ويتحول اللحن

الداخلى الى نوع من الفوجه fugue يستخدم فيه صوتان .

وكذلك فان الفعل أو الجسم ــ اللذين لم يحسب لهما كتاب « المعطيات المباشرة » الا حســابا ضــئيلا ــ يعودان الى المطالبة بدورهما ، وان يكن ذلك دورا سلبيا تحديديا limitatif

ولو واجه المرء نظرية « التذكر الخالص » بنظرية « المعطيات المباشرة » لتولدت عن ذلك صعوبات عديدة . ألا تجعلنا الاستعادة الخالصة نصل الى ضرب من الأزلية الاسبنوزية ؟ واليس من العجيب أن استعادة العادة souvenir-habitude هى التى يبدو انها تطالب باسترداد الزمان ؟ ولكن ينبغى أن نقول ان التذكر الخالص ليس سوى ضرب من الانعكاس الكامن ، أما فيما يختص باستعادة العادة فربما لم نجد لها تفســيرا الا بادراجها ضمن الدفعة الحيوية l'élan vital التى يضع الكتاب التالى خطوطها الاجمالية .

واذا كان من الحق أن المخ لا يقوم بالنسبة الى الذاكرة الا بدور تحديدى ، مرتبط بمقتضيات الفعل ، ألا ينطبق ذلك أيضا على الادراك الحسى ؟ يبين برجسون ــ متوسعا فى فكرته هــذه كيف أننا لا نتصل اتصالا مباشرا بالماضى وحده ، ولكن بالأشياء ايضا . فنحن على اتصال مباشر بالماضى بواسطة ما يوجد فينا من عنصر لا مادى ، أو بالأحرى ، لأننا موجودون « فى اللامادى» l'immatériel: ونحن على اتصال مباشر بالأشياء عن طريق مايوجد فينا من عنصر مادى ، أو بالأحرى لاننا موجودون فى المادة . وكل شىء (أو موضوع) أيا كان ، يستطيع أن يدرك ، بالمعنى الواسع لكلمة « الادراك » percevoir ، وهو المعنى الذى كانت لدى ليبنتس من قبل فكرة عنه . فالمنضدة التى أكتب عليها تدرك العالم المادى كله ، أى أنها تتلقى منه مؤثرات . وأنا نفسى ــ لا أدرك ســوى شطر من هذه المؤثرات ادراكا واعيا . ذلك لأن «الادراك الواعى»

و « ادراك أشياء قليلة » عبارتان مترادفتان • فالوعي انتقاء • ولكن ، لماذا كنا أدوات انتقاء على هذا النحو ؟ لأننا مراكز للاتحديد centres d'indétermination وهكذا يترابط الفعل والوعي والتحديد limitation .

ولكن هناك ، تحت هذا المستوى الواعي الشخصي ادراكا يمكن أن يسمى لاشخصيا ، يقول برجسون انني أضع به ذاتي دفعة واحدة في العالم المادي عامة . وهذا العالم المادي ليس هو الامتداد الديكارتي الخالص ، وانما لديه كيفيات ثانوية كما أن لديه كيفيات أولية • فهو قريب من عالم الأفكار الذي يتفق مع الاشياء عند باركلي . وبهذه النظرية في الادراك الحسي نوضع في المادة . وهي مادة غنية متنوعة مثلما ان نظرية الذاكرة قد أعادت وضعنا في الروح .

وهكذا يتراءى لنا عدد كبير من مستويات الواقع : مستوى العالم المادي واللاوعي ، ومستوى الفعل ، ومستوى الحلم ، وبين مستوى الفعل ومستوى الحلم تقع مستويات لا متناهية • فاذا وضعنا في اعتبارنا هذه المستويات أمكننا أن ندرس حياتنا النفسية التي تقع دائما في واحد من هذه المستويات الوسيطة • وحتى اذا كانت الافكار العامة وترابطات الافكار تتولد على مستوى الفعل ، فانها تكتسب ثراءها ودقتها عن طريق تقبل عناصر من مستوى الحلم • اننا في الحاضر ، والحاضر الذي كان غير منفصل عن الماضي في كتاب « المعطيات المباشرة » ينفصل عنه في هذا الكتاب ، بمعنى أن تعريفه يتم الآن من خلال معان حسية حركية sensori-moteurs كلحظة الفعل • بيد أننا لا نستطيع أن نتصرف حقا في هذا الحاضر الا باستحضار ذكريات معينة ، وهكذا يحدث نوع من الذهاب والاياب بين مستوى الفعل ومستوى الحلم ، وينتقل المجهود — وبخاصة المجهود الذهني — من الواحد الى الآخر دون انقطاع •

اذن فنحن لسنا فقط في مستوى قريب غاية القرب من مستوى الحلم ، كما كنا في الفصل الثاني من كتاب « المعطيات المباشرة » ، بل لا بد لنا من أن نندمج في مستوى الفعل ، بحيث نضفي بذلك معنى أكثر واقعية على تعبيرات الفصل الاخير من كتاب « المعطيات » • .

وهنا أيضا يستمر نقد برجسون للنزعة الترابطية • فيكفي أن نتساءل عما يعنيه فهم أية جملة مسموعة لكي نرى كيف تنهار دعائم النزعة الترابطية • فالفعل الذى نفهم به الكلمات المسموعة لا يفسر على أساس أن كل كلمة من تلك الكلمات تطبع فى النفس ، واحدة تلو الاخرى ، الافكار التي تشبهها ، وانما يفسر بالأحرى على أساس ذلك الفعل الذى تضع به الروح نفسها على مستوى يناظر مستوى المتحدث ، فتضع فروضا تتيح لها تحليل الجملة وفقا لايقاعات ملائمة •

ولكن اذ اكان الامر على هذا النحو ألا يمكن أن نشعر فى أنفسنا باتصال رأسى لمستوياتنا فى الحياة ، لا بمجرد اتصال أفقى للحظات حياتنا فحسب ؟ ، وألا يمكن أن نوسع هذه الفكرة وأن نستبدل بثنائيتنا البدائية اتصالا شاملا continuité universelle ؟ لقد بدت النظرية البرجسونية في بداية الامر نزعة ثنائية ، بل نستطيع أن نقول انها بدت كنزعة مانوية : فهناك المدة la durée من جهة ، والمكان من جهة أخرى ، وهناك الحر فى مقابل الحتمى ، والفردى فى مقابل الاجتماعى ، والميلودية الداخلية فى مقابل الفعل ، والروح فى مقابل المادة ، والتذكر الخالص فى مقابل تذكر العادة والحدس فى مقابل العقل ، والكيف فى مقابل الكم • ولكن ألم نر أيضا أن المدة لا تجانس كيفى في كتاب «المعطيات» وأن هناك فى كتاب «المادة والذاكرة» من جهة أخرى ـ مستويات متباينة من

الوعى ؟ ألا نســـتطيع تعريف هذه المستويات ؟ لن تكون هـذه المستويات منفصلة مكانيا بالطبع ، وانما سنميز بينها على أساس مدى تفاوت درجة الشدة والتجاوب اللذين نحيـــا بهما فى كل مســـتوى من هذه المستويات • والكيف هو نـوع من التذبذب والاهتزاز الذى يحدث فى الذات وعلى الذات • أما الكم فهو زوال التوتر distention • ان رنين السهم شيء حقيقي ، أما انتقال السهم في المكان ، فترجمة سطحية •

وهكذا فان برجسون ، بعـــد أن قضى على فـكرة الشـــدة intensite ــ أو على الاقل ضيق نطاقها ــ يلجأ الى فكرة التوتر tension لكي يبين أنه لا توجد ، فى كل الاحوال ، الا اختلافات في التوتر تطرأ على حقيقة واقعية واحدة • فهو يقوم بتوحيد ماسبق أن قام بفصله • ان كل شيء تذبذب vibration • غير أن المادة ذبذبة منتشرة ومخففة ، ان جاز هذا التعبير ، أما الروح فذبذبة مركزة • ولم يعد التمييز بين الروح والمادة يتم على أســاس فكرة المكان ، وانما على أساس فكرة الزمان (وان كنا نستطيع أن نتساءل : ان لم تكن فكرة التوتر تنطوى بالضرورة على تمثل للعدد) • وهكذا نجد لا تجانسا كيفيا رأسيا يتجه من المادة صوب الروح ، وتتخذ الانفصالات الظاهرة مكانها في داخل اتصال حقيقي continuité réelle

ومنذ الآن ، نرى برجسون الذى ارتبـط فكره فى البداية بسبنسر ، يرتبط بالأحرى بأفلوطين • وبين الاثنين تتدخل مؤثرات أخرى ، كتأثير مين دى بيران وبركلى •

وبكتاب « التطور الخالق » يعود برجسون الى مذهب سبنسر الذى بدأ منه ، ولكنه يعود مسلحا بنتائج كتابى «المعطيات المباشرة» و «المادة والذاكرة» ويخوض مع ذلك المشكلة فى ذاتها • فهو يقبل

نظرة التطور ، بل يعتقد أنه ينبغي علينا أن نقبلها نهائيا . بيد أن التطور على النحو الذى يتصوره ليس تركيبا من عناصر كانت فى البداية مفككة بطريقة مصطنعة ، وانما هو تطور خالق ، منتج للجديد ، ولغير المتوقع . وهذا معنـــاه أن مسار الدفعة الحيوية l'élan vital (وهو الاسم الذى يطلقه على هذه القوة التى تسرى عبر الأنواع من جرثومة الى جرثومة) لا يمكن تفسيره لا بالعلية ، ولا بالغائية ، ذلك أن هاتين الطريقتين فى التفسير ، اللتين تخضع احداهما كل شيء لما سبق ، وتخضع الاخرى كل شيء لما سيتلو ، تتســـاويان آخر الامر فى انكارهما للزمان كمـــا أنهمـــا ملائمتان لعمليات العقل الحاسب ، لا لحركات الحياة .

ويعرض برجسون ، فى جرأة فائقة لا نجد لها نظيرا فى الفكر المعاصر ، لوحة للأنواع الحيوانية . ويبين أنه لا وجود لخط واحد للتطور فى هذه الانواع ، وانما هناك خطان ، أحدهما ينتهى عند حشرات معينة ، والآخر ينتهى عند الانسان ، وعلى هـــذا التصور البيولوجى تستند نظرية برجسون فى المعرفة ، وذلك على الاقل فى العرض الذى يقدمه لها فى هذا الكتاب ، ذلك أنه اذا كانت لغريزة الحشرات مزاياها من الكمال ومن الادراك المبـــاشر ، وعيوبها من الجزئية وعدم القدرة على التكيف ، واذا كان للعقل الانسانى — من ناحية أخرى — عيـــوبه أيضا ، لأنه اذا تكيف مع ظروف جديدة فذلك لأنه ليس معرفة بمادة ، وانما معرفة بصورة — اذا كان الامر على هذا النحو ، فهلا يمكن التوحيد بينهما (غريزة الحشرات وعقل الانسان) فى ملكة للمعرفة يمكن أن نسميها الحدس وتكون تعاطفا كالغريزة ولكنها عقلية كالعقل ؟ الواقع أن ذكاءنا محوط بمنطقة من الغريزة يتعين عليه أن يعمل على ادراجها فى ذاته ، واذن فالتعاطف العقلى هو تعريف الحدس حين نعيد ادراجه فى مجموع التطور ، ولكننا نستطيع تعريفه أيضا بطريقة أكثر ميتافيزيقية وأقل اعتمادا

على الآراء الواردة فى كتابه « التطور الخالق » بأنه تطابق الذات والموضوع ، وبأنه معرفة بالمطلق في مقابل المعرفة العقلية التى هى نسبية دائما (كما يقول في كتاب «المدخل الى الميتافيزيقا») وعلى انه معرفة للروح (كما يقول فى مقدمة كتاب «الفكر والمتحرك») — وهى كلها تعريفات يكمل بعضها بعضا ، ولا يهدمه •

ويتصف العالم الحيوانى الذى رأينا اتجاهيه ، بأنه معتمد بأكمله ، في وجوده ، على العـالم النباتى ، أو فى الواقع على وظيفة التمثيل الكلوروفيلي للنبات ، التى يتم بها اختزان الطاقة الشمسية، وتتأخر بها حركة السقوط ، أو حركة التسوية nivellement التى تميز عالمنا ، بل ربما أرجئت الى أجل غير مسمى •

هانحن أولاء نرى اذن أن الدفعة الحيوية تنقسم الى جمود فى العالم النباتى ، والى غريزة وذكاء فى العالم الحيوانى •• فمن أين يأتى ما يمكن أن نسميه بالانقسام الثلاثي لهذه الدفعة ؟ انه يأتى من الطبيعة النفسية للدفعة الحيوية التى تنمى اتجاهاتها على هيئة أشبه بالمروحة ، تكون فيها الوحدة فى البداية لا فى النهاية (وان تكن تستطيع ، بفضل الجهد الانسانى ، أن تكتسب من جديد فى النهاية بواسطة الحدس) ، كما أنها تأتى من مقاومة المادة التى ينبغى أن تنقسم الدفعة الحيوية لكى تمر من خلالها •

ولكن ، ماذا تكون هذه المادة في ذاتها ؟ لقد بين لنا الفصل الأخير من كتاب « المادة والذاكرة » مقدما ، أنها نوع من التراخى فى الروح • فالامتداد نوع من ارتخاء التوتر distention والمكان فى جوهره فاصل intervalle ومسافة ، على حين أن المدة la durée تركيز وتوتر • ويعود كتـاب « التطور الخالق » الى هـذه الفكرة الواردة فى كتاب « المعطيات المباشرة » من جديد ، ولكن بصورة أشد ديناميه •

ولعلنا نستطيع القول بأننا نصل هنا الى الحدس الفلسفى الأساسى عند برجسون · فهذا الحدس ينحصر في الرأى القائل بوجود تزايد ونقصان في التوتر ، بحيث يكون التزايد اشتدادا في الروحية ، والنقصان ايغالا في المادية · فاذا سرنا فى اتجاه التوتر المتزايد ، وجدنا النفس والحرية والابداع ، أما اذا سرنا في الاتجاه العكسى ، فسنجد المادة والحتمية والهوية والموت ·

ويرمز الى الصلة بين هاتين الحالتين المتطرفتين رمزا جيدا بالتعارض بين الحركة من حيث هى واقع وبين التحليل الايلى للحركة الى عناصرها · فالعقل يسعى دائما الى تأليف الشبيه مع شبيهه ، والى القضاء على الكيف اللامتجانس فى سبيل الكم المتجانس · فالسهم يقوم بحركة بسيطة ، ولكن العقل يقسمها ولا يستطيع أن يفهم منها شيئا · وكذلك حركة الرؤية الخالقة ، والرؤية نفسها هى حركة بسيطة ، بيد أن العقل لا يستطيع تفسيرها · وكذلك سنرى أيضا أن هناك حركة بسيطة فى أصل الكون ، لا تستطيع خطوات العقل جميعا أن تسمح لنا بفهمها ·

هذه الحركة مطلقة · وجميع الآراء التى سنتخذها عنها آراء سطحية ، ونحن لا نستطيع أن نشعر بها فى طابعها المطلق الا بالاندماج فيها فحسب · وحين يبين برجسون أن ظروف التطور تتحد مع النوع الجديد ، وحين يبين تلاقى ظواهر معينة فى السلاسل الحيوانيـة المختلفة ، يتذكر القارىء ما قاله عن الفعل الحر وعن بعض الخواطر وترابطات الأفكار فى كتابه « المعطيات المباشرة » ومن جهة أخرى فان كل ما نقوله عن دور العناصر العصبية وعن دور الجسم عامة ، يعيد الى ذاكرة القارىء كتاب « المادة والذاكرة » · وهكذا يبدو أن الكتابين السابقين حاضران معا فى داخل كتاب « التطور الخالق » ·

وقد يكون من المناسب أن نلقى ضوءا على الطريقة التى يتم بها تحليل بعض الأفكار وتفكيكها ، كما فعل فى فكرة العلية ، اننى ينتقد بعض الآراء الأخرى بشأنها ، ويهدمها • ومن هـذه الأفكار الأخرى : فكرة العدم واللانظام فى كتاب « التطور الخالق » ، وفكرة الممكن في محاضرة ألقاها في مؤتمر الفلسفة ، كما أن فكرة الشدة intensité قد وضعت موضع التسـاؤل في مسـتهل كتاب « المعطيات المباشرة » • فدراسة فكرة العدم تقترن بدراسة محاورة « السفسـطائى » لأفلاطـون • أما نقد فكـرة الممكن فيعمق بعض أقوال اسبنوزا •

ويشيد برجسون نزعة واقعية مختلفة عما يسـميه الواقعية المبتذلة ، وهذه الواقعية تكاد تتطابق مع نزعة مثـالية متطرفة • وهذا ما نراه خاصة فى نظرية الصور images فى مستهل كتابه « المادة والذاكرة » •

وليس من الممكن بأن تسـمى نظريته واحدية moniste أو تعددية ، أو حتى ثنائية • فهذه التسميات العددية لا تناسبه ، ذلك أن نظريته تؤكد فى وقت واحد التعددات اللامتجانسة والثنائيات، ثم تؤكد الوحدة ، بصورة أعمق •

وليس من شك أن برجسـون قد فكر مرارا فى تلك الصفحة الرائعة من كتاب « العقل » التى يصف لنا فيها « تين » العالم فى صورة الألعاب النـارية أو نافورة الميـاه التى تتهـاوى مساراتها المنحنية فى الظلمات ، بيد أن شعلة من تلك النار تفلت ـ فى نظر برجسون ـ من السقوط ، وتواصل رحلتها عبر جميع الصواريخ المتساقطة الى الأعالى ، مقتربة دائما من المركز •

وحين ننتقل من كتـاب المعطيـات المباشرة أو كتاب « المـادة والذاكرة » الى كتـاب « التطور الخـالق » تنقلب كثير من وجهات

النظر رأسا على عقب • فالحلم ، بل والتذكر يبدوان أحيانا وكأنهما قد أصبحا المستوى الأدنى لحياة الروح ، على حين ينتقل تركيز الماضي في الحاضر الى المستوى الأعلى • ومع ذلك يظل من الصحيح — كما رأينا — ان هذه المؤلفات تنطوى فى داخلها على وحدة عميقة •

ويوحى كتاب « التطور الخالق » بأن « الدفعة الحيوية » ربما أتت من مصدر أعلى منها ، وبالفعل أكد برجسون فى رسالة الى الأب دى تونكديك De Tonquedec أن الاصل الذى صدرت عنه عال عليها • وفى كتاب «المدخل الى الميتافيزيقا» نستشف أن أعلى درجات التوتر هي ما يسميه بأزلية الحياة ، التى لا يمكن الا أن تكون أزلية الهية • وقد أخذ برجسون يعد لفترة طويلة كتابا يجمع ، فى فكره ، بين نظريته في الاخلاق وفى الجمال ، وفلسفته فى الدين في آن واحد • وكان هذا الاعداد يتألف بخاصة من قراءة المتصوفة ، بادئا بمدام جيون Guyon ثم بالمتصوفة الاكثر التزاما بتعاليم الدين (أرثوذكسية) مثل القديس يوحنا الصليبى والقديسة تريزا • وكانت حصيلة هذه التأملات كتابه « منبعا الاخلاق والدين » الذى حاول فيه تلخيص النتائج الاخيرة لتفكيره •

وهنا أيضا تتضح ثنائية برجسون فهناك من جهة الاخلاق المغلقة والدين المغلق الذى يتحقق فى القبائل المتوحشة وأولئك الذين يريدون العودة الى أخلاق هذه القبائل ، وهناك — من جهة أخرى — الاخلاق المفتوحة ، والدين المفتوح •

فأخلاق الأسرة أخلاق مغلقة ، ومنها نستطيع أن ننتقل الى أخلاق الامة ، التى هي مغلقة أيضا • ولكن لكى نمضى الى أخلاق تنفتح للانسانية كلها ، وتطل على الانسانية كلها ، فلا بد من أن نمر بالدين المفتوح ، وباله الأنبياء ، واله المسيح •

ان أخلاق برجسون أخلاق العاطفة ، مثلما أن الاستطيقا (علم

الجمال) عنده ، هي استطيقا العاطفة • ونستطيع أن نتتبع نمو هذه الاستطيقا البرجسونية منذ ظهور « المعطيات المباشرة » حيث يؤكد برجسون الحركة والرشاقة la grâce ، ويشبه الشعور الجمالى بنوع من حالة التنويم المغناطيسى (الخدر) حتى نصل الى استطيقا « الضحك » Rire حيث يؤكد أهمية التجديد والدهشة عند الفنان ، وأهمية بحث الفنان عن الانطباع الساذج ، والصفاء الأصيل ، بل يؤكد أحيانا ــ فى فقرة تجعلنا نتنبأ بروايات بروست ــ ذلك اللامعقول الاساسى الذى يمكن كشفه فى الطبيعة الانسانية ، حتى نصل الى استطيقا الاختراع والجهد الذهنى ، الذى يبدع أشكالا تزداد عينية على الدوام • فان هذه الكتابات لا توصلنا ، فى أغلب الاحيان ، الا الى مظاهر للحالة الاستطيقية ، وبظهور « التطور الخالق » نتجاوز مرحلة التأمل هذه لندرك الفعل المبدع الذى يقوم به الفنان ــ من حيث ان هذا الفعل يكشف عن حركة فريدة ، وقصد عميق أعنى من حيث هو الهام • غير أن الحالة الاستطيقية نفسها يرجع أصلها ــ كما يبين كتابه «منبعا الاخلاق والدين» الى عاطفة تعلو على العقل supra-intellectuelle حبلى بالافكار والمشاعر تصعد بنا حتى نصل الى مركز متعال على العمل الفنى ، ومنه يشع هذا العمل •

كان كتاب «التطور الخالق» قد أعاد تناول الفكرة الرئيسية فى كتاب « المعطيات المباشرة » بعد أن أضفى عليه أهمية كونية • والتغير ــ كما يصفه برجسون فى محاضراته التى تتحدث عن هذا الموضوع ــ هو النسيج الذى صنع منه الكون ، وهو جوهر الاشياء ، كما ذهب الى ذلك هرقليطس •

غير أن العالم لم يعد كافيا فى كتاب «منبعا الدين والاخلاق» ذلك لان الفعل ، الذى لم يكن له سوى دور سلبى فى كتاب «المادة والذاكرة» قد اكتسب دورا ايجابيا فى « التطور الخالق » بيد أن

برجسون أصبح يرى الآن أن الاعتقاد بأن السورة الحيوية ، أو بالأحرى مبدأ هذه الدفعة يستنفد في التطور البيولوجي انما هو من قبيل خداع الذات ، فثمة شيء أعلى من الانواع ، أو بالأحرى يوجد في النوع الانساني أفراد أعلى منه ، أو يؤلفون ـ على حد تعبير برجسون ـ أنواعا قائمة بذاتها . هؤلاء هم الابطال والقديسون . فمن طريقهم تتصل الانسانية بالمبدأ الخالق ، وكما يستمد انتيه (١) Antée قوته من الارض ، فكذلك يستمد القديسون والابطال قوتهم من السماء . وهكذا يستبدل بدفعة التطور الخالق ، نداء البطل والقديس ، ونداء ما هو الهي . فنحن اذن قد تجاوزنا الدفعة الحيوية وأصبحنا قريبين كل القرب من تلك الحاجة الى الابداع التي هي مصدر كل دفعة حيوية .

فهل نقول ان هذا تصوف ؟ أجل انه تصوف ، وهل نقول انه نزعة حيوية رومانتيكية ؟ أجل انه لكذلك أيضا . غير أن برجسون لم ينكر قط ـ كما قال مرارا ـ أهمية العلم في مجاله الخاص ، بل لقد عزا اليه القدرة على بلوغ حقيقة مطلقة فيما يتعلق بماهية المادة فمن ينكر على هذا التصوف الذي يقيم أساسا لفعل سخي ، بمعنى قريب جدا من المعنى الديكارتي لكلمة « السخاء » (أو الاريحية) générosité من ينكر عليه نبل مقصده ؟

وقد تصور برجسون أن فلسفته ينبغي أن تكتمل بفلسفة للديموقراطية ، ديموقراطية قائمة على حب الله .

فما أغرب منعطفات هذا المذهب ، انه فردي في « المعطيات المباشرة » ، اجتماعي في «التطور الخالق» ، وهو الآن مع اعطائه مكانا

(١) هو عملاق (في الاساطير اليونانية) أنجبته جايا من اله البحر بوسيدون (نيتون عند الرومان) وخنقه هرقل بين ذراعيه بعد أن رفعه عن الارض . (المترجم)

بمثليما للأفراد من قديسين وأبطال ، يتصور شكلين للمجتمع: شكلا رديئا ، وشكلا حسنا (ولكن ماكان حدا أو نهاية للتطور في كتاب «التطور الخالق» قد أصبح الآن شكلا رديئا) •

وكذلك الفعل ـ الذى كان هو العدو فى «المعطيات المباشرة» ، أو على الاقل فى الفصول الاولى منه ، وفى «المادة والذاكرة» بمعنى ما ، ثم صار محركا للتطور البيولوجى فى «التطور الخالق» أصبح ينقسم الآن الى نوعين أحدهما وحده هو المرغوب فيه تماما •

ولقد كان وعينا حياة فى «المعطيات المباشرة» • بيد أن الحياة بالمعنى الضيق تصبح ضربا من التعويق للفكر فى «المادة والذاكرة» • ولكنها تعود من جديد لتصبح مركزية فى «التطور الخالق» • على حين أن الحياة الجديرة بالتمجيد فى «منبعا الدين والاخلاق» قد أصبحت حياة أخرى غير الحياة النفسية والحياة البيولوجية ، هى الحياة فوق البيولوجية ، وفوق النفسية بمعنى ما ، عند القديسين•

ان من العبث أن نحاول الآن تحديد سمات مؤلفات برجسون ومنهجه : فلقد رأينا ما فيه الكفاية من تحليلاته ، ومن سيره فى الأمور الى حدها الأقصى ، وتفننه فى ايجاد مسلمات مشتركة من وراء النظريات المتناقضة ، وطريقته فى تقليب المشكلات والحد منها، والرجوع الى المباشر ، وطريقته فى توحيد الامور بعد تقسيمها ، وامتلاء تلك الرؤية للعالم ، التى تستعيد الوجود بكل ثرائه عن طريق نقد فكرة العدم •

والأمر الذى يجـــدر بالفيلسوف أن يؤكده من جديد ازاء الانتقادات الموجهة ضد هذا الفيلسوف العظيم ، والتى تتجدد بلا انقطاع ـ هو قيمة هذا الفكر • فلقد ترك تفكيره بالفعل آثارا عميقة فى الفكر المعاصر ، فها هو ذا وليم جيمس يضع برجسون فى عداد

أعظم العظمـــاء ، وشـــيلر Scheler يعترف بأهميته ، وهوايتهد يستشهد به في كثير من الاحيان • وتعد نظرية الصور images أصلا من أصول الواقعية الامريكية الجديدة ، بل انها تبين لنا كيف نستطيع ـ بمعنى ما ـ أن نتجاوز المثالية والواقعية معا • وجدير بنا أيضا أن نبين اشعاع الافكار البرجسونية فى العالم الادبى ، بل فى العـــالم السياسى عند جورج سوريل الذى كانت له أهميته الكبرى بالنسبة الى تطور مذاهب سياســـية يوجد بينها اختلاف شديد ، وعند بيجى Péguy الذى كانت نظريته فى التـاريخ والتجسد بل وتصوره للثورة الضرورية ضد ما هو واقع بالفعل ، مستوحاة من أفكار برجسون وربما كان لهذا الاشعاع أيضا تأثيره فى كلوديل ، ولكنه موجود بالتأكيد عند بروست ، وان يكن التمييز الذى يقـــول به بين الذاكرة العميقة اللاواعية والوجـدانية وبين الذاكرة السطحية العقلية والواعية ـ أبعد من أن ينـاظر التمييز البرجسونى مناظرة تامة كمـا نلمس تأثيره أيضـــا عند فرجينيا وولف •

وما أكثر الصفحات التى كتبت عن المؤثرات التي خضع لها برجسون ! وانه لمن اليسير أن نقوم بتحليل أى فيلسوف الى قضايا متباينة وأن نبين أنه لم يفعل شيئا سوى المزج بين أفكار أسلافه• ولكن هذا هو بعينه ما تحذرنا منه البرجسونية نفسها • ولا شك أن هناك قدرا من التشابه بين شلنج وشوبنهور وبين برجسون ، وكذلك بينه وبين الفلاسفة الروحيين الفرنسيين الذين مهدوا له • غير أن قوائم الاسماء ، بل حتى تجميع الاقتباسات ، لا يقلل فى شىء من عظمة أو قيمة هذا المذهب العظيم الذى لم يتعمقه أكثر الفلاسفة الفرنسيين الشبان النابهين ، تعمقا كافيا •

وهكذا تتبعنا الطريق العظيم الذى سلكته الفلسفة الفرنسية منذ « أنا أفكر ، اذن فأنا موجود » عند ديكارت الى « أنا أدوم اذن

فانا موجود » Je dure, donc je suis عند برجسون ، ومن الخلق المستمر ، الى التطور الخالق ـ ولم يبق من الجوهرين الديكارتيين وهما الامتداد والفكر ـ الا الفكر وحده الذى أصبح متطابقا مع الحياة والحركة • أما الاحساسات التي تقوم بالتمثيل : تقوم بالتمثيل : representatives فقد أنكرت ، ومعها النزعة الخالصة ، والنزعة العقلية الخالصة • ومع ذلك فسيظل من الصحيح أن برجسون ، بوضوح أسلوبه ونفاذ تحليلاته ، قد ظل مخلصا للروح الديكارتيه ، ومن جهة أخرى ، فان أفكاره العبقرية عن اتحاد النفس والجسم ، وطريقة معرفة هذا الاتحاد قد جعلت من ديكارت فيلسوفا لا يبعد عن برجسون بالمقدار الذى يبدو عليه للوهلة الاولى ، ألا يقول ديكارت فى مخطوط جوتنجن : « ان من الخطأ القول بأن الفكر يتم فى لحظة ، لان كل فعل أقوم به يتم في الزمان » ؟ لقد كانت فلسفة ديكارت مغامرة جريئة تهدف الى معرفة كل شيء • وهذا يصدق أيضا على فلسفة برجسون • ذلك لان برجسون على نقيض كانت أو كونت أو سبنسر ، اذا كان قد اعترف بما لا يمكن التعبير عنه ineffable فانه لا يعترف بما لايقبل المعرفة l'inconnaissable فكل شيء يمكن أن يعرف : اذ أن المادة تعرف كاملة بواسطة الرياضيات والفزياء ، كما أن النفس تدرك ادراكا تاما بواسطة الحدس • وهكذا يعتقد برجسون بوجود اتصالات مباشرة بيننا وبين المطلق ، بل بيننا وبين المطلقات •

***

ومن الطريف أن نلقى نظرة على العلاقات التى تربط برجسون بالنزعة البرجماتية • فهو يتفق معها فى تأكيد دور الفعل ، ولكنه لا يتفق معها في أن الفعل من حيث هو عائق للتأمل ، يقوم عنده بدور أقرب الى السلبية • ومن الطريف أيضا أن نبحث ـ من وجهة نظر أعم ـ فى فروع ذلك المذهب الذى يمكن أن نسميه بالبرجماتية الفرنسية التى تؤكد مع جورج سوريل أهمية دور الفروض

والأساطير ، وتحاول نقد الماركسية والحفاظ عليها في آن واحد ، وتوحد ــ مع لالاند ــ بين الحقيقة والاتفاق الاجتماعي بطريقة مشابهة الى حد ما لطريقة الفيلسـوف الانجليزى البرجماتى والانسـانى ، شيللر Schiler وان ظلت أقرب الى التراث العقلي ، وتقترب أخيرا من العقائد الدينية عند لروا Le Roy وبلوندل Blondel اللذين صاغ أولهما نظرية برجماتية عن العـلم فى صورة جذرية جـــدا مستعينا بصيغته القائلة : « كل واقعة قد وقعت » Tout fait est fait ومقترحا من جهـة أخرى نظرية عن المعجـــزة قائمة على « الايمان » بالمعجزات ، وشيد ثانيهما فلسفته الدينية بالبحث عن الشروط المسبقة للفعل présuppositions وانتقل بقارئه من شرط الى شرط يصل به الى فكرة الله ٠

وهذان الاسمان الاخيران يضعـاننا فى مواجهـة الفلســـفة الكاثوليكية الفرنسية : بوصفها وارثة أوليه لابرون Ollé-Laprune عند بلوندل ، أو متأثرة بالبرجسونية عند لروا Le Roy ولابرتونيير La Berthonnière أو مرتبطة عند آخرين بالتوماوية thomisme مع جاك ماريتان Jacques Maritain.

وينبغي أن نشير أيضا الى المؤلفات المتعلقة بتاريخ الفلسفة ، وأعنى بها مؤلفات بروشار Brochard عن الشكاك الاغريق ومؤلفات روبان Robin وديبس Diès وفستجيير Festugière عن أفلاطون، ومؤلفات ريفو Rivaud عن الفلسفة اليونانية ، ومؤلفات ليار Liard وهاملان Hamelin عن ديكارت ، ومؤلفات كوتيرا Couturat وهانكان Hannequin عن ليبنتس ، ومؤلفات دلبوس Delbos والأب ماريشال Maréchal عن كانت ٠ ومؤلفات جيلسون Gilson عن العصر الوسيط كله ، ومؤلفات رينيه برتلو René Berthelot عن الفلاسفة البرجماتيين وعن علم الفيزياء الفلكية ، ومؤلفـات الأب لبلون Le Blond عن أرسطو ، ومؤلفات برييه Bréhier عن فيلون

وأفلوطين ، وكواريه Koyré عن يعقوب بيمه وجاليليو ، وجيرو Gucroult عن ليبنتس وفشته ، ولاشييز – ري Lachièze-Rey ونابير Nabert عن كانت ، وتيبوديه Thibaudet عن برجسون ، وجانكلفتش Jankélévitch عن برجسون وشلنج ، وجان باروزى Jean Baruzi عن القديس يوحنا الصليبي ، والأب دانييلو Daniélou عن جريجورى النيساوى Grégoire de Nysse ومؤلفات كل تلك المدرسة التى تجمعت حول ايتيين جيلسون ، وأخيرا المؤلفات الرائعة التى كتبها الأب دى لوباك de Lubac

فاذا كان من الواجب الآن أن نقرأ في ملامح فلسفة الأمس ما يمكن أن نتنبأ منه بفلسفة الغد ، فمن الواجب أن نؤكد أهمية المثالية فوق العقلية surrationaliste عند باشلار Bachelard وأهمية النزوع الى الواقع ، الذى يظهر عند مثالى من أمثال نوجيه Nogué كما يظهر عند واقعى من أمثال روييه Ruyer وعند واحد من أتباع برجسون مثل منكوفسكى Minkowski وعند بعض الماركسيين من أمثـــال بوليتزر Politzer ، كمـــا ينبغى أن نؤكد أخيرا تأثير الفينومينولوجيا ، والمظاهر التى تتبدى عليها عند لافل Lavelle ولوسن Le Senne وجرييل مارسل Gabriel Marcel الذى سيظل كتابه « يوميات ميتافيزيقية » محاولة على أكبر جانب من الاهمية ، وهى محاولة واصلها بعمله المزدوج بوصفه مؤلفا مسرحيا ، ومفكرا ميتافيزيقيا ، وعند جرفتش Gurvitch ، وأيضا عند أولئك الذين يرتبطون بكيركجورد ، وعند جان – بول سارتر . وينبغى أن نذكر أيضا مؤلفات اى . بيشون E. Pichon ولاكان Lacan وأن نتحدث عن الشكل الجديد الذى يتخذه نقد التحليل النفسى عند دالبييز Dalbiez . فهنا نجد اتجاهات متباينة قد تكون أوجه التعارض فيها أقل أهمية من أوجه الشبه ، كما نجد رغبة في التحرر من الفلسفة التقليدية أو مايسمى بالفلسفة الأزلية ، من أجل التعبير

عن فلسفة هي حقا منتمية الى عصرنا، ولكنها ستظل مع ذلك جديرة بأن تكون فلسفة لكل العصور •

ولقد كتب رنوفييه كتابا عن فلسفة فيكتور هوجو • وهو في ذلك على حق : أفلا ينبغي هدم التعريفات التي تعزل المجـــالات الكبرى للنشاط الانساني بعضها عن البعض ؟ ولقـد بين دنيس سورا Denis Saurat ان مذهب « القبالة Kabbale » هو واحـــد من منابع هذه الفلسفة التي ترتبط مع ذلك ارتباطا جوهريا بمزاج هوجو • كذلك فان نزعة دى فيني المثالية التي تدرك مافي الطبيعة من جمال من خلال حديث المرأة التي يحبها، والثيوصوفية السحرية عنـــد نرفال Nerval وسريالية بودلـــير ، وأفلاطونية مالارميه الوجدانية التي تختلج فيها الأفكار بالحياة عند قمة الرغبة الطويلة الأمد ، والمثالية السحرية عند رامبو Rimbaud الشقيق الروحى لنوفاليس Novalis وبليك Blake وان اختلف عنهما ، كمـا يختلف كل منهما عن الآخر ـ كل هذا ما زال مستمرا حتى اليوم في كتب كلوديل Claudel وفاليرى Valéry اللذين يحتاجان وحدهما الى دراسة طويلة ، وفي مؤلفات ب•ج• جوف J. Jouve الذى يزداد أفقه اتساعا باستمرار •

ان فلسفة الغد ستكون كفلسفة الأمس على الاقل من حيث مدى تأثرها بالأدباء • ففي استطاعة كلوديل وفاليرى أن يتحكما الى حد لايقل عن كثير من الفلاسفة في أفكار فلاسفة المستقبل • فهذان الكاتبان العظيمان ، بل هذان المفكران العظيمان يشيران الى اتجاهين مختلفين : الاول ـ وهو فاليرى ـ ذو نزعة تحليلية ، ولكنه أشد عمقا أو أكثر مرونة أو أرهف حسا الى حد بعيد من محللي القرن الثامن عشر ، كما أنه أيديولوجي أشد حساسية من الايديولوجيين، أما الآخر فهو المنشد العظيم الذى يتغنى بالكون في طابعه الكلي وفي تكامله • وليس من شك أنه سيكون من مهـام فلسفة الغـد

ايضاح الطريقة التي يمكن بها متابعة تحليسلات فاليري من جهة ، بالمضي صوب علاقات تظل تزداد تماسكا ، ويمكن بها في الوقت نفسه محاولة ــ النفاذ من جديد ــ من وراء الاشياء الى ما تقوم عليه من بناء أساسي متين •

***

وها نحن أولاء ازاء الفلسفة الفرنســية في مجموعها خلال قرون ثلاثة : من جاسندى وفوتنل الى كونديالك ، ومن كونديالك الى لدانتك Le Dantec ، ومن ديكارت الى هاملان وبرونشفج ، ومن فينيلون الى بلوندل وبرجسون ، ومن بوسويه الى فكر التقليديين الخلص الذى عفى عليه اليوم الزمان •

ولقد أشار البعض الى سيادة المنهـج الرياضى عند كثير من الفلاسفة الفرنسيين ، بيد أن هذا لا يكفي مع ذلك لتمييز الفلسفة الفرنسية •

فلنلق بأنظارنا أولا على فلسفة القرن التـاسع عشر والقرن العشرين اللذين تصـــارعت خلالهما الكلاســيكية والرومانتيكية وتحالفتا ، ثم تصارعت من جديد ، فهنـا سنميز بعض السمات المشتركة بين عدد كبير من هؤلاء المفكرين على الأقل •

فمن الملاحظ أولا أن نقطة البداية التي تتـخذها طائفة على الأقل من هؤلاء الفلاسفة هى ظاهرة نفسية : فهى المجهـود عند بيران ، وهى الذاكرة عند برجسون ، وهى ــ على وجه أعـم عند الجميع ــ العادة التى تسمح بايجاد نوع من الاستمرار بين الوعى واللاوعى ، بين النفسى والفزيائى • ونستطيع أن نجد نفس هذا التأكيد لأهمية العـــادة عند الفسيولوجى الفرنسى لامارك ، كما نستطيع أن نلاحظ أيضا الدور الذى تلعبه عند بعض الادباء مثل بيجى وبروست •

وحتى اذا كانت مثل هــذه الظواهر ــ كالذاكرة والعادة ــ

لا تعطينا مفتاح الكون كما تصور بعض الفلاسفة ، فانها ذات أهمية فى حد ذاتها . ولنذكر فى هـــذا الصدد ما كتبه برجسون عن الفلسفه الفرنسية لتمييزها عن المذاهب الالمانية الكبرى ، اذ يقول: « انه حتى لو لم تعد الفلسفة الفرنسية صحيحة ، فانها تترك من بعدها شيئا دقيقا محدد المعالم : ذلك لان القطع التى تتألف منها سليمة » •

ونستطيع أن نرى فى فكرة «الرشاقة» grâce سمة أخرى مشـــتركة بين عدد من هؤلاء الفلاسـفة : بين رافيسون وبوترو وبرجسون ، وهم يقصدون بالرشاقة ضربا من اليسر فى الحركة ، ونوعا من الموهبة الذاتية • وحتى بيران الذى يبدو أنه يتحدث طويلا عند مجال اللامجهود وعند مجال المجهود ، يرى مجال الرشاقة من فوقهما •

فاذا التمسنا الآن السمات المشتركة بين هؤلاء الفلاسفة وبين أوجست كونت . فلن يكون عسيرا أن نجد على الرغم من المظاهر ـ سمة واحدة مشتركة : وهذه الســمة هى تأكيد الاختــلافات بين المجالات سواء أكانت هذه مجالات للوجود أم مجالات للفكر • وهذه بلا شك واحدة من السمات الاساسية فى الفلسفة الفرنسية • فثمة مجالات للواقع ، ولا ينبغى الخلط بينها • ولقد كان بسكال هو أول من عبر عن هذه الفكرة فى وضــوح عظيم فى نظريته عن المجالات الثلاثة بيد أننا نجد فكرة مماثلة لهــذه عند كونت وعند بوترو • ولكن ألا يوجد مبدأ هذه الفكرة فى النزعة الديكارتية ؟ • اننى أميز كل شىء على قدر ما أستطيع ، ونحن نعرف أهمية فكرة النظام فى منهج ديكارت •

ولعل هذا الحرص على النظام هو الذى أدى بفولتير ومونتسكيو وبكوفييه وبيران ، وبلا شليبه وكونت الى أن يضعــوا على الدوام فواصل بين الأشكال الحيوانية أو بين الأشكال الاجتماعية •

ولقد كانت فكرة النظام هــذه أســاسية فى تأمل العالم عند ملبرانش ، وهى ليست فكرة عن نظام يحول دون حدوث التغير • وحين يعرف بسكال نظام القلب ، يصف نظاما لا تنقطــع حركته صوب نفس المركز ، وبالتالى فهو يختلف عن النظام الأكثر آلية فى القياس أو حتى فى الاستقراء •

ونتيجة لتفرقة تفكير برجسون بين نظــامين : النظــام الآلى والنظام الحى ، وتأكيده أهمية النظام الأخير فان هذا التفكير يمثل نهاية المطاف لهذا الاتجاه فى الفكر الفرنسى •

والواقع أنه لا يوجد اختلاف عظيم بين بسكال وبرجسون : فبسكال يقول : « الغريزة والعقل علامتان على طبيعتين » ، أليس فى هذا القول بذرة التعارض بين العقل والحدس ؟

ونستطيع أن نلاحظ أن نقد فكرة الشدة intensité عند ملبرانش مماثل لنقدها عند برجسون ، وأن نظرية الادراك الحسى عند ديكارت وملبرانش ــ كما هى عند برجســون ــ تؤكد أهمية الطابع البرجماتى للادراك الحسى فهنــاك على الاقل ثلاثة من كبــار الفلاسفة الفرنسيين رأوا على خلاف فلاسفة مثل لوك أن الاحساس والادراك الحسى فعل دفاعى وتحــذير عملى أكثر منه نســخة تردد الأشياء الخارجية • وربما استطعنا أن نفسر أوجه الشبه هذه تفسيرا جزئيا على أنها تعبير عن ميل الى الوضوح الفكرى ، يؤدى الى نقد الأفكار المزدوجة الدلالة كالأفكار المتعلقة بالشدة intensité والى رد الادراك الحسى الى مجال الفعل •

ان الفلسفة الفرنسية ، كما تتبدى فى ممثليها الرئيسيين، هى فلسفة للفكر والوعى حتى حين تريد أن تضع الفــكر والوعى

بين ما هو أدنى وما هو أعلى منها ، أعنى القلب عند بسكال ومين دى بيران ، والحدس عند برجسون ، ويصدق قولنا انها فلسفة الوعى على روسو كما يصدق على برونشفج ، وهو صادق على برجسون مثلما يصدق على ديكارت • ويمكن القول ، بمعنى معين، ان الفلسفة الانجليزية والفلسفة الالمانية بدورهما فلسفتا وعى ، ولكنهما ليستا كذلك بالمعنى نفسه تماما : فاحداهما أقرب الى أن تكون تاريخا للوعى (باستثناء باركلى) والاخرى أقرب الى أن تكون لاهوتا أو كوسمولوجيا للوعى ، ومع ذلك فان هذه التمييزات جميعا تحتمل وتدعو الى كثير من التحفظات ، اذ أن فلسفة برجسون هى أيضا كوسمولوجيا للوعى ، كما أن فلسفة كوندياك تنطوى على تاريخ للوعى •

ولفكرة الحرية ، وفكرة الشخص مكانة رئيسية فى الفلسفة الفرنسية • فالشك المنهجى فعل من أفعال الحرية تملك به الارادة زمام نفسها ، والفكرة الديكارتية القائلة بأن الحرية ـ على خلاف كل ملكة انسانية أخرى ـ لا متناهية فى الانسان كما هى لا متناهية فى الله •• هذه الفكرة من السمات المتميزة للفكر الديكارتى • ونستطيع أن نقول انه اذا كانت فلسفة لا شلييه وبوترو ورنوفييه وهاملان وبرجسون ، تكتمل بفكرة الشخص فأن فلسفة ديكارت تستهل بها • وتؤكد النظرية البرجسونية فى المدة durée حرية الأنا ، تلك الحرية التى حاولت الفلسفة الفرنسية كلها (سواء منها فلسفة أو فوييه أو أورنوفييه ، وفلسفة لاشلييه أوبوترو) أن تحميها • ونستطيع أن نستشهد بجملة نيوتن ب • ستالكنخت Newton P. Stalknecht الذى كتب فى « دراسات فى فلسفة الخلق » قائلا : « ان المنطق الحقيقى للخلق قد تم الحفاظ عليه بحب فى الفكر الفرنسى ، حيث نجد تراثا فلسفيا يتحاشى التعقيد الهائل فى المذاهب الالمانية من جهة ، والسطحيات الواجفة المحدودة

في النزعة التجريبية الانجليزية من جهة أخرى » • وعلى الرغم من أننا لا نود تأييد جزء من هذا الحكم ، وهو الجزء الذي يبدو أنه لا يقدر كبار الميتافيزيقيين الألمان وفكر هيوم وباركلي حق التقدير فاننا نستطيع أن نقول مع ذلك ان الفلسفة الفرنسية كانت أمينة في أغلب الاحيان على تراث الحرية الخلاقة هذا •

ونستطيع أن نربط بفكرة الحرية هذه فكرة أخرى هي فكرة العرضية contingence فالطابع العرضي للواقع ، موضوع رئيسي من موضوعات الفلسفة الفرنسية منذ ملبرانش ، بل نستطيع أن نجد قبل ذلك عرضية الماهيات عند ديكارت ، وهناك أيضا عرضية واحتمال الحوادث عند كورنو • وعرضية المجالات العلمية عند كونت •

وسواء أكان ثمة اتحاد لهذين النوعين من العرضية عند بوترو ، أم معارضة من جانبه ومن جانب برونشفج للضرورة الهيجلية لحساب الحركة الحرة للروح •• فاننا نلمس في كل الأحوال تأكيدا حرا للعرضية وللحرية •

واذن ، فالسمة التي تميز الفلسفة الفرنسية هي الاحساس بالفوارق ، والاحساس بالشخص ، وكذلك أيضا الاحساس بالواقع وما من شاهد على هذه النقطة أقوى من مؤلفات ديكارت ومين دي بيران • فهذا هو ديكارت فيلسوف الفصل بين النفس والجسم ، فيلسوف التقسيم الثنائي bifurcation كما يقول هوايتهد ، ولكنه من جهة أخرى يعلم ويريدنا أن نعلم أن النفس والجسم متحدان اتحادا وثيقا • وهذا هو مين دي بيران ، فيلسوف الجهد ، فيلسوف مافوق العضوي hyper-organique ولكنه حين يخضع هو نفسه للاحساسات السلبية يكشف لنا عن مجال العضوي •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولا نستطيع أن نقول عن الفلاسفة الفرنسيين ، بناء على وجود الاحساس بالواقع لديهم انهم فلاسفة الأفكار الواضحة المتميزة فحسب ، على الرغم من الأهمية التي يعترفون بها لهذه الأفكار ، والتي ينبغي الاعتراف بها ، تماما كما كان أفلاطون يقول انه على الرغم من صعوبة نظرية المثل ، فلابد من الاعتراف بوجود المثل • فأى فيلسوف كان أقدر من ملبرانش على وضع الاحوال المبهمة modalités confuses في « وضوح غامض » ؟ ومن تحدث أفضل من بيران عن الادراكات الحسية الغامضة ؟

لقد أتاحت لنا مدام جيون Guyon وفينلون Fénélon أن ندرك الحياة الغامضة التي تحياها النفس ، أما روسو فقد وضعنا وجها لوجه أمام الاحساس بالوجود ، على حين كان برجسون وريثا لكل هذه التيارات •

ولا حاجة بنا الى القول ان ديكارت سيظل دائما أستاذا لأولئك الذين يريدون أن يتعلقوا قبل كل شيء بالأفكار الواضحة المتميزة • فميزة ديكارت هو أنه قد ظهر بين أفلاطون وكانت ، في لحظة كان العالم الحسي يبدو فيها قابلا لأن يكون موضوعا للذهن ، وهو مالم يكن ممكنا عند أفلاطون ، ولم يكن العالم المعقول فيها قد توقف عن أن يصبح موضوعا ممكنا للذهن ، وهو ما كان بالفعل عند افلاطون ، ولكنه لن يكونه عند كانت • هذه هي قيمة استاذ الافكار الواضحة المتميزة • ولكن لابد لنا أن ننوه بما يمكن أن تستفيد به فلسفة تريد أن تفهم الواقع ، من رجال من أمثال بسكال وبيران وبرجسون ، ولنضيف اليهم أيضا ديدرو ومن رجال قريبين منا أيضا من أمثال ف • روه F. Rauh • ويكفي أن نفكر في اشعاع برجسون على فلاسفة مثل جيمس وهوايتهد ، أعني على أعظم فيلسوفين عاشا في أمريكا ، فيلسوفين نستطيع أن نأمل في أن

تتجه الفلسفة الأمريكية الى الارتباط بهما من جديد ، لنرى مايمكن أن يثمره هذا الاشعاع • (١)

ولقد قلنا منذ لحظة ان الفلسفة الفرنسية فلسفة فوارق • وبطبيعة الحال لا يوجد في تاريخ الفلسفة شيء صادق صدقا مطلقا • فدولباك وبرجسون يؤكدان وحدة الموجود على الرغم من أن الأول مادي والثاني روحي • بيد أن هذه الوحدة لا تنكر عند الواحد أو عند الآخر الفوارق الكيفية عند هذا ولا عند ذاك ، بل ان هذه الوحدة تكتسب عند كل منهما ، ثراء من هذه الفوارق •

وأخصب الأفكار التي يمكن أن نجدها في الفلسفة الفرنسية فكرة العلاقة relation • فديكارت يقول لنا ان الطبائع البسيطة تتضمن علاقات • وعبارة : « أنا أفكر اذن فأنا موجود » نموذج للعلاقة وللطبيعة البسيطة في آن واحد • وهو قد رأى ــ كما رأى أفلاطون ــ أن الأفكار تتواصل فيما بينها فعبارة أنا أفكر اذن فأنا موجود ــ حين تخرج الى حيز الفعل ــ تعني مشاركة من المفكر مع الموجود ، ومن الموجود مع المفكر ، كذلك فان ملبرانش في نفس الوقت الذي يطور فيه فكرة النظام ، يتقدم بنظرية في العلاقة • وحين يضع مين دي بيران الجهد في مقابل الكوجيتو الديكارتي ، فهذه أيضا علاقة يلقي عليها ضوءا : علاقة المجهود بما يقاومه ، وهي مشاركة لا تعود ذهنية ، وانما هي أشبه بالحسية •

---

(١) لقد تحدث الكثيرون من تأثير الفلسفة الالمانية في الفلسفة الامريكية (تأثير هيجل على رويس ، وتأثير لوطزه Lotze وآخرين على جيمس) بيد أن تأثير الفلسفة الفرنسية لم يكن أقل من ذلك اهمية • فنحن لانستطيع أن نفهم امرسون فهما تاما الا اذا وضعنا التلفيقيين éclectiques في اعتبارنا ، وليس من الممكن دراسة جيمس الا بالرجوع الى رنوفييه وبرجسون رغم مابين هذين المفكرين من تعارض عميق اذ أن جيمس الذي كان يرحب بمظاهر التعدد كان يحب أن يوحد بين هذين الفيلسوفين •

ولقد كانت نفس الفكرة التي تحتل مكانة مركزية في فكر كونت ، تحتل ، بصورة أكثر دينامية ، نفس المكانة في فكر روه وبرونشفج • وحين يجعل برجسون من المادة la durée ماهية للاشياء ، فانه يريد أن يقول ان الماهية هي الاتصال نفسه ، وهي تفتح الحاضر على الماضي وعلى المستقبل ، وهي العلاقة في طابعها المتحرك •

وأخيرا ، فاذا كانت الفلسفة كلها تأملا للباطن والظاهر ، فأي فلسفة تستطيع أن تنجب أساتذة نفذوا الى أعماق الباطن أعظم من برجسون وديكارت وبيران ، أو أساتذة اتجهوا الى دراسة الظاهر أعظم من ديدرو وكونت ، أو أساتذة تجاوزوا الباطن والظاهر معا بتوحيدهما ، مثل برجسون وبيران مرة أخرى ؟

الفلسفة الفرنسية المعاصرة

سيطر تطور الوجودية على الفلسفة الفرنســية خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها • وللوجودية الفرنسية شكلان مختلفان ، وأصول متعددة : هي كيركجورد وهوسرل وهيدجر • ونستطيع أن نقول انها أنطولوجية وفينومينولوجية ، بقـــدر ما هى وجودية ، وذلك فى كل شكل من شــكليها • وربما كان فى هـذه الوجودية الفرنسية مجموعة أو مجموعتان غير مستقرتين ، ولكن ينبغى علينا أن نأخذهما على حالهما • وما من شيء أكثر طرافة ، وأشد امعانا فى الذاتية من أن نشاهد المنحنى الذى يسير من كيركجورد الى ميرلو - بونتى من جهة ، والى مارسل من جهة أخرى ، ذلك لأن كيركجورد يعزلنا أولا عن العالم ، ويضع موضع الشك كل اتصال مباشر مع أى « أنا » آخر • ونســتطيع أن نقول بمعنى ما ان تأثير هوسرل يتضافر مع تأثير كيركجورد فى وضع العالم بين قوسين ـ على حد تعبير هوسرل ـ وفى اضفاء طابع اشكالى على العلاقة مع الأنا • بيد أننا فى نهاية هذا المنحنى نرى أن جبرييل مارسل قد جعل من الاتصال

العميق بين الأنوات ماهية التأمل الذى يدعونا الى المشاركة فيه ، بينما يجعل ميرلو بونتى جميع ضروب نشاطنا تضرب بجذورها فى الادراك الحسى ، متفقا بذلك مع اتجاه عميق عند هوسرل •

ومن سمات الفلسفة الفرنسية المعاصرة ذلك الاتحاد الذى يتم عند عدد من المفكرين الرئيسيين بين الفلسفة وبين غيرها من طرائق التعبير المختلفة ، وبخاصة الدراما ؛ فلقد عرض جبرييل مارسل وجان بول سارتر فى ـ وقت واحد ـ أفكارهما فى مؤلفات ان لم تكن منهجية فهى على الأقل نظرية ، وكذلك فى مسرحيات ، بل انه ليطيب لجبرييل مارسل أن يؤكد أن المشكلات قد عرضت له أولا من خلال العلاقات الدرامية بين الشخصيات • فأبطال مسرحية « قصر من الرمال» Palais de Sable يعيشون مشكلتى العلو والكمون والبطون (أو المحايثة) من الداخل ، ان صح هذا التعبير ، أى أن هاتين المشكلتين أشبه بالألحان المميزة leitmotive المعبرة عن الحقيقة العميقة للشخصيات • وقد كان من الطبيعى فى الواقع أن يتم التعبير عن هذه الفكرة الوجودية فى الدراما قبل أن يتم التعبير عنها فى الفلسفة • أما حالة سارتر فتختلف عن ذلك قليلا ، من حيث أنه يبدأ بالأحرى من فكره الفلسفى لكى يكون مسرحياته • ولكن ثمة نقطة مشتركة على الأقل هى : قيام فكرين فلسفيين ودراميين فى وقت واحد •

واذن فقد سيطر على الفلسفة الفرنسية المعاصرة تطور فكرة الوجود كما تبدت لروح كيركجورد • وهذه الفكرة وصلت الى فرنسا أول الأمر عن طريق بعض المفكرين الألمان • ولكن ينبغى أن نقول على الفور ان فلسفة الوجود قد أخذت فى فرنسا مظهرا خاصا من جهة ، وأنها تمثلت من جهة أخرى فى صورتين مختلفتين، بل متعارضتين • وأول كتاب كبير بمعنى ما ، وبمعنى ما فحسب ـ

كما سنرى فيما بعد ـ بل الكتاب الكبير الوحيد للوجودية الفرنسية، هو كتاب « الوجود والعدم L'Etre et le Néant لسارتر • ولنقل منذ البداية ان من الخطأ تفسير فكر سارتر كله بفكر كيركجورد ، فلقد كان لهوسرل وهيدجر ـ ولاننسى هيجل ـ نفس الأهمية التى كانت لكيركجورد نفسه فى تطوير فكره • بل نستطيع أن نقول انه لم يرتفع بتأثير كيركجورد الى المستوى الأول الا حديثا فى كتابه الكبير الثانى « نقد العقل الديالكتيكى Critique de la Raison Dialectique أما قبل ذلك ، فكان يبدو أنه يرتبط ارتباطا أوثق بهيجل ، كما يتمثل فى كتابه : « فينومينولوجيا الروح Phénoménologie de l'esprit

وهكذا يبدو أن المؤثرات التى خضع لها سارتر هى هيجل وهوسرل ، يتلوهما هيدجر فى المحل الثانى ، ثم كيركجورد فى المحل الثالث • فالوجود فى ذاته l'en soi والوجود لذاته le pour-soi عند سارتر يأتيان أساسا من هيجل • ولكنه لايقبل الديالكتيك الهيجلى فى مجموعه على الاطلاق ، بل هناك على الأخص صراع بين الوجود فى ذاته والوجود لذاته يجعل التركيب la synthèse الذى تصوره هيجل مستحيلا •

ومن المناسب أن نذكر تأثير شارح عظيم لهيجل على سارتر• هذا الشارح هو كوجيف Kojève التى تعد محاضراته عن مسائل معينة ارهاصا لكتاب سارتر ، وخاصة فى انكاره لديالكتيك الطبيعة ، وتأكيده لديالكتيك وحيد هو ديالكتيك الروح الذى قدر عليه ـ فضلا عن ذلك ـ الاخفاق والموت فى تعبيراته المتعاقبة •

وهكذا نرى عند كوجيف بالفعل توحيدا بين هيجل وهيدجر، هيدجر المبكر ، أعنى مؤلف «الوجود والزمان» L'Etre et le Temps

ولقد تحدثنا عن الاخفاق والموت ، وذلك لأن الوجودية

الفرنسية كما تتبدى عند سارتر ـ تتخذ طابعا تشاؤميا • وحين يعبر سارتر عن نفسه في مسرحياته ، يبرز هذا الجانب التشاؤمي الى الصف الأول ، كما تشهد بذلك تلك العبارة الشهيرة : « الجحيم هو الآخرون » أو كما تشهد أيضا عبارة « الوجود والعدم » : « الانسان مقضي عليه بالحرية » •

وربما لم يكن هذا هو مجال البحث في الأصول الاجتماعية (السوسيولوجية) والتاريخية لهذه النزعة التشاؤمية • فلقد ولدت مؤلفات سارتر في ظل الاحتلال ، ومع ذلك فان صداها المدوي قد تردد مع انتصار المقاومة •

ولقد كان من الواضح غداة « التحرير » أن الوجودية هي أهم تيار فلسفي • ولنقل مؤقتا انها حملت الراية من البرجسونية التي كانت قد بدأت تنتصر ، وذلك بعد صراع شاق الى حد ما • وكانت الوجودية في بداية الأمر تعارض بشدة الاتجاهات البرجسونية حتى وان كنا نستطيع اليوم أن نلاحظ كثيرا من السمات والميول المشتركة بين برجسون وفلاسفة الوجود ، فالوجودية تكونت من مؤثرات متعددة ، هي تأثير هيجل في فترته المبكرة ، وتأثير كيركجورد وهوسرل وهيدجر ونيتشه • والفكرة التي تسيطر على كتاب « الوجود والعدم » لسارتر هي التمييز بين الوجود في ذاته والوجود لذاته ، وهو التمييز الذي يأتي من هيجل ، والذي هو مع ذلك أساس التفرقة بين النزعة السارترية والنزعة الهيجلية ، ذلك لأن سارتر يعرف الوجود في ذاته والوجود لذاته ــ وخاصة الأول منهما ــ بطريقة تختلف كل الاختلاف عن طريقة هيجل في تعريفهما • فالوجود في ذاته عند سارتر مصمت أكثر من أن يكون ضمنيا ؛ وعلى حين يرى هيجل أن الاتحاد بين الوجود في ذاته والوجود لذاته ممكن ، يعلن سارتر أن اتحادهما مستحيل • وهذا التصريح باستحالة اتحادهما هو نفسه انكار فكرة الاله ، وبذلك

يعود فكر سارتر فينضم الى فكر نيتشه الذى يستمد منه هـــذا الفكر الهامه •

واذا كنا قد أكدنا التفرقة والاختلاف بين فكر سارتر وفكر هيجل ، فانه يظل من الصحيح مع ذلك أن سارتر يعــرف الوجود لذاته على نحو مماثل للتعريف الذى يضعه هيجل لهذا الوجود ، أى أن الروح حركة مستمرة : فانا أكون مالا أكون ، ولا أكون ما أكون (je suis ce que je ne suis pas et je ne suis pas ce que je suis)

بيد أن هنـــاك بين الوجود لذاته والوجود في ذاته أوجــه تعارض وأوجه اتصال في آن واحد • ومن الأسئلة الأساسية أن نعرف أيهما يأتى أولا ، الوجود فى ذاته ، أم الوجود لذاته • فاذا كان الوجود لذاته هو الذى يأتى أولا ، كنا بازاء النزعة المثالية ، واذا كان الوجود في ذاته هو الذى يأتى أولا ، كنا حيال النزعــة الواقعية • وهكذا تبدو هنا على الأقل اجابتان ممكنتان ان لم يكن ثمة ضرب من ازدواج الدلالة ، فالوجود لذاته يتبدى كأنه ثقب داخل الوجود ــ فى ذاته ، وعلى هذا يمكن أن نظن أن الوجود فى ذاته هو السابق ، وبالتالى نكون ازاء الجانب الواقعى من المذهب • ولكن ليس ثمة وجود ــ في ذاته الا بالنســـبة الى وجود ــ لذاته ، وفى ذلك تأكيد أولوية الوعى ، وهو شيء تقليدى في فرنسا •

أما في أجزاء كتاب الوجود والعدم المخصصة للعلاقات بين وعى ووعى آخر ، فانا نشاهد صلة جديدة بــين الوجود فى ذاته والوجود لذاته ، فكل وجود لذاته يتنزع الى تحويل الوجود لذاته الآخر الى وجود فى ذاته ، أعنى أن يجعل من الذات موضوعــا • وهنا نجد جميع التحليلات المتعلقة بسوء الطوية la mauvaise foi وفي الوقت نفسه نحس بأن كل وجود لذاته يتحول من تلقاء نفسه

بصورة ما الى وجود في ذاته • وعلى هذا النحو فاني أجمد نفسي بما يخطر لي من ذكريات ، بل بمشروعاتي المقبلة أيضا •

ولكنني أظل حرا في الوقت نفسه • والواقع أن نظرية الحرية عند سارتر أبعد ما تكون عن البساطة • فنحن مقضي علينا بأن نكون أحرارا ، على حد تعبير شخصية في احدى مسرحيات سارتر • ولكن ما معنى أن يكون المرء حرا ؟ ان موضع الأصالة في تفكير سارتر في هذا الموضوع هو تأكيده أننا أحرار دائما بقدر متساو ، فالسجين حر كالشخص الذي نقول عنه انه حر سواء بسواء ، فلا وجود لدرجات في الحرية ، وليس من شك أن امكانيات الفعل متباينة ، بيد أن الحرية تظل كاملة دون نقصان • وعلى الرغم من أن في هذا الرأي مفارقة ، فقد كان من الممكن أن يكون واضحا نسبيا لو لم تتدخل فكرة الموقف • فالأنسان دائما في موقف ، بحيث نكون ازاء هذا التأكيد المزدوج ، لحرية المساواة مع نفسها من جهة ، ولعلاقتها مع الموقف من جهة أخرى •

ولكن ، سواء تعلق الأمر بموضوع الاتصال عامة ، أو بموضوع الحرية ، فلا بد أن نقول اننا بازاء المجلد الأول من مؤلف سارتر فحسب • فربما كان ثمة شيء موجود فيما وراء منطقة « سوء الطوية la mauvaise foi اعني سوء الطوية الذي يحول الوجود لذاته الى وجود في ذاته ، أو ربما حولته الى حرية في موقف liberté située • والواقع أن نشاط سارتر في المجال السياسي والاجتماعي ، والنداء الذي يوجهه الى القراء يدلان على أن لديه ارادة المضي نحو الفعل الأصيل ، وايمانا بامكان الفعل والقول الأصيل •

ولقد كانت المشكلات التي تصدى لها سارتر هي بعينها المشكلات التي وضعها ميرلو ــ بونتي ، بيد أنه ينزع منذ البداية

الى حل هذه المشكلات بطريقة مختلفة ، وهذا ما يزداد اتضاحا لنا بالتدريج •

وينطوى فكر سارتر على بعض الأصداء الراقية ، وخاصة الفكرة القائلة ان حريتنا تظل سليمة لا تمس حتى حين نكون عبيدا — وهي فكرة تجيب على مشكلة أثيرت فى ثنايا حركة المقاومة •

وينبغي أن نلفت النظر الى أنه لايوجد لدينا غير المجلد الأول من الكتاب ، وأننا لن نحصل على الثانى أبدا ، كما هى الحال بالنسبة « للوجود والزمان » لهيدجر • فكل من هذين الكاتبين لا يحرص على مواصلة الكتاب الذى بدأه ، وكل منهما قد انعطف فى طريق يؤدى به الى اتجاه مختلف : الأول نحو نظرية في الوجود ، والثانى نحو نظرية فى المجتمع •

فلو كان سارتر قد أتم كتابه هذا ، لكان من الممكن ، بل من الواجب أن يكمل هذا المجلد الأول الذى ينكر فيه الاتصال بين الموجودات — بمجلد يوضح فيه بوجه خاص الاتصال الحقيقي • ففى « الوجود والعدم » — على النحو الذى نجده بين أيدينا — اخفاق للاتصال ، اذ أننا نريد أن نمتلك الآخر ، والا فاننا ننهزم أمامه ونكون مملوكين له ، وهنا نجد نظائر للاتصال غير المباشر عند كيركجورد • فنحن نكذب على الآخر حتى حين نريد أن ننفتح عليه • فالآخر ، أو بالأحرى الآخرون — هم — كما قلنا من قبل — جحيم بالنسبة الينا •

قلنا اننا مقضى علينا بالحرية • والقضية الجريئة الشائقة التى يدافع عنها سارتر هى أن الحرية غير قابلة فى أساسها لأية درجات، كما كان يعتقد الفيلسوف الكلاسيكى ، فهى دائما فينا ، وهى دائما على نفس الدرجة • صحيح أن فكرة الموقف تحمل فى طياتها تعقيدا

وتوضيحا فى آن واحد لنظرية الحرية ، لأن الانسان دائما «فى موقف» ومن هنا تنشأ صعوبات عظيمة لا سيما وأن سارتر يؤكد فى فقرات مماثلة لبعض نظريات كانت — نوعا من فعل الحرية المستقل عن الزمان ، والذى نختار به طابعنا الشخصى • وهكذا نجد أنفسنا ازاء هذه العناصر الثلاثة : الحرية اللازمانية (وان لم يكن هذا هو اللفظ الذى يستخدمه سارتر) ، والموقف ، والحرية فى موقف • وربما لم يكن هذا كله هو أهم ماقال به سارتر ، انما الأهم هو أنه يعرض علينا عالما منقسما الى قسمين : الوجود فى ذاته والوجود لذاته ، اللذين لايمكن التوفيق بينهما آخر الأمر • فاتحاد الوجود فى ذاته والوجود لذاته أمر مستحيل ، أو بعبارة أخرى : فالله الذى هو هذا الاتحاد نفسه لا وجود له فى نظر سارتر ومن ثم فنحن — أى الوجود لذاته — موجودون فى عالم لا سند لنا فيه ولا ملاذ ، عالم يعود بنا باستمرار الى أنفسنا • وهنا يبدو أن فلسفة سارتر ترتبط بهيدجر فى مرحلته الأولى : ونيتشه على الأخص ، ونستطيع أن نقول بوجه عام — ان فكر نيتشه ماثل بوضوح تام لدى كل فلاسفة الوجود الفرنسيين والأجانب لاسيما هيدجر ويسبرز •

ولكن ماهى الصلات التى تقوم بين هذين الشقين من الوجود، أعنى الوجود فى ذاته والوجود لذاته ؟ من الصعب جدا تحديد هذه الصلات • وهذه هى المشكلة الفلسفية الرئيسية التى نجد أنفسنا ازاءها • فاذا أخذنا نظرية المعرفة التى تمتزج امتزاجا وثيقا — كما هو واضح — بنظرية الواقع ، وجدنا أن الوجود لذاته يتجه من حيث أنه عارف الى الوجود فى ذاته ، بل نستطيع أن نقول انه يضع الوجود فى ذاته بوصفه مستقلا عنه ، فهنا وضع للوجود فى ذاته بواسطة الوجود لذاته • وفى هذه النقطة يستوحى سارتر تعليم هوسرل وفكرة التسدد ، ومن جهة أخرى فان مايمكن أن نسميه بنظرية الوجدانية **la théorie de l'affectivité** التى تحتوى على

نظرية الاتصال كما عرضناها ـ تنطوي على سقوط مستمر من الوجود لذاته في الوجود ـ في ـ ذاته ، فالوجود لذاته ينزلق ويسقط نحو منطقة الوجود في ذاته ، وفي الحب يكون الموضوع المحبوب في نظر سارتر ـ موضوعا objet بحق ، وثمة احالة موضوعية objectification للوجود لذاته • وليس من شك في أنه قد احتفظ بحالة الاتصال الحقيقي لذلك المجلد الثاني الذى لن يظهر أبدا • ومع ذلك فهناك أسباب قوية للاعتقاد بأن سارتر يؤمن بوجود اتصال حقيقي وأن ايمانه بهذا الاتصال ، يتجلى حتى وان لم يكن يظهر في كتابه « الوجود والعدم » في كتاباته السياسية وفي حياته •

ويصف سارتر محاولته بأنها « انطولوجيا فينومينولوجية Ontologie phénoménologique • مشاركا على هذا النحو في تلك الحركة الكبرى التي توجه عددا من اتباع الفينومنيولوجيا الرئيسيين نحو نظرية في الوجود ، ولنا أن نتساءل ان كان من الممكن أن تكون انطولوجيا مفككة مبتورة كتلك التي يقول بها سارتر ، أنطولوجيا بحق ، بيد أننا لانريد هنا سوى أن نعرض آراءه •

بل ان الصلات بين الوجود في ذاته والوجود لذاته أعقد حتى مما قلناه حتى الآن ، فما له الأولوية هو بمعنى ما ، الوجود لذاته أى الوعي ، وهنا لايرتبط سارتر بهوسرل فحسب ، وانما يرتبط بآلان Alain أيضا • بيد أن ماله الأولوية بمعنى آخر هو الوجود في ذاته ، أى هو الموضوعى الخالص le pur objectif أو هو مادون الموضوع ، أعنى طبيعة غزيرة دافقة ـ فياضة foisonnante لاوعى لها على الاطلاق ، كما يشعرنا سارتر في روايته الأولى «بغثيان» • ومن ثم فان الوجود لذاته يبدو وكأنه ثقب في الوجود في ذاته • وفكرة الثقب داخل الوجود في ذاته ترتبط بفكرتى السلب والعدم، ونحن نقول : السلب والعدم ، ويمكن أن نقول ـ الى مدى معين

على الأقل ــ انه على حين يؤكد هيدجر بخاصة فكرة العدم le néant ويضع العدم فى ضوء معتم ، فان سارتر يصعد أو بالأحرى يتقهقر من هيدجر الى هيجل ليلقى ضوءا على السلب la négativité فعند سارتر لانجد أنفسنا ازاء الضوء الخافت للعدم ، كما يتبدى عند هيدجر ، بقدر ما نجد أنفسنا ازاء حشد نصف معتم من السلبيات المتباينة : négativités diverses

وبهذا لاتحل المشكلة التى وضعناها ، اذ لايمكن أن توجد ثغرة في الوجود في ذاته الا بواسطة الوجود لذاته ومن أجله ، مثلما انه لايمكن أن يكون هناك وجود لذاته الا لأن هناك ثغرة في الوجود في ذاته ، هذه هي الميثولوجيا التى يقدمها الينا سارتر ، أو على الأقل ليس الخطأ خطأنا اذا بدت لنا على أنها ميثولوجيا • ولكن ، ربما كان سارتر ــ بعد أن أصبح الآن يتخذ وجهة نظر نقد العقل الديالكتيكي ــ يميل الى تأييدنا فى ذلك • « فالوجود والعدم » انما هو محاولة ناقصة ، وهذا يصدق أيضا على كثير من المذاهب الميتافيزيقية العظيمة•واذا كانت هذه المحاولة ناقصة ، فاننا نجازف بوضع هذا الافتراض ، وهو أننا كلما تقدمنا فى مطالعة هذا المجلد قل النقص في تلك المحاولة ، أعنى أن تحليلات سارتر تزداد امتلاء ودقة ، بحيث تصبح ــ فى الواقع ــ من أفضل النماذج التى يمكن أن نوردها على التحليل الفينومينولوجى • واذا كان الناقد يريد أن يهاجم سارتر فأحرى به أن يهاجم أسس المذهب ، أعنى أساطير الوجود في ذاته والوجود لذاته ، والعدم ، والوجود • ولكن ، فلنتذكر أن المفهومين الأخيرين حين نجدهما عند سارتر أقل المفاهيم الأربعة أسطورية ، اذ أنهما يعرضان فى صورة مجزأة ، ولأنه لا يوجد فى « الوجود والعدم » وجود ولا عدم ، اذ أن الوجود مزدوج على أقل تقدير ، أما العدم فمتعدد ، يبقى اذن أن ننقد المفهومين الأولين ، وهما الوجود فى ذاته ، والوجود لذاته • وقد لمسنا

الصعوبة التي نصطدم بهـا حين نبحث عن علاقاتهما المتبـادلة •
ويعترف سارتر بأن الوجود في ذاته ولذاته l'en-soi-pour-soi
مستحيل ، فهلا ينبغي أن نقول ان الوجود ـ في ـ ذاته مستحيل ،
والوجود لذاته مستحيل ؟ ان سارتر نفسه خليق بأن يعترف بأنهما
لا يكونان ممكنين الا بما بينهما من علاقات متبادلة • ولكن ماذا يمكن
أن يقال عندئذ عنهما في ذاتهما ؟ انهما يهـــدمان ذاتهما في نفس
الوقت الذي يضعان فيه ذاتهما •

ونحن لم ندخل حتى الآن في اعتبارنا عناصر ثلاثة هامة في
تفســير مؤلفات ســـارتر وتطورها ، وهذه العناصر الثلاثة هي :
التحليل النفسي ، والتاريخ ، والماركسية ، فسارتر يعتقد أنه قد
خلق نوعا جديدا من التحليل النفسي هو مايسميه بالتحليل النفسي
الوجودي psychanalyse existentielle ، ومع أن هـذا النوع
الجديد من التحليل يرتبط بنظريات الوجود في ذاته والوجود لذاته
التي وضعناها منذ لحظة موضع التساؤل ، فانه يتضمن عناصر هامة
تضعه بين الاتجاهات الأساسية التابعة من النزعة الفرويدية • أما
فيما يتعلق بالتاريخ ، فان مايقوله لنا سارتر عن وجودنا في موقف،
يسمح لنا بأن نفهم من ذلك أننا مندمجون insérés في تاريخ ،
فهو يرى أن هناك حركة للتاريخ ، والاتصال الأصيل authentique
الذي اعتقدنا أنه يفسح له مكانا ، ربما لم يكن يتسنى له أن ينمو
الا بفضل نمو المجتمع نفسه ، فهو يؤمن بأن للتاريخ معنى واتجاها ،
وثمة نظرية صادقة وحيدة بين نظريات التطور الاجتماعي والتركيبات
الاجتماعية جميعا ، وهذه النظرية هي الماركسية •

والواقع أن تفسير هذا العنصر الثالث (أي الماركسية) هو
الدافع الى مايمكن أن نسميه استبدال الآراء الاقتصادية التاريخية

الموجودة فی کتاب « نقد العقل الديالكتيكى » بالمجلد الثانی الذی لن یظهر من « الوجود والعدم » ٠

على أن الوجودية في فرنسا لاتظهر على الصورة التى اتخذتها عند سارتر فحسب ، بل لقد جرت العادة على القـــول بأن هنــاك وجوديتين فرنسيتين : وجودية سارتر الملحدة ، ووجودية جبرييل مارسل الدينية ٠ ونحن نعلم حق العلم أن جبرييل مارسل يرفض في معظم الأحيان اســـم الوجودية ، ولكنه يعترف مع ذلك بأنه يلتقي — دون أن يكون متأثرا بكيركجورد أو بهيجل — بمواقف معينة تعد مواقف وجودية صحيحة ٠ وهو لم ينكر قط امكـــان التقريب بين نظرياته وبعض نظريات يســـبرز ٠٠ وربمـــا كانت الأهمية التي يعزوها الى شلنج الذى كان أستاذا من أساتذة كيركجورد خلال عدة سنوات على الاقل — هي التي تفسر جزئيا ، أوجه التقارب هذه ، وربما كان من الأدق أن نقول ان هذه الأهمية تفسر هي نفسها بما كان في أوجه التقارب تلك من عنصر عميق ، وبالميـــول التى تتصف بها روح جبرييل مارسل ذاتها ٠ وقد كان لمارســـل رد فعل شديد ضد مجموعة من المذاهب : ضد التفسيرات التاريخية والاجتماعية ، وضد النزعة العقلية كما ظهرت عند برونشفج ٠ وهو يضع في مقابل هذا كله ، مع مافيه من تباين — مايسميه كيركجورد احتجاج الأنا : la protestation du moi ، الأنا الشاعر المريد ٠ ولكن على حين نجـد عند ســارتر — على الأقل فى كتــابه « الوجود والعدم » — انفصالا مطلقا بين الأنا وغيره من الأنوات ، نجد الأنا عند « جبرييل مارسل » على اتصال في جوهره بالأنت وبالاشخاص، وبما يسميه « الأنت المطلق Toi absolu الذى هو الله ٠ هذا الدعاء الى الله ، وهذه الصلاة موجودان ضمنيا — على الأقل — منذ أول كتاب لجبرييل مارسل ، وأعنى به كتابه « يوميات ميتافيزيقية Journal Métaphysique ٠ وقد ظهر كتاب « يوميات ميتافيزيقية »

فى نفس السنة التى ظهر فيها كتاب « الوجود والزمان » لهيدجر ، بيد أن المؤثرات التى أثرت فى هاتين الفلسفتين مختلفة فى جوهرها كل عن الأخرى ، وان كان من الجائز أن نستثنى من ذلك حـــالة شلنج ، ولو أن شلنج لم يؤثر فى المراحل الأولى من تفكير هيدجر •

وفضلا عن ذلك • فانه حين يتعلق الأمر على وجه الخصـــوص بفلسفات للوجود ، لايغنى البحث عن المؤثرات كثيرا • فجبرييل مارسل يصل عن طريق الجهر بميول عميقة الى أن يضع فى مقابل كافة المجالات التى يسودها العقل ، مجالا يمكن أن نسميه للوهلة الأولى مجال التساؤل (أو الاستفهام) وأن نسميه فى نهاية المطاف بمجال السر : le domaine du mystère وكما أن سارتر قد ميز بين الوجود لذاته والوجود فى ذاته ، فان جبرييل مارسل يميز بين مجال الوجود l'être ومجال الملك : l'avoir ، وهذه التفرقه بين الوجود والملك توضع داخل مايسميه سارتر بالوجود لذاته ، فمارسل يلاحظ أننى حين أسأل نفسى من أكون ، فلن تستطيع أية اجابة أن ترضينى ، وهنا يخفق المنطق الأرسطى ، بل كل منطق ــ فى نهاية الأمر ، فأنا على « علاقة مع » هذا كل مايبقى عندئذ أمام روحنا التى تسأل • وأنا على علاقة مع أولئك الذين أتمسك بهم وعلى صلة بالأنت المطلق • ولكن ، ماذا نقول عن هذه العلاقة التى نعيشها ونعانيها أكثر مما نفكر فيها ؟ ان مسرح جبرييل مارسل يحاول منذ ظهور مسرحياته الأولى ، ان لم يكن لاعطاء أجوبة على هذه الاسئلة ، أن يضع على الاقل هذه الاسئلة بأشد الصور حدة ، وبأكثر الطرق وجودية ، ان لم يكن يحاول تقديم اجابات عنها • وهو أحيانا يوحى الينا بأن مايفتح لنا الباب الى مايمكن أن نسميه بالغيرية هو نظرة أو نداء واستدعاء والواقع أن عالم جبرييل مارسل عالم مفتوح أمام الأمانى ، ومع ذلك فهو عالم يكمن فيه السر على نقيض تفكير هيجل • ويتصور الفيلسوف تحالفا بين الدعاء والسر ، بحيث ينزع أحدهما

الى الآخر الذى ينفتح له بقدر معين على الأقل ، وذلك على عكس مايحدث فى الظاهر على الأقل ـ عند كيركجورد • ومن هنا كان من الممكن عقد المقارنات بين مارسل ويسبرز ، هذا اذا كان من الحق أن يسبرز قد اضاف على نحو ما الى نظريات كيركجورد تأييد التاريخية l'historicité ، وتأكيد الاتصال • وأول هذين التأكيدين لا يوجد عند جبرييل مارسل على الاطلاق ، أما الثانى فيحتل فى نظرياته مكانة مركزية •

ثمة سر للوجود ، هذا ماعرضه مارسل فى محاضراته التى القاها فى أكسفورد ، وهو ـ ان شئنا استخدام تعبير شائع ـ سر فى وضح النهار un mystère en pleine lumière هذا اذا استسلمنا على الأقل لقوى النداء والاستدعاء invocation-évocation الكامنة فينا • واذن فنظرية مارسل هى نظرية عن « الشـــخص » la personne وعن الأشخاص • ولهذا كان يقف موقف المعارضة من نزعة برونشـفج العقلية ، ذلك أن الســؤال الفلسفى سـؤال شخصى دائما ، وهو سؤال موجه من شخص الى شخص • ونستطيع أن نقول ان فكر مارسل لم يظهر بمثل ماظهر عليه من القوة فى كتابه الأول ، أعنى حين لم تكن لديه بصـــورة كاملة اجابات عن هــذه التساؤلات •

ويقف تأمل جبرييل مارسل بعيدا عن جميع الفلسفات التى ذكرناها • « فاليوميات الميتافيزيقية » تؤذن ببداية هذا التأمل ، وهى بداية استفهامية درامية نمت فى داخلها الأفكار الخاصة بجسمى وبالنداء ، وبالأنت وبالصلاة • ولقد بدأ مارســل بالتأمل فى أفكار الهيجيليين الانجليـز الجدد من أمـثال برادلى Bradley وبوزانكت Bosanquet وكذلك بدراسة رويس Royce فوضـــــع على هذا الأساس ماسمى أحيانا بالوجودية الدينية ، التى ظهر بالتدريج

التقابل الواضح بينها وبين وجودية سارتر بخاصة • ولكن يجدر بنا أن نؤكد أن فكر مارسل ، على الرغم من ترحيبه بهذه المؤثرات الوافدة من هؤلاء الهيجيليين الجدد ومن شلنج ، قد تطور في جو من الاستقلال ، موجها أسئلته الى نفسه ، ومعطيا لنفسه الاجابة عن بعض النقاط • ولقد كانت فكرتا الوجود والسر هما اللتان أخذتا تحتلان شيئا فشيئا مكانة مركزية في فكره • ولقد أبرز اتيين جيلسون بعض أوجه الشبه الملحوظة بين أساتذته الذين اختارهم وبين جبرييل مارسل ، كما أن هناك أيضا بعض أوجه الشبه التي أكدها م • ديفرن M. Dufrenne وبول ريكير Paul Ricoeur بين فكر جبرييل مارسل وفكر يسبرز • وقد وضع ريكير فلسفة في الارادة ترتكز في أساسها على نظرية في «اللا ارادى» l'involontaire وتقترن بنظرية في الخطأ والخطيئة ، وتكتمل بنظرية في الفضل la grâce أما ديفرن فيعرض في مجال نظرية المعرفة والجمال نظرية في ما هو قبلي a priori وفي القبليات des a priori مستوحاة جزئيا من شيلر Scheler ولا نستطيع ها هنا الا أن نذكر هذه الكلمات الموجزة جدا عن البناء الحدسى والعاطفي الجميل الذي يشيده ريكير ، اذ يمضي متجاوزا هوسرل (الذي كرس له ريكير دراسات بديعة) • فيعود الى نظرية القلب كي يمكن أن يكتشفها ابتداء من بسكال والى فكرة القدرة الابداعية للعاطفة la créativité de l'émotion

وفي اللحظة التي كتب فيها جبرييل مارسل « يومياته الميتافيزيقية » لم يكن قد وجد بعد ـ أو على الأصح ـ لم يكن قد عثر من جديد على الكاثوليكية • نقول ذلك لأن الطابع الاشكالي الذي يميز كتابه ، والذي يبدو لنا جوهريا في كل فلسفة للوجود ، قد تطور بصورة أشد صراحة عندما كان مارسل خارج الدين • ولكن من المناسب أن نقول ان هذا الطابع قد ظل كامنا في فلسفته

حتى بعد تحوله الديني ، واليه يرجع جزء من قيمة هذه الفلسفة . فما هي الأفكار التي تسود فلسفة جبرييل مارسل (مع ملاحظة أننا لا نستطيع أن نتحدث هنا عن أفكار إلا اذا توسعنا في معنى هذه الكلمة بحيث يمكن أن تستوعب المشاعر الوجدانية) .

انها فكرتا الأنا والأنت ، وفكرة جسمي ، وفكرة النداء ، وفكرة السر . ذلك لأننا تحدثنا منذ لحظة عن « المشكلة » ، بيد أن المشكلة تتحول شيئا فشيئا الى سر . فنحن لا نستطيع أن نقول شيئا عن أعمق الأشياء ، أعني أنه لا توجد بشأنها قضية يمكن أن تكون مرضية . والواقع أن كل قضية تتضمن مجال الـ « هو » الذي يرتبط بمجال ما يمكن أن نسميه مجال «الناس» le «On» ، مستخدمين في هذه النقطة تعبيرا ينتمي الى هيدجر قبل غيره . ولكننا في حالة امتلاء العاطفة والوجدان ، نتجاوز هذا المجال ، ويكون هناك وجود آخر غير وجودنا ، حاضر في النداء ، دون أن نستطيع اثبات هذا الوجود عقليا . وفي نفس الوقت الذي نكون قد تخطينا فيه مجال الـ « هو » و « الناس » نكون قد تخطينا أيضا مجال « الملك » avoir .

وحين يرد مارسل لحضرة الوجود la présence de l'être اعتبارها أمام أعيننا ، أو بالأحرى أمام شيء قريب كل القرب من الايمان ، يظن أنه يستطيع بذلك تحذيرنا من تأثير التكنيك الذي لا صلة له ـ في الواقع ـ الا بالملك . ومن هنا كان عنوان أحد كتبه الذي يضع فيه ماهية الانسان في مقابل مكاسب التكنيك ، والذي يتخذ فيه موقف الدفاع عما هو انساني ضد بعض أعمال البشر .

وقد أكد جبرييل مارسل مرارا عديدة أن مسرحه لم يتطور مستقلا عن اهتماماته الفلسفية ، كما أنه لم يتطور موازيا لها ،

وانما تطور ابتداء من منبع واحد بعينه هو الاحساس بسر الكائنات، وبالقيمة •

ويدرس بول ريكير ابتداء من تأملاته التى أوردها فى رسالته عن « الارادى واللا ارادى » الانسان المعرض للخطأ ، كما يدرس رمزية الشر ، وذلك فى مجلدين هامين يؤلفان مجموعة عنوانها « التناهى والاثم » Finitude et culpabilité • فالنتيجة التى ينتهى اليها المجلد الأول هى أن « امكانية الشر الأخلاقى مغروزة فى تركيب الانسان » ، وذلك بعد أن بدأ فى هذا المجلد بالكلام عن الأسى الذى يجلبه الشقاء ، ثم انتقل الى فكرة الضعف الوجدانى fragilité affective • وفى رأيه أن « الضعف هو الاسم الذى يتخذه اختلال التناسب فى النظام الوجدانى ، ذلك الاختلال الذى نبحث عن تفسير له خلال عمليات المعرفة والفعل والشعور » وهو يقول ان الوظيفة الشاملة هى الوصل ، غير أن الثنائية الانسانية تعود الى الظهور باستمرار ، وهى تعود الى الظهور خاصة على هيئة القصور limitation والتعرض للخطأ faillibilité ومع أن ريكير يفترق عن الوجودية السارترية فى أن التقابل بين الوجود فى ذاته والوجود لذاته يبدو له غير كاف ، فانه يعترف بأننا نعيش انعدام ضرورة الوجود non-nécessité d'exister فى الحالة الوجدانية للحزن• وعلى هذا فان العاطفة التى تعد ماهيتها هى تحقيق التوحد فينا ، تبدو فى الوقت نفسه على أنها جرح خفى ، وعلى أنها صراع • ومن هنا تظهر رمزية الشر • بيد أننا لا نستطيع أن نسترشد فى هذا المجال الذى لا يتفتح هنا الا بمعونة الأساطير ، أساطير العماء الأصلى chaos originel وأسطورة النفس والجسم ، ورمز الغفران ، وأسطورة النفس المطرودة من الفردوس ، l'âme exilée • ويختتم الكتاب مؤقتا بتأكيد أن الرمز يدعو للتأمل ؛ ويقترح ريكير اقامة انطولوجيا للتناهى ، ولكنه يقول

اننا لا نستطيع أن نتصور الا « فلسفة ذات افتراض مسبق » وفى رأيه أن « الفلسفة التى تتغذى أولا على ما فى اللغة من امتلاء ، هى وحدها التى تستطيع بعد ذلك أن تكون غير مكترثة بمداخل اشكالاتها وشروط ممارستها ، وتظل على الدوام حريصة على احالة بناء تسليمها الشامل والعقلى الى موضوعات » • وهو يصر على أن فى هذا العمل ضربا من الرهان : « فالفلسفة تحاول بالنظر والتأمل من خلال تلك العرضية وضيق الأفق اللذين تتسم بهما حضـــارة التقت برموز معينة ، ولم تلتق برموز غيرها ، اكتشاف معقوليـة أساسها » •

وقد يكون من الطريف متابعة تطور نظرية الوجود فى الفلسفة الفرنسية القريبة العهد • بيد أننا لن نقف طويلا عند فكرة فعل الوجود l'acte d'être كما طورتها التوماوية الجديدة عند ماريتان وجيلسون • ليس من شك في أن هذا المذهب قد أثار أسئلة كثيرة بناء على مشكلة تركيب الماهية والوجود كما وضعها جيلســـــون بالنسبة الى الموجودات الناتجة عن فعل الوجود ، وبناء على مسألة العلاقة بين الحكم القائم على الوجود وفعل الوجود الذى يتجاوز كل حكم • بيد أننا سنطرح هذه المشكلات جانبا ، اذ أن كل ما نريده هـــو أن نشـــير الى دور الوجـــود فى فلســــفات بينها من الاختلاف ما بين فلسفة جانكلفتش Jankélévitch وآلكييه Alquié فكل منهما يختلف عن الآخر اختلافا عظيما : لأن أحدهما لا عقلى ، والآخر عقلى • ففى كتاب جانكليفتش « الفلسفة الأولى » يتناول فكرة الوجـــود الذى هو مبدأ المبـادىء متخذا نقطة بدايتـــه من أفلاطون أكثر مما يتخذها من برجســـون • أما آلكييه فيبدأ من ديكارت ومن « كانت » على وجه الخصوص لكى يجعل مجال الوجود مفضلا على مجال المعرفة •

وجدير بنا أن نعمل حســـابا ، فى تطور هذه الأنطولوجيـــا

المعاصرة لتأثير هيدجر الذى ترك طابعه على عدد كبير من أهم الفلاسفة الفرنسيين الشبان •

ومن المناسب أيضا أن نذكر الدور الذى تقوم به فكرة الوجود عند سارتر أو على الأقل عند سارتر مؤلف « الوجود والعدم » • غير أن هذه الفكرة تزدوج هنا ، فهناك الوجود فى ذاته والوجود لذاته ، ولكل منهما خصائص مختلفة عن الآخر تمام الاختلاف بحيث يدفعنا ذلك الى أن نتساءل الى أى مدى يجوز لنا أن نطلق عليهما معا كلمة واحدة •

ان تأمل « ليفيناس » Levinas متجه صوب الوجود ، وان كان من الأصح أن نقول انه متجه ضد الوجود ، لأنه يعترف بامتياز الموجود على الوجود ، وبذلك يعكس الترتيب الذى وضعه هيدجر • والموجود يتبدى له أساسا على أنه الوجه le visage الوجه الانسانى ، وما نشعر به من وراء هذا الوجه الانسانى ، وما نحس به عند مطالعته ، هو اللاوجه الالهى le non-visage divin

للفيلسوف الألمانى فشنر Fechner كتاب يحمل عنوان : « رؤية النهار فى مقابل رؤية الليل » وهذا العنوان هو خير مانواجه به مؤلفات جاستون جاشلار Gaston Bachelard فهذا الفيلسوف قد شغل أولا ، وظل منشغلا على الدوام ، بفلسفة العلوم • وهو فى هذا المجال يواصل تراث ليون برنشفج مع العمل على تجديده : فهو يواصله لأن ما يريد أن يلقى عليه ضوءا هو الروح العلمية من حيث انها تستبدل بالعالم المعطى لنا عالما من العلاقات ، وهو يعارض فى هذه النقطة تفكير مايرسون مثلما كان يعارضه برونشفج • فالعلم لا يبحث عن الاشياء الثابتة stabilités (عن الثوابت) وانما يضعنا وجها لوجه أمام شبكة من العلاقات • كذلك فان باشلار يجدد هذا التراث : ذلك لأن العلم فى تحوله الدائم يضعنا اليوم ازاء حالات منفصلة ولا تماثلية ، وازاء حشد من التعقيدات فى مجال

اللامتناهي في الصغر ، وهذا ما لايوحي لنا به أبدا فكر برونشفج على الرغم مما يتصف به من عمق ومرونة •

ولقد وصل جاستون باشلار الى الفلسفة عن طريق تأمل العلوم ، ونشاطه موجه الى اتجاهين مختلفين ، يبدوان متضادين لأول وهلة على أقل تقدير • فنحن نستطيع أن نعده في المقام الأول مواصلا لتعاليم ليون برونشفج مع تجديدها في عدة نقاط ، أعني أنه يعارض كل تصور تبسيطي لمنهج العلوم • فالعلم في جوهره وضع في علاقة : mise en relation ، وهذه العلاقات متعددة ودقيقة ، بل انها تزداد دقة باطراد وهو يعرض أفكاره عن منهج العلوم أول الأمر في كتابه « الروح العلمية الجديدة Le Nouvel Esprit Scientifique ثم تطويرها على التعاقب في كتبه : « النزعة العقلية التطبيقية » و « فلسفة لا » و « تجربة المكان في الفلسفة المعاصرة » و« ديالكتيك المدة » و« النشاط العقلي للفزياء المعاصرة» و « مقال عن المعرفة المقاربة » وغير ذلك من المؤلفات العديدة التي نذكر من بينها خاصة كتاب : « المادية العقلية » وها هي ذي بعض الأسماء التي يصف بها منهجه: النزعة العقلية التطبيقية أو الحدية terminal كما يسميها أيضا ، والديالكتيكية ، أو المستنيرة ، والتجريبية التكنولوجية ، والديالكتيكية أيضا ، أو المادية العقلية أو النزعة العقلية المشتركة co-rationalisme • فمنهجه نزعة مجردة أو مادية مستنيرة ، مادية متعمقة • والروح العلمية انما هي تاريخ حي ، اذ أن صيرورة أي مفهوم محفورة في هذا المفهوم نفسه ، والمفهوم متأثر بصيرورة ابستمولوجية (معرفية) « فهناك في أعماق المادية تكنيك يسير جنبا الى جنب مع فكر واع بمعقوليته » فالأمر هنا يتعلق بادراك المادة في كثرة ، وفي لحظاتها المتباينة تمام التباين ، والتي تزداد على الدوام تفاوتا في المرتبة• وبهذا تولد أنطولوجيا مرهفة أو على حد تعبيره : أنطولوجيا تجتمع

فيها الرقة والقوة • وهو يبين بتحليلاته الدقيقة كيف يتطابق العقلى مع التجريبى فى محاولة لتجاوز الأنطولوجيا • ولا تعود أية مادة تعرف الا بمجموعـــة ــ تكون أحيانا كثيرة جـــدا ــ من الحالات « التركيبية » structuraux • كما لا يعود الموضـــوع الا التصور الحدى concept limite الذى تتجه نحـــوه طرائق للمنهـــج محددة بعناية فائقة • ولنورد هنا فقرة موجزة :

« أين توجد النويات فى الجـزىء ؟ وماذا تفعل النويات فى الجزىء ؟ لا شىء • وأين توجد الألكترونات فى الجزىء ؟ الجواب غير دقيق ، فهى توجد هنا وهناك • وماذا تفعل الالكترونات فى الجزىء؟ كل شىء • » •

ان الكيميـــاء الكميـــة quantique ــ وهى جهـــاز هائل من المعقولية rationalité ــ تتلاءم ــ على حد تعبيره ــ مع نزعة واقعية نشطة ودقيقة ، وتتحد النزعة المادية مع الدياالكتيك بطريقة تختلف اختلافا كبيرا عن طريقة المادية الديالكتيكية ، فلا وجود لجوهر مغلق فى ذاته وعلى ذاته ، وانما هنـــاك مايســميه باشلار مواد متفاعلة مع غيرها ex-stances •

فلنقف لحظة : لكى نتذوق الطابع الغنائى لهذا الفكر الدقيق كما يتجـــلى فى فقـــرة من كتـــاب « النزعـــة العقلية التطبيقية Le Rationalisme Appliqué « الوحدة العظيمة » من نصيب النفوس العظيمة ، وليتصور المرء تلك الوحدة التى يعانيها شخص مثل أينشتين حـــين يرفض مفهـــوم المعية simultanéité » وهذه العزلة الأصيلة ، وهذا الانتصار للمعرفة المتسقة يتكرران بدورهما عند مولد الميكانيكا التموجية • فلنحى من جديد تلك العزلة الفكرية التى عاشها شخص مثل لوى دى بروى Louis de Broglie » •

بيد أن هذا لا يعنى أن هذا الفكر المتوحد لا تصاحبه مواجهة

لفكر الآخرين • « ان الفكر ، حتى حين تكتسبه ذات منعزلة ، يحمل طابع المنافسة ، ويواجه الآخرين وهم يراقبونه ويلاحظونه ، ونتيجة لهذه العزلة وهذه المواجهة معا ، كان الفكر عملا travail « ان مجهود التركيب synthèse قائم في كل الأحوال ، في التفاصيل وفي المذاهب • ولا معنى للمفهومات العلمية الا في نزعة تصورية مشتركة inter-conceptualisme وهذا ما يتضح لنا ابتداء من الهندسات اللا اقليدية non-euclidiennes وكذلك في الفزياءات غير النيوتونية non-newtoniennes وفي اتجاهات الكيمياء التي لا تتفق مع لا فوازييه على حد سواء • فهناك نسق مختلفة من النزعة العقلية • ومن الأفكار التي يؤكدها بشلار ، أن هذه النسق تنبثق بواسطة ضرب من الانقلاب خارج مجال الموقف الطبيعي وضده ، فلهذه النسق اذن طابع ثوري • والعلم يتقدم بتقويم المعرفة ، وهذا التقويم يقتضي نفيا وحذفا دائمين ، كما يتطلب توسيعا للأطر : أي انه ابتعاد عن التبسيط désimplification ، وهو فلسفة مفتوحة لأنه فلسفة « اللا » (أي النفي) ولأنه لا يتجه أبدا صوب عناصر نهائية تكون في الوقت نفسه بسيطة • وعلى هذا فان بشلار يعارض النزعة التي تقول بواقعية الأفكار معارضته للنزعة الوضعية • « فلا بد من رؤية جديدة تعمل على تعقيد فلسفة الحركة » وقد لخص موريس كانجيلم Maurice Canguilhem الأفكار الرئيسية لهذا الفيلسوف في بديهيات ثلاث ، البديهية الأولى تتعلق — على حد قوله — بالأولوية النظرية للخطأ ، « ان الحقيقة لا تتخذ معناها الكامل الا عند نهاية خلاف • ولا وجود لحقيقة أولى ، وانما توجد أخطاء أولى فحسب » ومن هنا ننتقل في يسر الى البديهية الثانية ، وتتعلق بالاقلال — نظريا — من قيمة الحدس • اذ ينبغي القضاء على الحدوس ، وينبغي أن يتنازل المباشر l'immédiat عن مكانته للعيني

le concret ومن هنا ننتقل في يسر أيضا الى البديهية الثالثة ، وهي أن الموضوع لا يوجد الا من خلال منظور أفكار متعددة ٠

وهكذا نجد أنفسنا وقد تجاوزنا النزعتين التجريبية والعقلية معا ، لنؤلف نزعة عقلية رياضية هي في الوقت نفسه نزعة تجريبية ديالكتيكية ، أو هي ــ على حد قوله ــ نزعة عقلية حدية terminal متمايزة ومميزة ، أو هي ديالكتيك مادى جديد ، ديالكتيك شامل enveloppante ٠ والواقع أن روح الهندسة ، حين نتعمقها تصبح هي نفسها روح اللطافة esprit de finesse ٠ وستكون مهمة بشلار هي تحديد سمات النشاط العقلي في عمله المزدوج الذى يشمل تجريد الموضوعات وصبغها بصبغة عينية في الوقت ذاته ٠ ان كل فكرة محددة هي فكرة جرت عليها عملية تحديد ٠ ونظرا الى أن العلم ديالكتيكي ، فهو حوار لا ينقطع ، يؤلف في نزعته العقلية المشتركة corrationalisme مفهومات متبادلة inter-concepts هي أحداث عقلية ٠ وينبغي على نقد العلم أن يحافظ دائما على أحوال الدهشة التي تطرأ على العقل ، وهكذا يؤلف ذلك النقد ما يسميه باشلار بالأنطولوجيا المرهفة délicate ، وهي نوع من الديالكتيك الهيجلي المصغر ، يتجاوز كل أنطولوجيا بمستوياته المتقاطعة المتعددة ، ويكون مجالا من المعقولية تزداد المراتب فيه تدرجا على الدوام ٠ هذه الأنطولوجيا المرهفة هي مايسميها أيضا بالانطولوجيا الطليقة déliée ، وهي فلسفة مادية نقية ، ما دام يضع في مقابل النزعة العقلية المجردة ، نزعة مادية مستنيرة ، نزعة مادية مصقولة ٠ بل ان العنصر نفسه يكتسب خصائص تركيبية synthétisants ، وتصاغ جميع التصورات صياغة جديدة ٠ ومن هنا كان باشلار حريصا على بيان أن العلم لم ينته قط ، وأن نشاطه انما هو عملية تنسيج وتفكيك للنسيج لاتقف عند حد ٠ وهذا النشاط لا يمكن أن يتم الا باتحاد أولئك الذين يشتغلون بالعلم ٠

وهنا أيضـا نجـد مظهرا من مظاهر النزعة العقليـة المشـتركة :
corrationalisme .

والأمر الذى يدعو الى العجب هو أن هذه الأفكار العامة ليست أفكارا عامة على الاطلاق ، وانما تستخلص دائما من الاحتكاك بوقائع علمية محددة ، وقد أتى عرض باشلار لأفكاره هذه ، فى مبدأ الأمر ، فى سياق بحثه للعمليات التى يقوم بها الفزيائى وهو يضع نظرية الحرارة ، وعندما عرض هذه الأفكار ، اهتدى اليها ثم أخذ يعمم بحثه فدرس تجربة المكان فى الفزياء المعاصرة ، وفى أحد مؤلفاته التالية عكف على موضوع الحدوس الذرية intuitions atomistiques بيد أن نقطة البداية فى تأملاته كانت دائما مشكلة محددة .

ولكن ما الذى يتم التعبير عنه فى التخيل الشاعرى بالذات ، الذى يسميه باشلار تخيل المادة ؟ وما المادة ، مأخوذة الآن لا من وجهة النظر العلمية التحليلية ، ولكن من وجهة النظر الذى يمكن أن نسميها أصلية وتركيبية ؟ انها العناصر : الماء والنار والهواء والتراب .

فالخيال الشاعرى للمادة انما يتصل بالطابع الاولى لهذه العناصر الاولية ان جاز هذا التعبير ــ مدركا ما فيها من خفة ، وسيولة ، والتهاب على التوالى ، ومدركا آخر الأمر تلك الاحلام الأرضية الثقيلة . وعندئذ يكون لزاما على ناقد الشعر ان يكشف عن ذلك الخيال الرباعى للمادة عند كل شاعر . وينبغى فضـلا عن ذلك اكمال هذه المحاولة الأولى بتوجيه الانتباه الى المكان كما يراه الشعر .

فهل يمكن أن تقوم اتصالات بين رؤية النهار ورؤية الليل ؟ يبدو أن ذلك ممكن بالفعل ، وفى الكتب التى أعقبت ذلك الكتاب

الذى يعد من أروع المؤلفات فى ميدان الملاحظة المنهجية ، وهو : « الروح العلمية الجديدة » أى فى « النزعة العقلية التطبيقية » وفى « المادية العقلية » ، وفى « النشاط العقلى للفيزياء المعاصرة » يشبع بشلار هـذه الحاجة الى الوحدة فى فقرات عديدة • فهـو يستعيض عن فكرة « الكل » tous ، تلك الفكرة التى تكون واضحة تمام الوضوح حين تقوم بتلخيص الاحصاء الذى نكون قد فرغنا منه لموضوعات مجموعة ما ، بفكرة غامضة مختلطة ، هى فكرة « الكل غير المحدد » tout indéfini • وبقولنا ذلك نرضى العقل وخيال المادة فى وقت معا • والواقع أن بشلار ، فى كل الاتجاهين اللذين سار فيهما ، يدرك دائما شيئا يتجاوز ما هو معطى للانسان العادى ، فهو يزيد ان يحتفظ فى آن واحد ـ بما هو قيم فى النشـاطين المتكاملين ، وأن يظل ـ فى آن واحـد ـ محتفظا بانسانيته المزدوجة التى جمع بعمق بين طرفيها : أعنى بين انسان النهار وانسان الليل •

وعلى اساس هذا الاتحاد نستطيع أن نفهم كتابيه : « حدس اللحظة » و « فلسفة لا » فاللحظة التى هى تركيب structure عاطفى للمتناقضات هى احدى نقاط الالتقاء بين النشـاطين • والسلب الجوهرى هو الذى يتيح لنا ربطهما الواحد بالآخـر بالجمع بين مصير المعرفة ومصير الخيال ، أعنى المصير المزدوج للانسـان • ولكن ، لكى يتم ذلك لابد من ضرب من المحـاكاة mimétisme ونوع من الغريزة ، أو على الأصح من الحدس ، ومن التقليد الذى يسمح لنا بأن نجمع فى أنفسنا بين أدق مايوجد فى اختراعات العالم ، وأعمق ما يوجد فى خيال الشاعر سـواء أكان ثقيلا أم هوائيا خفيفا •

وقد كان كتاب ريموند روييه Raymond Ruyer الأول كتابا ان لم يكن ذا نزعة مادية ، فهـو على الاقل ذو نزعة عقليـة

intellectualisme متطرفة ترمـــى الى ربـــط الواقع بالتركيب على نحـو عميــق • ففى أعمـــاق الواقع تخطيطات متحـــكمة schèmes dominateurs يتعين علينا أن نستخلصهـــا ، وهو يتصور الروح على أنهـا فى جوهرها ما ينبغى أن يســتخلص هذه الموضوعات الأساسية ، ولقد ظلت رؤية العالم عند ر • روييه تتسع باســتمرار ، وبدا له الواقع متجاوزا للتخطيطات التى رسمهـا له في البداية تجـاوزا كبيرا • وطرأ من التحـول على ذلك الذى كان صـاحب نزعة آلية وشـكلية ما جعله يسمى أحـد كتبـه الرئيســـية « النزعة الغائية الجـديدة » Néo-finalisme وهو يبين لنا فى هذا الكتاب أننا لا نستطيع أن نتصـــور بطريقة آلية عمل الطبيعة الذى هو تطور النوع ، ولا ذلك العمل الآخر الذى هو تطور الفرد • وفى مثل هذه الفلسفة تسترد فـكرة الغريزة مكانها • وفى الوقت الذى اتخـذت فيه تلك النظريات المسماة بنظريات التحليل المعرفى مثل هذه الأهمية ، نراه يبين لنا مالا يمكن رده الى هذا التحليل ، سواء فى الغريزة ، وفى العقل. فهناك مجموعات كلية عضوية totalités organiques ، لا نصل أبدا الى أية فكرة عنها بواسطة التحليل الذهنى البحت • والواقع أننا نستطيع أن نقارن مجهوده الى حد ما بمجهود باشلار • ولكننا نستطيع أن نقول ان بشلار قد سعى ، منذ لحظة معينة ، الى تحقيق هذين المطمحين ، وأعنى بهما ادراك ماهية النشاط العلمى، وادراك ماهية النشاط العملى ، وادراك ماهية النشـاط الشعرى فى نفس الآن • أما روييه فقد استبدل ــ شيئا فشيئا ــ بالرؤية البنائية التركيبية للعالم ــ تلك الرؤية التى يكاد مظهرها أن يكون ماديا ، حتى وان كانت فى جوهرها صورية ــ استبدل بهـذه الرؤية رؤية أخرى للعالم تقترب أحيانا من رؤية برجسون ، وهى رؤية ليست شاعرية بكل تأكيد ، ولكنها ميتافيزيقية بالمعنى الخاص لهـذه الكلمة ، اذ تجعلنا نتجـــاوز كل فيزياء وكل

فسيولوجيا • وفي هذا عمل يمكن أن نقارنه ـ الى حد ما ـ بعمل دريش Driesch •

ويسيطر الآن فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الماضي همـا ديكارت وهيجل على عدد من المناقشات الفلسفية التى تدور فى الوقت الحاضر . ففى فرنسا قام اتجاه يمكن أن نسميه احياء للهيجيلية • ولقد كان كتاب « فينومينولوجيا الروح » Phénoménologie de l'Esprit هو الذى استرعى الانتباه بوجه خاص ، وان كان أ • كواريه A. Koyré قد خصص مقالا لفكرة الزمان عند هيجل ، بصورة أعم • ويبين كواريه فى هذا المقال أن المستقبل ـ فى التصور الهيجلى للزمان ـ هو اللحظة الحاسمة ، وهو الذى يتمتع ـ ان صح هذا التعبير ـ بمكان الصدارة . وفى عام ١٩٤٧ ظهر الكتاب العظيم الذى الفه الكسندر كوجيف: Alexandre Kojève تحت عنوان : « مدخل الى قراءة هيجل » وهو ملخص لمجموعة المحاضرات الدراسية التى القاها فى « مدرسة الدراسات العليا » . ويتحد تأثير هيجل بالطريقة التى يعرضه بها كوجيف بتأثير هيدجر . وعلى حين كان الباحثون يؤكدون بصفة عامة ، تحت تأثير اكتشاف كتابات هيجل اللاهوتية الاولى ـ أهمية الطابع الدينى للهيجلية فان ، كوجيف يعرض علينا هيجل الذى يحيا فى المحايثة l'immanence الذى هو ملحد فى نهاية الأمر • وانه لمن العسير، قطعا ، أن يختارالمرء بين هيجل صاحب نزعة وحدة الوجود ، أو النزعة المؤلهة من جهة ، وبين هيجل الملحد من جهة أخرى . وهذا راجع الى طبيعة الحل الهيجلى نفسه ، ذلك أن « الروح » هى التطور عند هيجل . وهذه الروح لا يمكن أن تكون ـ فى نظر كوجيف ـ الا روح الانسان ، بل هى فى أعماقها ـ وفى نهاية المطاف ـ روح هيجل الانسان . وكما يختم نابوليون ـ التاريخ الانسانى ويغلقه فى نظر هيجل ، فكذلك يختم هيجل تاريخ الفلسفة ويغلقه . ولكن قد نجيب على ذلك بانه اذا

صح هذا ، الا يكون راجعا الى أن الروح المطلقة قد تجسدت في هيجل بحيث أن هيجل يختم تاريخ الفلسفة فى الظاهر فحسب ؟ ان ما يختم تاريخ الفلسفة هى الروح المطلقة التى لا يعد هيجل الا متحدثا باسمها . ويمكن أن تمضى المناقشة على هذا النحو : فهى ترجع الى طابع الاجابة الهيجلية نفسه .

بيد أن هذا ليس هو كل ما يمكن أن نستبقيه فى هذا الموجز السريع جداً من محاولة كوجيف العظيمة ، فكوجيف ينكر انكارا مطلقا امكان تطبيق الديالكتيك على الطبيعة ، وسيكون هذا الانكار سمة من سمات الوجودية الفرنسية ، فتلك صفة مشتركة بين كوجيف وسارتر ، بل انه ليس من المحال افتراض وجود تأثير لكوجيف على سارتر .

أما الشرح الذى قدمه جان هيبوليت Jean Hyppolite لكتاب « فينومينولوجيا الروح » والذى يصاحب ترجمته الممتازة لهذا الكتاب ، فلا يأتى باجابة حاسمة على المشكلة التى أثارتها المناقشة بين كوجيف وخصومه . فمن المؤكد أن هناك ميلا عند جان هيبوليت لتأكيد نزعة هيجل الانسانية ، أعنى لتأييد حل محايث immanente للديالكتيك ، ومع ذلك فان هيبوليت يرى أن عدم اتخاذ موقف حول هذه النقطة وترك السؤال مفتوحا ، أقرب الى فكر هيجل . وبدلا من الاجابة على هذا السؤال نراه يتمسك بالعمليات الجوهرية فى الفكر الهيجلى وأعنى بها التوسط la médiation والسلب الأساسيين للتصور الهيجلى للوجود .

وانا لنعلم مدى تباين الآراء حول فكر هيجل فى فرنسا ، بين أولئك الذين يبحثون عن أصل هذا الفكر فى الظروف الاجتماعيه والتاريخية ، وأولئك الذين يلتمسون هذا الاصل فى الظروف الدينيه . وكذلك ينبغى ان نحسب حسابا لتشعر ،

ولذلك الاتحاد الحميم بين شلنج وهيجل وبين هيلدرلن Hölderlin ولكن ليس موضـوع الأصـل الأول لتفكيره هو وحده سبب هذا التباين فى الآراء • فمن الممكن أن يحدث هذا التباين أيضـا حول موضوع نهاية هذا التفكير . فما هو ذلك التحقق للفكرة l'Idée الذى هو نهاية الفلسفة الهيجلية ؟ ربما كانت اسهل اجابة هى أن نقـول انهـا « الروح الـكلية Geist على حـد تعريف هيجـل لهـا • ولكن ربمـا أصر المـرء على معـرفة الطريقة التى ندرك بها هذه الروح الكلية : هل هيجل الانسان هو الذى كونها وفقا لروح نابوليون ، كما تصورها هيجل ؟ هل هى « الكتاب » أعنى المجموع الذى يكونه كتاب « فينومينولوجيا الروح » وكتـاب « المنطق » ؟ هـاتان هما الاجـابتان اللتـان يميل كوجيف الى تقديمها . وفى هذه الحالة يكون هيجل ، بروحه وكتابه ، هو الذى سيختم التاريخ ، ولكننا نرى مافى مثل هذه التأكيدات من عيوب ، ومن ثم فاننا نرجع الى تلك الفكرة القائلة بأن مايؤلف نهاية التاريخ هو هذه الروح الكلية التى ينبغى تحديدها ، والتى تظل بالضرورة غير محددة ، بحيث نجد أنفسـنا ازاء ضرب من الاحراج l'aporie حين يتعـلق الأمر بفـكر هيجل عن نهـاية التـاريخ ، كما نجد أنفسـنا ازاء الاحراج نفسـه حين يتعلق الأمر بفكر أرسطو عن الوجود •

وحين نتأمل فكر ماركس ، نجد أنفسـنا ازاء مصـاعب مماثلة• فهذا الفكر يسود قطاعات متعددة من الفكر المعاصر • وان يكن ذلك بصورة متباينة الى حد ما . فهنا تثار من جديد مشـكلة نهاية التاريخ . وهل نستطيع أن نتصور هذه النهاية للتاريخ ؟ لقد كرس كثير من اللاهوتيين كتبا شـائقة لدراسـة ماركس ، وفكرتهم طبعا هى أن اجابة ماركس ليست مرضية على الاطلاق• ولكنهم أبدوا أحيانا فى أبحاثهم نزاهة عظيمة •

وهنا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا ، من ناحية اخرى ، أن كثيرا من الذين اجتذبتهم الماركسية قد ابتعدوا عن صورتها الأرثوذكسية (الملتزمة بالأصل) • وذلك بالرجوع الى كتابات ماركس الاولى ، وهذا يصدق على مجموعة من الكتاب الذين لا يؤلفون مدرسة بالمعنى الصحيح ، ونستطيع أن نذكر منهم ك • أكسلوس K. Axelos وشاتليه Chatelet وهو أكثر تطرفا فى معارضاته بمعنى ما ـ وفوجيرولاس Fougeyrollas ومن قبلهم لوسيان جولدمان Lucien Goldman وفضلا عن ذلك فان هذه الأفكار تعود على هذا النحو الى الالتقاء بتلك الأفكار الأخرى التى وردت لدى الوجوديين سارتر وميرلوبونتى من جهة ، والتى وردت فى كتابات ج جرفتش G. Gurvitch من جهة أخرى •

فلنذكر الجهد الذى بذله لوسيان جولدمان لاستخلاص نماذج مختلفة للنظر الى العالم ، وعلى الأخص النظرة المأساوية التى يراها متمثلة فى القرن السابع عشر عند بسكال وراسين من جهة ، وفى القرن العشرين فى نظرية المأساوى théorie du tragique كما يعرفها لوكاتش Lukacs من جهة أخرى •

وبطبيعة الحال فان المكانة التى يوليها لفكرة « الرهان » عند بسكال ، وكذلك المقارنة التى يعقدها بين الرهان وبين موقف الماركسية هما أمران قابلان للمناقشة ، ومع ذلك فان هذا المجهود جدير بالتنويه على أقل تقدير •

ولقد ألمعنا من قبل الى أن تاثير هيجل كان له دوره فى تكوين الوجودية الفرنسية • ومن الحقائق الواقعة أن سارتر ظل يؤكد طويلا أن فكره يرتبط بهيجل أكثر من ارتباطه بكيركجورد ، وهذا بلا شك هو الذى كان ميرلو بونتى يؤكده دائما • غير أن فكرتى

السلب والوجود قد طرأ عليهما تحول عميق حين انتقلنا من هيجل الى سارتر، كما أن سارتر، ينكر الافتراض الاساسى فى الهيجلية، وهو افتراض الروح المطلقة التى يتم فيها التوفيق بين الوجود فى ذاته والوجود لذاته. ومع ذلك فهناك تأكيدات هيجلية فى جوهرها مثل هوية الداخل والخارج . أما كيف يمكن أن يظل تأكيد هـــذه الهوية قائما ، في نفس الوقت ، مع التأكيد الكيركجوردى للسر ، فتلك مشكلة قائمة ، وستظل قائمة في المستقبل . ومهما يكن من أمر فان التأكيد الأول (هوية البـاطن والخارج) هو الذى يمثل مركز الصدارة عند ميرلو ــ بونتى .

ولم يكن لتعـليم كوجيف تأثير فى الوجودية فحسب ، بل كان له تأثير أيضا فيهــا يمكن أن نسميه بالبناء الفلسفى التحتى substructure philosophique لأفكار ريمون كينو Raymond Queneau وجورج باتاى Georges Bataille ومن المؤكد أن فكر باتاى لا يمكن أن يرد الى ضرب من النتيجة المترتبة ، على فكر هيجل، غير أنه وجد فى هيجل ، كمـا وجد فى نيتشه فى الوقت نفسه ــ ما يغذى به قلقه .

واذا شئنا ان نربط فـكر باتاى بالفصل الذى كتبه هيجل عن « شقاء الضمير » فاننـا نستطيع أن نربط فـكر الأب فيسار Fessard بالفصل الذى كتبه هيجل عن « السيد والعبد » وهنا أيضا تظهر لنا أهمية تأثير كوجيف ، وكذلك يتبدى تأثير هيجل أيضا ، على نحو مباشر . فالتاريخ الانسانى يقدم لنا مجموعة من الأوضاع ونقائض الأوضاع . ونستطيع أن نقول الى حد ما ــ ان المسيحية تؤلف منها مركبا كما هى الحال عند بسكال . والمجموعة الأولى من الوضع ونقيضه التى يوضحها الأب فيســار مبتدئا من القـديس بولس ، تتـألف من اليهودى والمسيحى . أما المجموعة الثانية التى يضاف فيها هيجل الى القديس بولس فهى مؤلفة من

السيد والعبد • والمجموعة الثالثة التى تتخذ أهميتها على الأخص فى كتابه الأخير « الواقع التاريخى » L'Actualité Historique فتتألف من الرجل والمرأة • وفى كل مرة يرى فيسار أن المسيحية هى التى تقدم حلا للمشكلة التى يثيرها الوضع ونقيضه أعنى أنها هى التى تقدم المركب la synthèse •

ونستطيع أن نقول ان ثمة حركة ديالكتيكية تجعلنا ننتقل من تفكير كوجيف الالحادى الى الفكر الدينى عند الأب فيسار •

وترتبط المحاولة العظيمة التى اقدم عليها اريك فايل Eric Weil بتأثير هيجل الى حد كبير • فهو يعرض علينا تاريخ الفكر بأسره ، متوسعا فى النظرة الهيجيلية الى الأمور ، وآخذا فى اعتباره أن تاريخ الفكر هذا لم يتوقف عند هيجل • ولهذا كان لا بد له من أن يخلق مقولات ليبين كيف أن نظرية للفعل كنظرية ماركس ، ونظرية للتناهى والوجود كنظرية هيدجر ، قد أطالتا هذا التاريخ بأن أتاحتا اتخاذ نظرة اليه تختلف فى ظاهرها كل الاختلاف عن نظرة هيجل • والواقع أن ما تتسم به هذه المحاولة من عمق وغزارة فى المعلومات تجعل من كتاب اريك فايل « منطق الفلسفة » : La Logique de la Philosophie واحدا من أهم الكتب فى الفكر الفرنسى المعاصر •

قلنا ان فيلسوفا آخر يسيطر على تطور الفكر المعاصر ، وهذا الفيلسوف هو ديكارت فلقد أنشأ فرديناند آلكييه Ferdinand Alquie فلسفته التى يمكن أن نسميها انطولوجيا ، أو فلسفة عن الوجود ابتداء من تأمله لديكارت ، ومن كتب آلكييه كتاب عنوانه « حنين الوجود » La Nostalgie de l'être • وهذا الحنين جوهرى – فى نظره – بالنسبة الى الميتافيزيقا ، والميتافيزيقا تتألف أولا عن طريق تأكيد وجود مجال لا تستطيع العلوم أن تتصدى له • فوراء كثرة الاتجاهات العلمية ، هناك شى فريد

لا يمـكن التعرض له الا بعد رفض الأجوبة الجزئيـة والوضـعية جميعا ٠

وكما استطعنا أن نبين وجود نشاط مزدوج عند باشـلار ، فكذلك نستطيع أن نبين وجود نشاط مزدوج في مؤلفات فردينان آلكييه ، فقد أدى به تقـاربه مع السرياليين الى تخصيص كتـاب للمذهب السريالى ٠ أما الطريقـة التى يجمع بهـا بين احترامه لديكارت وارتباطه بآندريه بريتون، أعني توضيحه لأولوية العقل، وافساحه المكان لكل ما هو لا عقلي في الانسـان ٠٠ فهذه مشكلة من العسير حلها ، ولكن يمكن أن نحلها اذا فكرنا في أن هذا اللاعقلي نفسه ليس في نظره الا علاقة على شيء يتجاوز العقل العادى ، وهذا الشيء هـو الوجود وعلى هـذا النحو نستطيع أن نبلغ ما نسـميه نقطـة تطابق un point de coïncidence في فكر فردينـان آلكييه ٠

وما دمنا بصدد الحديث عن ديكارت ، فمن المناسب أن ننوه بالعمـل العظيم الـذى قام به موريس جـيرو Maurice Gueroult والصفة المميزة لهذا العمل فى مبدأ الأمر هى الأهمية التى يعزوها في تاريخ الفلسفة الى تركيبات المذاهب structures des système فسواء أكان فكر موريس جيرو ينطبق على ديكارت أم على ملبرانش أو على ليبنتس ، فانه يرى أنه لا وجود لحقيقـة بالنسبة الى مؤرخ الفلسفة خارج تركيباتهـا ٠ غير أن هذه الحقيقة تتبدى على أنحاء مختلفة وفقا للفلاسفة ٠ ولا شك أن ديكارت مثل ممتاز يمكن أن نبين عن طريقـه كيفية استخدام هذا المنهج ، بيـد أنه لن يكون منهجا بحق ، ولن يكون المنهج الصحيح ، ان لم ينطبق أيضا على فيلسوف مثل ملبرانش يعد الـكشف عن هذا المنهج عنده أصعب كثيرا ٠ ومن الممكن في أحوال كثيرة أن نصف التفسير الذى قدمه آلكييه لديكارت بأنه وجودي ٠ ولقدسبق أن أكدنا أهمية الجانب

الأنطولوجي من هذا التأويل، ومع ذلك يظل من الصحيح أن ما كان يتحدث عنه آلكييه هو ديكارت الانسان • أما موريس جيرو فيبدو أنه لا يوافق على ابراز الانطولوجيا كما فعل آلكييه ، ولا على ابراز العناصر الوجودية• واذن فما يأتي في المقام الأول عنده هو الطريقة التي يكون بها المذهب مذهبا ، أعني تركيبه (أو بناءه) • وابتداء من هذا يرى أن البرهان الأنطولوجي ليست له تلك الأهمية التي أضفاها عليه معظم شراح ديكارت ، ويكفي ان نقرأ ديكارت بالترتيب الذي يضعه هو نفسه لأفكاره لكي نرى أن ذلك البرهان (الانطولوجي)ليس هو البرهان الأساسي ، بل انه يفترض البراهين الأخرى ، وأن الحجة التي نثبت بها أن الله موجود بذاته ليست حجة لها وجود بذاتها •

***

ما من فلسفة مليئة بالمواهب الشابة في اللحظة الراهنة كالفلسفة الفرنسية اليوم • ويكفي أن نتأمل مرونة جانكلفتش الساخرة ، واللاهية المهمومة، والقوة الباترة التي يتمتع بها ريمون هارون Raymond Aron ، والحكمة التي اكتسبها آلكييه نظير ما خاضه من معارك ، والتركيبات القوية التي أوردها روييه في كتابه الأخاذ المثير للدهشة « مبادىء البيولوجيا النفسية » Eléments de psycho-biologie ••• يكفي أن نتأمل هذه الأعمال جميعا لندرك أنها مبشرة بخير كبير • فللفلسفة الفرنسية دور تؤديه ، فيما بين الأعماق الحقيقية التي يصل اليها هيدجر ، وان تكن تلك أعماقا سفسطائية أحيانا ، وبين الفلسفات الانجلو سكسونية التي هي قوية بطبيعتها ، وان تكن الآن متورطة ومثقلة بثرثرات الوضعيين (ثرثرات ضد الثرثرة) وبنزعة طبيعية تهدد بالقضاء على الحس الميتافيزيقي الذي كان يتمتع به على مستوى عال فلاسفة من أمثال رويس وجيمس وبيرس ، وديوى في معظم مؤلفاته ، غير أن الفلسفة الفرنسية لا تستطيع أداء هذا الدور الا

اذا ظلت مخلصة لنفسها ، ولتراث هو تراث مين دى بيران وبرجسون ، مثلما هو تراث ديكارت • وهنا أيضا يعمل الزمان عمله ــ فمن وراء اعتراف سارتر بهوسرل نلمح قناع ديكارت من بعيد ، كما أن آخرين غيره يواصلون فكر بسكال على أنحاء مختلفة: فبعضهم يطور جانب « اللاعقل irraison » والبعض الآخر يطور جانب الايمان •

وليس من شك أن تفككا سيحدث بين العناصر المثالية والعناصر الواقعية الموجودة فى فلسفة هيدجر ، بل فى فلسفة هوسرل ، وفى امتداداتها عند سارتر وميرلو ــ بونتى • ومع ذلك تظل هناك أفكار تصلح نقاط بداية قيمة ، هى أفكار سارتر عن الوعى بوصفه أمرا واقعا facticité ، ومن حيث أنه متجه نحو العالم الخارجى ، وتحليله لفكرتى الممكن والقيمة ، وكذلك تحليلات ميرلو ــ بونتى المتعلقة بجسم الانسان الخاص وتحليلاته للشىء ، وهى التحليلات التى تتحد فيها الفينومينولوجيا بنظرية الشكل (الجشتالت) • واذا كنا نستطيع منذ الآن أن نتكهن بتفكك العناصر الواقعية والعناصر المثالية فى هذه الفلسفات ، ألا نستطيع أن نتكهن أيضا بأنه سيأتى اليوم الذى يمكن فيه لهذه العناصر أن تتحد من جديد فى اندماج أشد جرأة وانسجاما ، بحيث يتسنى لنا حينئذ أن نتجاوز بصفة نهائية مستوى المثالية ، ومستوى الواقعية العادية على السواء ؟

وفى هذه اللحظة التى تنبثق فيها ــ فى العالم أجمع ــ فلسفات جديدة لتأخذ حظها من الانتشار ، والتى تعود فيها انجلترا من جديد الى تراثيها العظيمين : التجريبى والمثالى ، ممتزجين امتزاجا وثيقا ، وتسترد فيها أمريكا ، التى كانت الى عهد قريب متورطة فى ذيول البرجماتية ، والوضعية المنطقية ــ روحها الحقة التى كانت هى أصل البرجماتية نفسها ، ولكن على نحو جديد وحى

تضفي روسيا طابعا ديالكتيكيا على «المادية الديالكتيكية» وتتخلص من مفهومات أصبحت لا تكاد تقل سكونية وجمودا عن مفهومات النزعة الروحية القديمة ، وفى اللحظة التى يستطيع فيها بعض الفلاسفة الألمان — بعد أن يتخلصوا من الوحوش الضارية ، أن يدعوا ملائكة التأمل تحلم فى أنفسهم (وان لم يكن هذا سوى أمل ضعيف ، أمل مقرون بالقلق) — واذا كنا لا نذكر بلادا أخرى ، فليس معنى ذلك أننا لا نفكر فيها (ألم يستطع بلد من أصغر البلاد أن يعطى للعالم كيركجورد ، ذلك الفيلسوف الذى كان تأثيره مرشدا وموجها لعدد كبير من الأذهان ؟) — فى هذه اللحظة يجمل بنا أن نمعن النظر فيما يمكن أن تسهم به فرنسا فى تكوين أنماط جديدة من التفكير •

محتويات الكتاب

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
« فرع الساحل »



